

حسن أوريد
الموريسكي



حسن أوريد

الموريسكي





الموريسكي

الكتاب : **الموريسكي**
الأصل باللغة الفرنسية بعنوان Le Morisque
المؤلف : حسن أوريد
ترجمة: عبد الكريم الجويطي
مراجعة : المؤلف
الطبعة : الأولى 2011
الإيداع القانوني: 2011MO2478
ردمك :978-9954-1-9499-7
الطباعة والإخراج الفني:
دار أبي رقراق للطباعة والنشر



10، شارع العلويين رقم 3 حسان – الرباط
الهاتف: 83 75 20 37 05 الفاكس: 89 75 20 37 05
Email : editionbouregreg@gmail.com

إلى الذين لم يقف التاريخ عند مأساتهم
وأحاطهم النسيان،
إلى ذكرى الموريسكيين.



مقدمة

استقيت مادة هذه الرواية من سيرة أحمد شهاب الدّين أفوقاي، الذي خلّف لنا شهادة عن مساره الفكري في كتابه «ناصر الدين على القوم الكافرين»، يوم أن فرّ من الأندلس خوفا على حياته من فتنة محاكم التفتيش وانتظم بعد هجرته إلى المغرب في بلاط السلطان السعدي أحمد المنصور الذهبي، ورحل في مهمة دبلوماسية إلى فرنسا ثم بعدها إلى هولندا، بأمر من السلطان زيدان الذي خلَف أباه أحمد المنصور.. والجانب الذي يهم صاحبنا، والذي يطابق موضوع كتابه، هو السجال من أجل دحض دعاوى كل من المسيحية واليهودية في كثير من القضايا.. كانت لأحمد شهاب الدين أفوقاي معرفة عميقة ودقيقة بالديانتين المسيحية واليهودية، وكانت له استشهادات من نصوصها وكتبها المقدسة. كان بحق مُعبّرا عما قد نسميه اليوم بحوار الثقافات الذي لم يكن أن يكون آنذاك إلا حوار أديان.. وكان في الغالب حوار صم. فكل فريق يتمسك في مرجعيته لايفارقها، بل في أحكامه المسبقة.. ومن الصعب أن نلتمس من أفوقاي بروفيل معاصر لنا، فأفوقاي ابن عصره، ولا يمكن أن يرتقي على محيطه، وهو، فوق هذا وذاك، يحمل جرحا، شحيح في الإفاضة عنه والبوح به، هجرته من الأندلس والمحن التي تعرض لها المسلمون أثناء محاكم التفتيش.. ولعل السبب راجع إلى أنه كتب كتابه في أواخر عمره، وأن الأحداث توارت مع الزمن، وإن بقي أثرها قويا في حياته ومساره.. فهو ينتصب مدافعا عن الإسلام، وهو ينتقل في بلاد الإسلام، من المغرب والحجاز ومصر وتونس، ملازما للعلماء الذين يساعدونه في دعواه. وهو في بلاد «الكفر» يشحذ معارفه وثقافته الدينية للتدليل على سمو الإسلام، ولو أنه يقع في بلاد «الكفر» بأحابيل الحب، في هوى فتاة من الإفرنج، تُعَنّيه وتفتنه، إلى أن يأخذ الله بيده..

من المادة المتاحة في كتاب أفوقاي، صغت شخصية روائية أملأ منها فراغات نص صاحبها.. صغت رواية تقف عند مأساة الموركسيين التي تختلط

في أذهان الكثيرين بمن رُحّلوا بعد سقوط غرناطة مباشرة أو قبلها.. لا يُعرف كبير أمر عن مأساة الموريسكيين وإن يشهد الواقع في الآونة الأخيرة اهتماما بهذه المأساة، بخاصة في اسبانيا، وتونس، ولا يزال الاهتمام محتشما في المغرب والجزائر.. ولست أعرف كتابا أوفى باللغة العربية حول مأساة الموريسكيين بالمغرب من كتاب محمد قشتيلو، الذي كما يدل عليه اسمه من أصول موريسكية. والمادة وافرة باللغة الإسبانية، وهناك إحياء للمخطوطات المكتوبة باللسان القشاتلي وبحروف عربية وبالخط الأندلسي المغربي، وهي اللغة المعروفة بالخيمادو، وهو تحريف لكلمة «الأعجمية». لقد بذلت مادة أُعرّف بها القارئ بعض فصول هذه المأساة. كان الموريسكيون القربان الذي أدى عن جزر الحضارة الإسلامية وكبش الفداء الذي نصّبته اسبانيا محاكم التفتيش. كانت هويتها تمر عبر محو الحضارة العربية الإسلامية ومخلفاتها التي يمثلها الموريسكيون.. والحال أن الموريسكيين لم يكونوا من حيث العقيدة ولا الممارسة الدينية وحدة منسجمة، ولكن الإيديولوجية الطهرانية لمحاكم التفتيش التي كانت تأخذ بها الدولة الاسبانية كانت ترفض كل أشكال التلاقح والتفاعل. كان الموريسكيون، أغلبهم، مسيحيين جددا، مثلما كان يطلق عليهم في أدبيات اسبانيا آنذاك، ولأنهم كذلك فهم زائغون عن الجادة، أو مهرطقون.. لا مكان إلا للمسيحية «الصافية» التي تقرها الكنيسة وتشهد عليها محاكم التفتيش.

لقد كان الموريسكيون، شأنهم شأن يهود اسبانيا، تعبيرا عما يمكن أن نسميه تلاقحا دينيا. نعم إننا قد نفاجأ لظاهرة التلاقح الديني، ولكنها ظاهرة اعتورت مسيرة الإنسانية. فمعتقدات الموركسيين كانت مزيجا من مخلفات الإسلام، ومن تأثيرات المسيحية، ومن طقوس وثنية، شأنهم في ذلك شأن اليهود المعروفين ب «الماران» الذين كانوا يمزجون بين العمق اليهودي والتأثير المسيحي. لقد قدّم هؤلاء «الماران»، شخصية فذّة، هي شخصية سبينوزة، والتي نظر إليها أحبار أمستردام بالريبة.. لقد كان سبينوزا موريسكيا من نوع آخر، كما عانى الموريسكون الأَمَرّين بعد أن استقروا في بلدان شمال افريقيا، بتونس، أو ضاحيتها، تستور خاصة، وبوهران، والجزائر، وتطاوين، والرباط،

التي كانت تسمى في أدبيات ذلك العصر بسلا الجديدة. ولنا شهادة في سرفاتيس في كتابه الشهير، دون كيخوته، تعبير عن آساهم وجرحهم. أليس كتاب دون كيخوتة نفحة من أدب الموريسكيين؟ ألم يستق سرفانتيس مادته من سيد أحمد بن خليل الذي تحول اسمه إلى Cid Hamet Benengli يوم أن كان أسيرا بالجزائر.. ويُحسَب للأديب الجزائري والروائي الكبير الواسيني لعرج روايته المتميزة في تأثر سراديب المأساة الموريسكية، في «البيت الأندلسي».

لقد كان الموريسكون ضحايا ما يمكن أن نعبر عنه بالتطهير العرقي، مثلما قدم باحث اسباني بذل مادة غزيرة لما بلا الموريسكون هو Rodrigo de Zayas. كانوا أولى تعابير التطهير العرقي الناتج عن قراءة «صافية» للمسيحية. كانوا إرهاصا لما سوف تعيشه شعوب مسلمة أخرى في سياق جزر الحضارة الإسلامية. كانوا فلسطينيي ذلك العصر، مثلما يجوز أن نقول إن المأساة الفلسطينية هي نسخة من مأساة الموريسكيين.

ولذلك تسائلنا المأساة الموريسكية. تسائلنا وبخاصة أنها مجهولة أو تكاد إلا من معلومات عامة.

ثم توسعت وأغنيت تجربة أفوقاي بأن جعلته شاهدا على تجربة القرصنة بسلا الجديدة. نعرف أن شهاب الدين أفوقاي، الشخصية التاريخية، عاش ردحا بسلا الجديدة (الرباط) ولكننا لا نعلم شيئا عن مقامه هناك..

نعم، تصرفت في حياة أفوقاي، ووظفت المادة التاريخية، مع احترامي لسداها، لأني أكتب رواية. فالجانب الذاتي حاضر قوي في هذا العمل. فعملي هذا ليس حكيا لسيرة أفوقاي، ولا هو تأريخ للموريسكيين بالمعنى الدقيق للتأريخ.. هو رواية استقيت مادتها من التاريخ، ومن مأساة إنسانية، لأعبر عن قضايا راهنة.. فالموريسكي، في نحو من الأنحاء هو «نحن» المرحّولون من ثقافتنا الأصلية، ومن دُفعنا إلى ثقافة «المهجر»، وتوزعنا بين الاثنين.. آهة الموريسكي، في عملي، هو انتفاضه ضد وضع جامد، يتكرر بوجوه جديدة. هو اكتشاف للنص الأصلي لتاريخ المغرب الحديث الذي رسمه أحمد المنصور

Jamal Hatmal

الذهبي، في توجهات الدولة المغربية، في أساليبها، في طقوسها، في مراسمها، في مظاهر عظمتها وأفولها، في رجالاتها من «المرتدين» والمرتزقة، وشعراء البلاط، ومؤرخيها، وكتابها. ثم النسخ التي تختلف قوة وضعفا التي يحملها آخرون في سياقات مختلفة، مع فاعلين آخر.. تكاد أن تكون لعنة، ولكن «الموريسكي» لا يستكين لهذا القدر.. في قرية من قرى جنوب تونس، توزر، يسدل شهاب الدين أفوقاي سجادته عقب كل صلاة الفجر، ويرمق الشفق، كأنما ينتظر شيئا ما.

وفي قرية من قرى جنوب تونس، سيدي بوزيد، تحرك التاريخ، لكي يزعزع الوضع القار الذي كان سبب آهة موريسكينا، كما ليبر بما كان يتطلع إليه صاحبنا.

بقي شيء آخر، أريد أن أقوله في تقديم عملي، هو أنني كتبته بالفرنسية، لأنني أردته حديثا للآخر، ولكنه حديث لأنفسنا كذلك، فكان من اللازم أن يعود إلينا باللغة العربية بفضل الإصرار الذي ما فتئ يبديه صديقي ذي الأصول الموريسكية، عبد اللطيف جرو، والجهد الذي بذله الأستاذ عبد الكريم الجويطي. وقد قمت بمراجعة النص، مع تصرف طفيف. بيد أن مادته الأولى وروحه انبثقت مني باللغة الفرنسية، فتظل النص المرجعي. ولا أنسى فضل محمد بركاش، العارف بتاريخ موريسكيي الرباط الذي كنا نجول أنا وإياه دروب المدينة القديمة للرباط، أترسم خطاطة هذا العمل وهو يتحفني بمعلومات دقيقة عن تاريخ «الرباطيين». لقد كنت أناديه ممازحا ب hermano، ولن تفوت القارىء تلك الإشارة في متن الرواية نفسها.

والله من وراء القصد.

حسن أوريد

الرباط 9 شوال 1432

الموافق لـــ 8 سبتمبر 2011

«... وسوف يتم تسليم المورسكيين إلى أيدي السلطة، وستتم مصادرة أملاكهم، وهكذا يتم اجتثاث جرثومتهم الخبيثة من هذه الممالك بفضل محاكم التفتيش والقوانين الجنائية الجديدة. وهكذا تستطيع جلالتكم أن تبطش بالمورسيكين وتقضي عليهم من غير حاجة إلى التوفيق (...) وإن ارتأت جلالتكم أن هذا ليس بكاف، فما عليها إلا أن تأمر بما يليق لإطفاء هذه اللهيب المنتشر، بل إن مدى هذا الشر أكبر مما يتوقع. وإن ظهرت حصافة هذا الرأي فلُيطردْ هؤلاء من ممالكنا، ولُيحرقوا، ولُيقطعْ دابرهم نهائيا.»

من وثائق محاكم التفتيش التي أوردها الباحث رودريغو ديزياس في كتابه «عنصرية الدولة» (بالفرنسية)، ص 459 و 464.

«إن ذنوب هؤلاء المورسكيين لواضحة وضوح الشمس لمن له أعين يبصر بها، وأيد يلمس بها، من أن الطاعون الذي ضرب ممالك اسبانيا وأفرغها في السنوات الأخيرة يأتينا من هؤلاء، وكل الأوبئة والأدواء والمشاكل التي نعانيها. هم مصدر الكوارث التي حلّت بسفننا البحرية الملكية..»

نفس المرجع، ص 468.

بلدة الحجر الأحمر
في خاصرة جبال البُشارات
1595-1585



اتجه فارس من فيلق النخبة، الترسيو، نحونا ركضا. كنا بجانب دارنا المتواجدة بالقرب من سلسلة جبال البُشارات. وضع والدي يده على جبهته على شاكلة واقية الوجه لحجب أشعة الشمس كي يتسنى له أن يرى بشكل أفضل. كنت بجانبه منهمكا في مد يد العون له في أشغال الحقل. كبح الفارس لجام الفرس وتوقف أمامنا للتو.

- دييغو، ألم تر بعض الحمّالين على البغال مارّين من أمام بيتك؟

- لا سينيور. من النادر جدا أن يسلكوا طرقنا مع اقتراب الشتاء.

لم أكن بعيدا، لذا تتبعت المحادثة.

واصل الجندي قائلا:

- لقد تم العثور على جثة مقطوعة الرأس ومجردة من أي لباس في طريق بورغوس على مقربة من سيلادا. إنه صنيع أولئك المورسكيين الملاعين. إن رأيت واحدا من هؤلاء الحمّالين في الناحية، أخبرنا بذلك.

- Claro Senõr.

ثم رسم والدي إشارة الصليب، وأمرني بأن أفعل مثله. غرس المذراة في كومة رفث الدواب واتجه نحو الدار.

- بيدرو، أُدخُلْ. الوقت سيء. صاح بي.

في مدخل الدار خلعنا أحذيتنا. نظرتْ إلينا الوالدة بمسحة فزع.

- قُتل شخصٌ في الأرباض، نطق والدي.

وأضاف:

– وهم يتهمون الموريسكيين. ثم أردف، بالعربية، وبصوت خفيض، وهو يرمق الباب ليتأكد إن كان مُغلقا، مستشهدا بآية قرآنية :

– ﴿ولله الأمر من قبلُ ومن بعدُ﴾ (3،30).

كانت علامة الصليب مثبتة فوق المدفأة يلفّها سَدى عنكبوت.

كنا في البيت مسلمين. كان أمرا شاقا التظاهر باعتناق المسيحية في الخارج والحفاظ على المعتقد الإسلامي بداخل البيت. يعتاد المرء على ذلك مع الزمن، لكن الأمر لم يكن يخلو من مخاطر. فمعتنقو المسيحية المزيفين كانوا يتعرضون لأسوإ عقاب من طرف الكنيسة: مصادرة الممتلكات، ملاحقات، مضايقات، وحتى حبل المشنقة. لقد تحدث الخوري أثناء قدّاس يوم الأحد عن حالة مارية روميرو التي تظاهرت أمام محاكم التفتيش بأنها اعتنقت المسيحية، وتصرفت بعد ذلك كمسيحية جيدة، حتى كانت في نزعها الأخير فاعترفت بأنها ستموت وهي على دين الإسلام. لم تسلم جثتها فأحرقت. ثم حالة ذلك القس المكلف بتعليم المسيحيين الجدد والذي ضبط على حين غرة وهو يمتلك اثني عشرة نسخة من القرآن الكريم. تمت ملاحقته فهرب إلى جبال البشارات.

رسم لنا والدي خطة السلوك الذي ينبغي أن نتبعها :

– لا شيء ينبغي أن يفضح انتماءنا للدين الإسلامي: نذهب للقُدّاس، لا نعمل يوم الأحد، نشتغل يوم الجمعة، نلتزم بكل المحرّمات التي أقرتها الكنيسة والمتعلقة بأعيادنا ولباسنا ولغتنا. إننا محظوظون لكوننا فلاحين مترْوين، بالمقارنة مع الحرفيين الذين يسكنون القرى والذين لا يمكنهم أن يخفوا معتقدهم وسط جيرانهم. كونوا على حذر. إن كُشف أمرنا فسيكون العقاب فظيعا، فنحن بالنسبة للشرطة كما بالنسبة لرجال الكنيسة، نموذج ناجح لمن تنصر. وإن حدث وتبينوا بأننا مسيحيون ظاهريا فقط، فإنهم سيجعلون منا عبرة للآخرين. أفهمتَ يا أحمد؟ حركتُ رأسي:

- نعم أبتاه.

- وأنت يا زهرة هل فهمتِ؟ وجه والدي الكلام إلى أختي.

لم تردَّ. كانت خائفة.

كانت تكبرني بعامين، وفي وجهها اقترن الحياء بجمال رائع، بقسمات دقيقة، وشعر أسود فاحم، وسحنة مشرقة نيّرة. كانت مزيجا موفقا للجمال العربي والجمال القشتالي الذي أخذته عن أمي التي كانت من العلوج، مُسْلمة من أصول مسيحية. واصل والدي:

- منذ ثورة البُشارات والملاحقة فظيعة.. لم تكونا قد ولدتما بعد. أنا عشت ذلك التمرد، وقد أثرّ في بشكل عميق. لقد فرضوا علينا أن نغير معتقدنا الديني. هكذا صرنا ملزمين بإظهار اعتناقنا للدين المسيحي وأن نمارس ديننا خفية لكي نُبقى على حياتنا. لايتعلق الأمر باختيار بل بضرورة.

تلونا في صمت فاتحة القرآن الكريم:

﴿... إياك نعبد وإياك نستعين

إهدنا الصراط المستقيم

صراط الذين أنعمت عليهم

غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾.

مدّ والدي يدين ضارعتين إلى السماء، وحين فرغ من الدعاء مسح وجهه بيديه وقبّل السبابتين، وهي الحركة التي تشير إلى الفراغ من الدعاء. كنت ألاحظ حركات هذا الفقيه الذي من أجل إخفاء هويته كعالم دين تنكر في هيئة فلاح يحرث الأرض. كنت ألاحظ حركاته، أتشرب كلامه، لأنني لم أكن أملك من مصادر ترسيخ هويتي سوى والدي. ربّى والدي بداخلي عاطفة الانتماء لأولئك « الأراذل المنبوذين» الذين هم الموريسكيون، الذين يرفضون، ورغم كل أشكال الضغط، الإنقراض.

كانوا يُجسّدون بقايا ثقافة عظيمة وحضارة رائعة. فمنذ سقوط غرناطة، ورغم العهد الموقع بين الملك أبي عبد الله من جهة، وإيزابيلا الكاثوليكية وزوجها فرديناند من جهة أخرى، الذي يتضمن الاعتراف بحقوق الأقليات في ممارسة معتقداتها الدينية، فان توجهات رجال الكنيسة كانت تذهب في اتجاه تنصير شبه الجزيرة الإيبيرية، وذلك بإكراه الأقليات على التنصر أو طردها.

واصل والدي الحديث بالقشتالية متوجها بالكلام إلى أمي.

- فاطمة حَضّري لنا المرق، بدون كسكس، الكسكس مشبوه، وأنت زهرة، امسحي الصليب بخرقة، إنه مغطى بشبكة عنكبوت. لَمّعي كل الأيقونات. يمكن أن يفد علينا الزوار في كل لحظة.

وعقّب :

- غفر الله لنا.

ردت أمي بمسحة غيظ وتعب :

- إلى متى يا قاسم؟ إلى متى نلعب هذه اللعبة، ونشرك فيها طفلينا زيادة على ذلك. لماذا هجرَنا الله؟ أليس لنا من خيار إلا بين عيش ضنك كهذا الذي نعيشه أو الموت. أنا متعبة يا قاسم، وخائفة على ولديّ.

رد عليها والدي بهدوء :

- فاطمة ليس من اللائق قول أشياء كهذه أمام ولدينا. إن كان دين سيدنا محمد، صلى الله عليه وسلم، يثقل عليك، فلا إكراه في الدين.

- كيف تجرؤ على قول شيء كهذا ؟ لا يمكنني أن أتنكر لولديّ يا قاسم، لكن هل أرتكب معصية حين أقول بأني متعبة وخائفة ؟

- سيُجازى الصابرون على صبرهم كما ورد في الكتاب العزيز. أضاف والدي.

- لا أرى إلا العذاب، ردّت آمي.

أشار إلي والدي بأن أتبعه نحو غرفة صغيرة ملاصقة للإصطبل، ندخل إليها من خلال غرفة مؤدّية لها. هناك كان والدي يتروي ليقرأ ويتأمل. في سن عشر سنوات صرت آلف هذا المكان حيث حفّظني والدي فيه بعض سور القرآن الكريم، وعلمني القراءة والكتابة بالعربية، فصرت أقرأ وأكتب بها بدون عناء. بل كان يمكنني أن أتخاطب باللغة العربية الفصحى رغم أن لغتيّ المحليتين كانتا القشتالية وعربية غرناطة الدارجة.

بدا ولدي غائبا ذلك اليوم. كنت أقرأ وألاحظ بأنه لم يكن يتوقف عند أخطائي النحوية ومخارج الحروف.

– واصلْ يا أحمد، كان أبي يردد بين الفينة والأخرى. ينبغي أن تصير فقيها مثل أجدادك. عليك أن تحافظ على تراث أسلافنا.

في خورنية البلدة، بلدة الحجر الأحمر، كنا نصيخ السمع بانتباه، أنا ووالدي ووالدتي، وأختي زهرة لعِظة فراي[1] ميكو، يوم الأحد الذي تلا حادثة القتل. تم التحقق من هوية الضحية المسكين. كان مسيحيا قديما.. تنبهت زوجته لتأخره فأخبرت الشرطة. وحين عُثر على الجثة مقطوعة الرأس دعيت للتعرف عليه.. وبواسطة ندبة في ساقه تمكنت من ذلك. كان ذلك كافيا لرمي اللعنة على المسيحيين الجدد. كان الخوري قاسيا وحازما وعمل على الإنحاء باللائمة هذه الدودة التي ترفض وضوح رسالة المسيح وتتعلق بالخرافات التي أشاعتها تعاليم محمد.

وجدت العظة آذانا صاغية بين المؤمنين الذين أثارت الجريمة حنقهم.

«ينبغي لمقتل أندريه ألونسو أن يفتح أعيننا على المخاطر المحدقة بنا. لن نعيش أبدا في طمأنينة وهناء مادام هؤلاء المارقون يعيشون بين ظهرانينا. لطالما حاولنا أن نهديهم إلى أنوار الدّين الحق، دين المسيح. لكنهم يرفضون اعتناقه، وحين يفعلون ذلك يفعلون من باب التظاهر والمصلحة أو الخوف.. من النادر جدا أن يصير مسيحي جديد مسيحيا حقيقيا. هل علينا أن نقبل بأن تفسد هذه الجرثومة المعتقد الحق بجملة من الممارسات المحمدية والوثنية والمسيحية، أم علينا أن نصمم على الدفاع عن الإيمان الخالص، إيمان أسلافنا..؟

إن مستقبلنا لرهين بهذا، فلا شيء يعزز قِوام الفطرة الإنسانية سوى الإيمان بالمسيح، هذا الإحساس النبيل جدا. وللأسف، يتم إفساده

---

[1]- كلمة فراي Fray كلمة إسبانية تفيد الراهب، وقد دأب الإخباريون المغاربة أن يستعملوا كلمة فراي، وجمعها الفرايلة frailès للتدليل، وعلى الرهبان. وقد ارتأيت أن أحتفظ بهذه الكلمة.

بالشعوذة والمعتقدات السيئة. كنا نعتقد بأننا استأصلنا فقهاءهم، والفقيه هو ما يعادل عندنا الخوري، بفضل المهمة النبيلة التي أنجزتها محاكم التفتيش، لكن عناد هؤلاء المسيحيين الجدد وإصرارهم يدفعانهم لعدم النكوص عن معتقداتهم الفاسدة ولو بدون من يعظهم ويُرشدهم. إن نساءهم لهن أسوأ من رجالهم.. هناك بكل تأكيد، بين المسيحيين الجدد من لا يراعي شعائرهم، لكنهم لا يتورعون عن الاحتفاء بممارسات وثنية تمس بالمتن الكنسي المقدس والمعتقد الحق. لقد سمعت في بلنسية وبأذني هاتين، أطفالا يُغَنّون الزمبرة[1] يهاجمون قيمنا ويمجدون زعيم بدعتهم المهرطقة. وإني إذ أردد بعض ما سمعته فليس لكي أصدمكم ولكن لتعوا الخطر المحدق بنا، لأنهم هناك في بلنسية يعيشون مع الشر، بل يحمونه. فنبلاؤنا يحمون مسيحييهم الجدد الذي يخدمون أراضيهم ويتعهدونها. لو كنا نشتغل كما يجب فلن نكون في حاجة إلى هذه الجرثومة.

هذا ما كان الأطفال الموريسكيون يتغنون به وهم ينطّون :

« لي، لي، لي، ها، ها، ها.

هيني، هيني، نيها، نيها.

تظاهروا باعتناق دين المسيح

ولو لم تؤمنوا بهِ.

ولو لم يخطر ببالكم

تظاهروا بذلك مضطرين،

ومحمد في قلوبنا.»

---

[1]- أصل كلمة zambra عربي من السمر، وكانت رقصة مصحوبة بأناشيد مشهورة لدى الموريسكيين ولاتزال مستمرة إلى الآن بالأندلس كرقصة فقط.

رسم الفراي فاصلا زمنيا. بلغ الإستنكار لدى المؤمنين أقصى مداه، فصاحوا صيحة واحدة :

- السيد المسيح..

ثم أدّوا إشارة الصليب.

واصل الفراي باطمئنان:

« إنهم خونة في خدمة طاغية تركيا الذي يهدد شواطئنا والذي يمخر قراصنته من الجزائر بسفنهم حتى موانئنا، وهم يقيمون علاقات مع مورو المغرب. كيف تريدون ألا يقتلوا عجزة مسيحيين مساكين وهم يستقوون بدعم العصابات التي تأتي من المغرب بل من تركيا، والذين يشاطرونهم العقيدة ؟ ألن يتشجعوا إن بدا منا الخوف؟ ماذا كسبنا من منع أعيادهم ولباسهم ولسانهم ؟ هل استأصلنا الشر بهدمنا لحماماتهم ومساجدهم؟ لقد بلغت الغطرسة بهم حدا جعلهم لا يتراجعون أبدا. يلتزمون بشعائر قرآنهم، ولا يأكلون إلا اللحم المذبوح بحسب تعاليم دينهم، ويرفضون أكل لحم الخنزير، ولا يعملون يوم الجمعة، ويصومون إبان صومهم الكبير الذي يدوم شهرا، ولا يذهبون إلى القداس إلا مضطرين، وحين يذهبون يتصرفون كبرابرة همج. وقد قال لي قساوسة بأنهم لا يعترفون أبدا بخطاياهم وبعد أن يُعمِّدوا أطفالهم، يسارعون لغسلهم بمجرد ما أن يعودوا إلى بيوتهم، ولا يمكن للقساوسة أن يدفنوا موتاهم، وقد اعترف لي هؤلاء بأنهم لا يقيمون قدّاس الوفاة عليهم إلا من باب الواجب، إذ هم يعرفون بأنهم يظلون مسلمين.

حذار ! فمع أخلاقهم المنحلة، ونساءهم الماجنات، فإنهم سيتجاوزونا من حيث العدد. وماذا سيبقى من أرضنا ومن ديننا إن بدونا مذبذبين إزاء حماستهم، سلبيين حيال خصوبتهم ؟ أن يكون هناك مسيحيون جدد جيدون ليس ضمانة، مع الأسف، على إخلاص العدد الأكبر منهم. كنا سنستفيد إذاك من وجود مورسكيين مسيحيين جيدين،

يحرثون الأرض، ويزاولون الأشغال الشاقة، بينما ينخرط المسيحيون القدامى في أسلاك مناصب الدولة أو الجيش، لكن الأمور، وللأسف لا تجرى على هذه الشاكلة. ليس هناك من حل إلا بطردهم أو إبادتهم ليتسنى لنا العيش بسلام.»

ثم بدأ في ترتيل صلاة «أبانا» ورددناها جماعة :

« أبانا الذي في السماوات. ليتقدس اسمك، ليأت ملكوتك (...)

ولا تدخلنا في تجربة غواية. لكن نجّنا من الشرير،

لأن لك الملك والقوة والمجد إلى الأبد.

آمين.»

بخروجنا من الخورنية كان الناس يتبادلون التهاني على الأقوال الحازمة لفراي ميكو. ينتمي الخوري ميكو إلى الجمعية العامة لمحاكم التفتيش والتي شهدت على اعتناق أبي للمسيحية، أو ما يسمى بالتوفيق، وأقرت بحسن تنصره. وُجّهتِ التحايا لوالدي لتهنئته على توفيقه. حرّك والدي رأسه دلالة على الامتنان دون أن تفتر شفتاه عن شيء.

قُبض على حمّال وبنّاء من طرف فرقة النخبة الترسيو واقتيدا لرجال الكنيسة للمحاكمة. قرائن ثقيلة تجثم على عاتقيهما، لأنهما وبحكم طبيعة عمليهما، كانا يتنقلان من مكان إلى آخر. والاثنان كانا موريسكيين ــ ولو أنهما تحولا إلى المسيحية - فهذا كان كافيا لإدانتهما، لا للتكفير عن أرواحهما الضالة والفاسدة بالهرطقة المحمدية، فالكنيسة لا تؤمن بتوبة المحمديين، بل لإعطاء درس، رغم أنه لم يكن هناك أي دليل ضدهما. فمحاكمات هيئة التفتيش سرية.

كان علينا، نحن سكان بلدة الحجر، أن نشهد إعدام القاتلَين المزعومين. رفض مشاهدة الإعدام يجعل المرء عرضة للارتياب ويعرضه لعقاب مطارنة هيئة التفتيش. فمنذ انتفاضة الموريسكيين في 1568 بدأت محاكم التفتيش تعمل على أن تفرض نفسها ضد القوى التي أخذت تفكر في الإذعان لواقع الأمر، والتي لم تكن تعتبر تنصير الموريسكيين أولوية، على اعتبار أنهم ضروريون للاقتصاد، بمهاراتهم، وجَلَدهم، وتفانيهم في العمل. فالنبلاء يجدون فيهم مبتغاهم، لأن الموريسكيين يدفعون لهم الإتاوات مقابل حمايتهم. كانوا أيضا فلاحين صبورين على العمل. ولم تترك الفتوحات الإسبانية لما وراء البحر من سبيل للترقي الاجتماعي سوى السيف أو رداء ثوب الراهب.. كان الموريسكيون مذادين عن هذين المجالين، ولم يتبق لهم إلا الأشغال الوضيعة كحرفيين أو فلاحين، وهما مجالا تكوين الثروة. تأرجح التعامل مع الموريسكيين بين تطهير اسبانيا من «جرثومة» المورسكيين أو الاستفادة من مهاراتهم. وقد دافع هذا المقتضى طويلا لصالح بقائهم في البلد وإرجاء طردهم. أما الكنيسة فقد كان لها تصور آخر لا يأخذ بعين الاعتبار الضرورة الاقتصادية وحاجة اسبانيا للموريسكيين، لأن صفاء العقيدة والتوحيد الديني

لشبه الجزيرة الإيبيرية، بالنسبة لها، هو فوق كل اعتبار آخر. وكان للكنيسة في هذا حليف ذو بال: البلاط الملكي، فالبلاط كان يقدم نفسه على أنه حارس المعتقد المسيحي، وفي الواقع كان في حاجة للكنيسة وإلى شبكة نفوذها في الأندلس والممالك المجاورة لتكريس نفوذه.

كان إعدام المحرمّيْن المزعومين من المسيحيين الجدد أو الموريسكيين، نقطة تبلور السباق بين سلطة رجال الكنيسة واللائكيين في إسبانيا. فالرهان كان يتجاوز تنفيذ حكم. كان والدي يعرف بأن كل هذا ليس هو المهم. فليس محاكمة شخصين مسكينين هو موضوع الرهان بل هو وجود الموريسكيين برمته.

كان المذنبان المزعومان المسكينان مُقيّدين أمام المحرقة. كان عليهما أن يدفعا عنهما تهمة الجريمة النكراء. أقسم البنّاء بأغلظ الأيمان بأنه لم يغادر بيته لأنه كان يستعد لفصل الشتاء، ثم بكى وهو يعتقد بأن دموعه يمكنها أن تثير الشفقة في قلوب القساوسة والشرطة، ودفع، كحجة إضافية وضع أبنائه الصغار، الذين لا مُعيل لهم غيره. أما الحمّال فقد أدهش الحشد ببرودة دمه:

– لم أقتل. أنا بريء. إن كان هذا هو الدين المسيحي، فأنا أفضل أن أموت على دين محمد. سيكون رب محمد أكثر رحمة من الرب الذي تحكمون علي باسمه ظلما..

أصيب الحشد بالذهول للأقوال التجذيفية للحمّال.

ردّ عليه الأسقف الذي يشرف على الحفل:

«إن شتائمك تجاه معتقدنا المقدس لا يمكن غفرانها وسُتعرّضك إلى أشد العقاب في هذه الدنيا وفي الآخرة.. يمكنني أن أتغاضى عن شتائمك، ولكنني لن أتسامح في تهجمك على العقيدة المسيحية والضرر الذي تلحقه بهذه الأرواح الطاهرة الحاضرة معنا والتي تضللها بأقوالك التجذيفية.»

تابع والدي المشهد برأس منكسة.. كانت الأحكام نهائية وبدون إمكانية الاستئناف. لم يكن مشهد الإحراق يهدف لتنفيذ حكم قضائي بل إثارة حمية المشاعر العامة لساكنة أريد لها أن تكون معادية للموريسكيين.

أخذ الأسقف الكلمة كما لو أن محاكمة شخصين بئيسين كانت فرصة لتعضيد الخطاب السائد ودعم توجهات الكنيسة:

«لا شيء يهدد إيماننا المقدس مثل الهرطقة. إنها بمثابة الدودة للفاكهة، إنها تقضمها رويدا رويدا وتنتهي بإفسادها. أولئك الذين تسامحوا مع الهرطقات أدوا الثمن غاليا، والذين بدوا مصممين على مواجهتها أثيبوا على ذلك. التسامح آفة. ومن المحزن أن لائكيين يتواطؤون مع هؤلاء الموريسكيين الهراطقة بدعوى حاجة اقتصاد البلد لهم. لكن مستقبل البلد ليس مسألة مادية، فصفاء العقيدة مقدمٌ على كل الاعتبارات. إن التسامح شكل من أشكال الضعف الذي يستفيد منه الهراطقة والذي يُعرّض عقيدتنا وبلدنا للخطر. إن مستقبل بلدنا ينبغي أن يقرر فيه رجال الدين والذين، وبمعية ملوكنا الأشواس، سيُسَرّعون حلول مملكة الله على الأرض. إن اللائكيين لا يؤمنون بالنصوص المقدسة ويعلون من شأن المصالح المادية، بينما النصوص المقدسة واضحة فيما يخص معاملة عبدة الأوثان، فيهوه أعطى الأمر من خلال صموئيل للملك شاوول بإبادة هراطقة أمليك: « إضرب الآن، أمليك، أنذرها للعنة هي وما تملك. كن بدون رحمة تجاهها. أقتل الرجال والنساء والأطفال والرضع والثيران والشياه والجمال والحمير». عفا شاوول عن ملك الأملكيت والماشية، فعاقبه الله بترع المُلك منه، لأنه بدا ضعيفا إزاء عبدة الأوثان. هل علينا أن نمتثل لتعاليم غير تلك المتضمنة في النصوص المقدسة ؟ إنه لمن الرجس عدم الامتثال لها. غير أن هذا هو ما يدعونا إليه اللائكيون، والذين، يا للحسرة، يتواجدون بقوة، في الجيش، وبين ملاكي الأراضي الكبار

وحتى في البلاط نفسه. ليس هناك من دواء للهرطقة غير العقاب. كيف نعفو عمن أمرنا الله بمعاقبتهم أشد العقاب ؟»

كان مقتل المسيحي القديم المسكين ومحاكمة الحمّال والبنّاء فرصة أخرى للكنيسة لتعضيد سلطتها..

أُجّجت النار، ووضعت san benito، وهي قبعات صفراء على رؤوس المحكوم عليهم وألقيا في النار. وتبددت صرخات المعذَبَين وسط صيحات هياج الحشد الفرح بتنفيذ حكم الله.

منذ تنفيذ حكم الإعدام حرقاً على الحمّال والبنّاء غار والدي في صمته. كان واعيا بأن التنكيل بالشخصين إن هو إلا مقدمة لعقاب جماعي. ضاعف والدي من حذره وأمرنا أن نفعل مثله. لم أعرف أنني مسلم إلا في سن عشر سنوات. فقد عمل أبي على إخفاء معتقدنا الديني مخافة أن نفضح أنفسنا في ذلك السن الغض. لم يكن تعلم العربية مرادفا لاعتناق الإسلام، فقد كانت آيلة للإنقراض مع الزمن. كانت من بقايا الدين المحمدي الأقل «ضررا»، ومن هذا الباب كان يتم التسامح معها. وبذات الوقت كنا نكتب القشتالية بحروف عربية، وهو ما كان يسمى بالخيميادو تحريفا لكلمة «الأعجمية». لم تضع صلتي بالقشتالية والعربية المحلية اعتناقي للمسيحية موضع مساءلة. كنت في الواقع مسيحيا حتى اليوم الذي علِمت فيه من والدي بأن جذوري إسلامية.

لم يكن ذلك صدمة فقط بل مسؤولية، مسؤولية أن أصير كذلك فعليا، وأن أخفيه خصوصا. أدركت بأنني لم أعد أبدا مثل الآخرين. من عشر سنوات إلى أربع عشرة سنة بدأت أتعلم العربية الفصحى ومبادئ الإسلام. كان والدي يوقظني في الصبح الباكر ليلقنني أسس ما ينبغي أن يصبح مساك هويتي. لم تكن أختي زهرة، أو إيناس وهو اسمها المسيحي، مواظبة. ولم يكن والدي يبدي حماسا تجاهها. لقد ألقى على كاهلي أنا المسؤولية الثقيلة لاستمرار مهمة الفقيه. ولا شيء كان يكرهه رجال الكنيسة مثلما يكرهون الفقهاء الذين كانوا يمارسون تأثير بالغا على الموريسكيين ويشوشون على صدق تحولهم للديانة المسيحية.

حتّام يستطيع المرء أن يتستر على هويته ؟ يمكن التعويل على تواطؤ ملاكي الأراضي الكبار الذي لا يهتمون بصفاء العقيدة طالما حرثت أرضهم، وتمكنوا من أخذ الإتاوات من الحرفيين، لكن إلى متى؟ هناك محطات في الحياة

تجبر الفرد على إعلان اختياره: الزواج أو الموت. يمكننا بكل تأكيد أن نتحكم في هاتين اللحظتين الخطيرتين في الحياة. يمكن للزواج أن يكون شأنا عائليا ولا يترك موضوعا لنزوات الحب. ونفس الأمر بالنسبة لمراسم الوفاة. يمكن التحايل معها. يمكن أن يموت المرء على دين محمد ويدفن بحسب الشعائر المسيحية، لكن كيف يمكن التحكم في أحابيل الحب؟ وما العمل إن أصرَّ فرد على أن يدفن بحسب الشعائر الإسلامية؟

كان والدي مشغول البال، ففي النهاية سينكشف الأمر. بلغت أختي زهرة ثمانية عشر سنة وكانت جاهزة للزواج. ما العمل إن تقدم لخطبتها مسيحي أصيل؟ ما العمل إن خلب لبها قشتالي مسيحي بما أننا كنا نعيش بشكل طبيعي لكي لا نثير الشبهات ؟ ففرص الإلتقاء في الكنيسة أو السوق أو في مكان آخر لم تكن نادرة. انفتح والدي علي، لا لُيسرّ لي بعض أشجانه بل للكلام عن نفسه، عن حياته وذويه: لم يكن إسلامي وعلاقتي باللغة العربية راسخين في ذاكرة أو وليدي سياق اجتماعي أو ثقافي، كانا هلامين ويمكن أن يتبخرا، ولم يترسخا إلا حين علمت المأساة التي تختبيء وراء هذين المكونين لكياني: مأساة جماعة مستعبدة، عرضة للنهب والقتل، ضربت عليها اللعنة.. إنها المأساة التي رسّخت عاطفة الانتماء هاته.. لم يكن الإسلام واللغة العربية في واقع الأمر سوى التعبير عن هذه المأساة. لم أكن في تلك الفترة قادرا على فهم هذه الأشياء، لكن أبي هيأني. فإلى جانب اللغة العربية التي كان يلقنها لي وتعاليم الإسلام التي كان يفقهني فيها، فقد كان، علاوة على ذلك، يريدني أن أدرك حجم المأساة الموريسكية كما لو أن ساعته أزفت وينبغي عليه أن ينقل المشعل، أوعلى الأقل تهييء لذلك.. أثّر فيه حرق الحمّال والبنّاء بالغ الأثر. هل كان يعرفهما؟ هل هو على يقين من براءتهما ؟ لا أعرف. لكن ذلك كان منعطفا. قال لي الكلام التالي والذي ما يزال يتردد بداخلي:

«ليس من باب الجبن، يا بني، نتظاهر بما لسنا في حقيقة الأمر، ولكن للحفاظ على أسمى ما وهبنا الله: الحياة. لقد أكرهونا على التحول عن عقيدتنا. الإيمان لا يصنع بقرار.. الطريق الوحيدة لاعتناق دين ما هي المحبة

والعدالة، غير أن العقيدة التي يراد لها أن تسود تقوم على الكراهية والظلم. إن ذلك ليس، بكل تأكيد، رسالة المسيح المفعمة بالمحبة. إننا لا نرفض رب المسيح وإنما رب محاكم التفتيش، والذي باسمه يُحرق الأبرياء ويُقتلون ويتعرضون للنهب. إننا في أعين أعضاء محاكم التفتيش أشرار هراطقة يرفضون رسالة المسيح. لكن رسالة المسيح حُرّفت وُشوّهت. وكيف يريدون أن نعتنقها وقد تم النيل منا حتى النخاع ؟ إنهم يحمّلوننا مسؤولية المشاكل التي تعرفها قشتالة والممالك الايبيرية الأخرى ويعتبروننا خونة في خدمة الخليفة العثماني؟ وكل هذا خطأ.. إننا ورثة حضارة عظيمة، يا بني، كما يدل على ذلك جمال قصور الحمراء، وجلال الخيرالدا، وروعة جامع قرطبة، وإنسانية ابن عربي، وعقلانية ابن باجة أو إبن رشد.. إن هذه الحضارة لم تأت من مكان آخر ولكنها انبثقت من هذه الأرض. إنها إنجاز أبنائها الذين وبكل تأكيد تلقوا تأثيرات أخرى. إنها سنة الله الذي يدفع الناس بعضهم ببعض ويخلق بذلك دينامية بينهم، ولولا ذلك لفسدت الأرض، كما جاء في القرآن الكريم. وهاهم، رجال محاكم التفتيش، يعتبروننا مسؤولين عن كل ما يصيب المسيحية من نكسات، كما لو كنا حشود الفاتحين الأمازيغ والعرب الذين فتحوا قشتالة تحت قيادة طارق بن زياد. لدينا من الأشياء المشتركة مع أي مسيحي قديم أكثر مما لدينا مع طارق بن زياد وجنده. لكن الناس حين تعميهم عواطفهم لا يفكرون، وحين حلّت بنا المأساة لم يعد بإمكاننا نحن أيضا أن نفكر. على من هو أقوى أن يبرهن على ذكائه ورجاحة فكره.. كيف لمن هو عرضة للرفض والإنكار أن لا يبحث عن العون لدى من بإمكانه أن يقدّمه له؟ لو عرفتَ يابني المضايقات والابتزازات التي تعرضنا لها منذ سقوط غرناطة ! رغم أن العهد الموقع بين وزير السلطان أبي عبد الله آخر ملوك بني نصر والقشتاليين المنتصرين قبل استسلام غرناطة، اشترط احترام ديننا. لكن الطبيعة الإنسانية فُطرت على أن القوي لا يرى نفسه ملزما باحترام التزاماته. سأقرأ لك بندا من الاتفاق الذي احتفظتُ بنسخة منه. خذِ المخطوط من فوق الرف. افتحه ستجد رقا، إنه مكتوب بالقشتالية، يمكنك أن تقرأه بسهولة.

أخذت أقرأ بمهل :

«تم الاتفاق بأن الأمراء وأعقابهم وبصفة دائمة وإلى الأبد سيترك الملك أبو عبد الله والولاة، والقضاء، والعلماء والمفتين، والفقهاء، والشرطة، والنبلاء، والفرسان، والحوذيين، والعجزة والعوام، صغارا وكبارا يعيشون بحسب قوانينهم. ولن يُكرَهوا على التخلي عن مساجدهم ومدارسهم، ولا عن مؤذنيهم، ولا عن الأبراج التي يستعملها هؤلاء المؤذنون للدعوة للصلاة. وسيتركون، ويعطون الأمر بترك ما يسمى مساجد مداخيل أوقافها كما عليه اليوم..»

- الأبراج التي يتحدث عنها النص تعني المآذن. فهمت ذلك يا أحمد من دون شك، قاطع والدي.

حرّكت رأسي بالإيجاب وواصل والدي:

- هذا ما تم الاتفاق عليه يا بني. أن يكون مآل المعارك في صالح الأمراء المسيحيين، فيما ذا سيزعج ذلك سائر الناس من سكان حي البيازين بغرناطة أو الحمراء إن حُفظت حقوقهم وعوملوا بإنصاف وتم احترام معتقدهم وأماكن عبادتهم ؟ لكن لا شيء من هذا وقع. مع كامل الأسف. قُسمت غرناطة إلى منطقتين، واحدة مسيحية والأخرى مسلمة. كيف يمكن لمن يعيش في معزل ألا يحس في النهاية بالاختلاف؟ حُشر أسلافنا في إحدى ضواحي المدينة في حي البيازين الشهير، الحي الذي ولدت فيه، والذي حتما لن تطأه رجلاي قط» . ثم أطرق.

- كم هو شديد البرد بالأندلس في فصل الشتاء !قاطع.

ثم تابع بعد لحظة توقف:

ـــ النار خبت إذن، ضعْ الحطب في المدفأة أحمد وحاول ألا تُحدّث جلبة، أمك وأختك زهرة نائمتان.. أين وصلت؟ آه، سقوط غرناطة. لم يكن في نية رجال الدين الامتثال للعهد الموقع والذي يشترط حرية المعتقد. المطران سيسنيروس والذي لم يكن بعدُ من رجال محاكم التفتيش ولكن رئيس مطارنة

طليطلة حرص على تنصير مسلمي البيازين، ولم يتردد في اللجوء إلى القوة أمام تعلق السكان بعقيدة أسلافهم. ذات يوم، تصرف شرطي، بحسب تعليمات سيسنيروس، بعنف مع امرأة من العلوج، أتعرف من هم العلوج ؟ إنهم المسلمون ذوو الأصول المسيحية، مثل أمك. أخذ الشرطي ورجاله المرأة بقوة فبدأت تستغيث. لقد رفضت أن تصير نصرانية حتف أنفها. مزق صراخها البيازين وقلوب ساكنيه. كانت تصيح بكل قواها بأن هذا مناف لميثاق التسليم. سيقت المرأة إلى السجن من الساحة الكبرى للحي. وماذا بإمكان السكان العاجزين فعله ؟ شتائم. ماذا يمكن أن توحي به امرأة تصرخ وتستغيث؟ الظلم فظيع والجموع لا يمكن توقع ردود أفعالها. أحدهم، من بين الحشود، رمي الشرطي- الذي لم يكن بصدد أول تنصير بالإكراه - بحجر وأرداه قتيلا فهاجت الحشود. حمل سكان البيازين السلاح وبدؤوا ينادون بالتكبير: «الله أكبر، الله أكبر» ووقعت الانتفاضة. سمعت هذه الوقائع من والدي الذي سمعها من والده محمد الزبيدي، ليتغمدهما الله برحمته. لقد حمل جدك الأكبر السلاح ضد ظلم تنصير الناس بالإكراه والذي ينقض ميثاق التسليم. أحاطت الحشود بإقامة المطران سيسنيروس متأهبة لسحله. وماذا كان بإمكانها أن تفعله في النهاية ؟ لقد تم قمعها بوحشية، وعاد الهدوء. عاد المطران سيسنيروس بحلول أخرى أكثر فظاعة. أقشعر وأنا أتذكر ذلك. أمر بحرق المخطوطات، أرشيف السلاطين النصيريين والمكتبات، ولم تسلم إلا كتب الطب. كان ذلك بمثابة قطع جذور شجرة. بإمكان الجذع أن يبقى صامدا، لكن الشجرة لا تستطيع أن تنمو من جديد.. لقد مُحقت ذاكرتنا. أصبحت عاداتنا ولهجاتنا مهددة بالضياع... إنه لأمر فظيع أن يفقد شعب ما لغته وثقافته. هناك طريقتان لمواجهة عمل الطمس الثقافي. هناك من ينساقون وراء الثقافة المهيمنة، يتعلمون لغة المنتصر، يتبنون عاداته، ليس لهم مشاكل وجودية، لكن هناك عتبة لا يمكنهم تجاوزها، مثل شجرة مطعمة، لن يكون لها أبدا نسغ الشجرة الأم وحيوتها. آخرون وعلى عكس من هذا، يرفضون الهيمنة ويعبرون عن ذلك بتطرف خطابهم. إنهم مثلما قلت لك آنفا، يابني، كالشجرة المتروعة الجذور والتي هي بلا نسغ وترفض أن تناغيها مؤثرات الطبيعة. ترفض أن تنثني للنسيم ولا يمكنها أن تستفيد من المفعول الطيب

للمطر. هكذا صرنا في معظمنا، أشجارا ميتة، ولهذا السبب أصبحنا عنيدين ولجوجين، لأننا أضحينا مجتثي الجذور. لقد عبّد الفراي سيسنيروس الطريق لمن جاؤوا من بعده: تطهير شبه الجزيرة الإيبيرية من اليهود والمسلمين. تذكر هذا الإسم يا بني، سيسنيروس. ربما كانت له طموحات تتجاوز توحيد شبه الجزيرة الإيبيرية من حيث العقيدة ؟

ظل حي البيازين بؤرة المقاومة، لكنه عرف كيف يتستر عليها. هناك المقاومة السلبية تجاه خصم أكثر قوة، وتلك هي الوسيلة الوحيدة والممكنة. إنه من قبيل الانتحار أن تقاوم بوجه مكشوف خصما شرسا لا يمكن توقع ردود فعله. لا، الوسيلة الأنجح هي المقاومة السلبية، ننحني مثل قصبة، يعرف الخصم ذلك ويحسه، مما يجعله حانقا. في سنة 1566 تم تبني مرسوم فرض على الموريسكيين التخلي عن استعمال اللغة العربية في أجل أقصاه ثلاث سنوات، أما بالنسبة للثياب مُنح أجل سنة للتخلي عن الثياب الحريرية، وسنتان للثياب الصوفية، وفُرض على أبواب منازلنا أن تبقى مفتوحة أيام الجمعة والأعياد وإبان حفلات الأعراس، وتم منع الزمبرة وهي احتفالات شعبية، كما تم منع استعمال الحناء، واتخاذ الأسماء الموريسكية .

وبموجب هذا المرسوم هُدِّمت الحمامات الخاصة و العامة.

كيف لا يتمرد الموريسكيون المساكين؟ لقد استنفذوا كل سبل مراجعة هذه الأحكام، سُدًى. سلطوا عليهم مرتزقة يستخلصون أجرتهم من النهب والسلب وبيع النساء والأطفال الموريسكيين في أسواق النخاسة. انتظم الموريسكيون للدفاع عن أنفسهم فتحصنوا في جبال البشارات تحت قيادة خوان هيرنانديز موسدال، الذي اتخذ من ابن أمية لقبا له. قاوموا قدر المستطاع. أخذوا معهم إلى هناك زوجاتهم وأولادهم... ماذا بإمكان إقدام هؤلاء المقاتلين الشجعان أن يفعلوه وهم يجُرّون معهم أطفالا ونساء، بدون مؤونة..؟ كيف يمكن الصمود إذن في وجه البرد والجوع والعزلة ؟ كانوا شجعانا ولكنهم كانوا مطوّقين.. فالطرق البحرية التي كان بالإمكان أن تأتي منها نجدات أتراك الجزائر أو المتطوعين المورو كانت مراقبة من طرف البحرية

القشتالية. تم ضبط مبعوث موريسكي على مقربة من ألمرية حاملا رسالة إلى أمير المورو و الحكام الأتراك.

اطلعت على هذا النص الذي تُرجم لاحقا إلى القشتالية. لا أعرف المصير الذي آل إليه الأصل. أكاد أحفظه عن ظهر قلب، وإليك، يا بنيّ، خطوطه العريضة. كان صرخة يأس. ذلك ما كانت تتضمنه الرسالة :

«تعالوا إلى نجدتنا إخواننا في الدين. لقد تجاوزت مآسينا كل الحدود. قوموا بفعل الخير بحسب تعاليم ديننا الحنيف، لا تبتغوا من ذلك جزاء ولا شكورا. ادّعوا لنا لكي يوحد الله كلمتنا، فلقد صرنا كالأيتام في مأدبة اللئام، والنصارى يجبروننا على التخلي عن لغتنا العربية، وأن تسفر نساؤنا عن وجوههن، ولم يعد بإمكاننا أن نسلم على بعضنا البعض، وينبغي أن تبقى أبواب دورنا مفتوحة لكي يرين فيها الحزن ويغشاها الإثم. لقد أمعنوا في ابتزازهم لنا وفي تكليفنا بالأشغال الشاقة، وأرادوا دفعنا لتغيير أزيائنا.

يدخلون بيوتنا بدون استئذان ويُلَوِّثون شرفنا ويلحقون بنا العار، ورغم ذلك يفرضون علينا أن لا نشتكى من الآلام التي يسببونها لنا ولو في دواخلنا. كل هذا بعد أن أخذوا ممتلكاتنا، وبعد أن سجنوننا، وطردونا من قرانا. إننا صرنا فريسة لليأس، فنحن بعيدون عن إخواننا وأصدقائنا، وتخلى عنا الجميع ولم يتبق لنا سوى رحمة الله. انظروا لنا بعين الرحمة والشفقة. إننا إخوانكم في الدين، فلا تدعوا الفرقة تنال منكم، فتفرق كلمتكم أشدّ علينا وأمض من المآسي التي نتكبدها. سدد الله خطاكم. »

(...)

- ينبغي أن أسترد أنفاسي يا بُني. هذا فظيع. لِمِثْل هذا يذوب القلب من كمد كما قال أبو البقاء الرُّندي... غفر الله لي إن نسيت أو بدّلت في رسالة التاجر الغِرناطي.. لم تسعفنا الرسالة بشيء. فهي لم تصل إلى من أرسلت إليهم. ضبط التاجر في أرباض ألمرية مع الرسالة فحُزّ رأسه. هل كنا

سنتوجه للأتراك أوالمورو لو تُركنا نمارس شعائرنا الدينية في أمن، في دورنا وبأرضنا ؟

استمر أهلنا في المقاومة في ظروف قاسية. كان الأطفال يموتون من الجوع والبرد، والنساء يحاربن بأيدي عارية الفرسان المسيحيين، ويتعرضن لكل أشكال الإهانات الممكنة والتي لا تخطر على بال: ترحيل، اغتصاب، استرقاق وبيعهن كإماء. كان ذلك مريعا. كلّف الملك فيليب الثاني أخاه غير الشقيق الدون خوان النمساوي بسحق المقاومة والذي كان ابن سِفاح، والأهم من هذا كله أنه كان دمويا، فلم يدّخر وسعا بأسلحته المتطورة وعناصر جيشه المحترفة في القضاء على المقاومة بعد دفاع بطولي. وتم القضاء على المقاومة في ظروف صعبة، وبدون أسلحة نارية. رفضت النساء الاستسلام ورمين بأنفسهن من أجراف شواهق الجبال.

أبكي، يا بني، لأن لا ألم أكبر من ألم رؤية ذويك يموتون وأنت غير قادر على الدفاع عنهم. إن الموت لأكثر رحمة من العجز.

كنت في زهرة العمر، ومن حيّنا، البيازين، كنا نتابع، عاجزين، المقاومة البطولية لأهلنا في جبال البشارات. وكان موطن المقاومة هذا، حي البيازين، تحت أنظار مراقبة مشددة، ولم يكن بإمكاننا لا الخروج ولا المغادرة. ورغم ذلك، وبعد ما حل بمقاومة جبال البُشارات لم نَسْلم من الاضطهاد. لقد تم ترحيلنا كلنا. كانت زهره أختك قد ولدت لتوها. كم كان محزنا رؤية مشهد سكان البيازين، ورؤوسهم منكسة، يمرون واحدا تلو الآخر، أمام الأنظار الجامدة للحراس نحو وجهات مجهولة بعدما جُرّدنا من ممتلكاتنا، وفُصلنا عن ذوينا..

أي مشهد محزن هو رؤية هؤلاء الصناع المتفانين في عملهم، المعتزين بأنفسهم، الذين كانوا يعيشون في يسر ودعة وقد تحولوا إلى الفقر المدقع، يتسولون كسرة خبز لطفل جائع أو امرأة مرضعة. ارتمى شاب موريسكي في لحظة يأس على فارس من فيالق الجيش فمُزّق إربا إربا في رمشة عين.

الأسوأ من ذلك أن أخذ الحراس الأطفال الأصغر سنا، بعد أن فصلوهم عن آبائهم، إلى وجهة غير معروفة...

ماذا يمكنني فعله مع مسؤولية امرأة وطفلة يمكنهم أن ينتزعوها مني؟ كنا مذعنين. أغلب من رُحّلوا ماتوا في الطريق، من الألم والتعب والجوع أو اليأس، أو قتلوا من طرف أولئك الذين كان عليهم حمايتهم، أولئك الذين كانوا يختطفونهم ويبيعونهم كعبيد.

لم يعد حي البيازين يوجد كذاكرة، لم يعد إلا مكانا، مكانا مثلوما.

انتهى بنا المطاف في دير. تكلف بنا بعض القساوسة وطلبوا منا التخلي عن ديننا. كنا على استعداد لفعل أي شيء، لكن شيئا ما انكسر بدواخلنا. يمكنهم أن يأخذوا أي شيء منا إلا قلوبنا. تم إعلاننا مسيحيين جددا. لم تكن التسمية بريئة، فلم نكن مرتدين، ففي أذهانهم لم نكن أبدا مسلمين. كانت الثمانية قرون بمثابة معقوفتين مغلقتين على بعضهما كما لو أنها كابوس. كان الإسلام في عرفهم هرطقة.

إن قلب الكائن البشري جب عميق. يمكنك أن تمتلك جسد أحدهم، وتمتلك حريته وحياته نفسها، لكن لطالما لم تحصل على قلبه فلا يمكنك أن تدعي بأنه إلى جانبك. هو هذا الجرح الذي يوحدنا، هذا الجرح هو الذي يمنحنا طاقة حيوية وقدرة على الإبداع. هذا الجرح هو الذي يجعلنا نقوى على احتمال الذل والاضطهاد. هذا الجرح هو الذي يُبقينا مسلمين حتى الآن. لم أحمل السلاح، يا بني، حين كان أهلنا يموتون من الجوع والبرد واليأس. لم أحمل السلاح حين أُخرجنا من البيازين، لكنني أقاوم كما أستطيع. أقاوم بحفاظي على الذاكرة وبسهري على تربيتك لكي لا تنسى الظلم الذي مورس علينا. إذا لم يكن بإمكاننا تغيير المنكر باليد أو اللسان، فلنغيره على الأقل بالقلب، أي عدم مجاراة الباطل، وذلك أضعف الإيمان كما يقول حديث «لسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام».

اتخذت الحمية الدينية في قشتالة وفي إمارات أخرى شكلا آخر انضاف إلى محاكم التفتيش. فقد بذل الناس جهودا للعثور هنا وهناك على بعض بقايا آباء وقديسين مسيحيين. كانت أخبار وإشاعات اكتشافات رفات بعض القديسين، بل توابيت بعض الحواريين تضبط إيقاع مجرى الحياة الأندلسية. كانت التنقيبات والاكتشافات تُقوّي الإحساس العام بالتجذر المسيحي في أرض الأندلس. لقد كانت الغاية من هذه الحمية العمل على إنكار الماضي العربي الإسلامي للأندلس. كل أسبوع كان يقدم حصته من الاكتشافات في هذه القرية النائية أو تلك. كان رجال الكنيسة وبسطاء الناس يتنافسون في اكتشاف بعض العظام أو بقايا كفن من شأنه أن يخرج قرية مغمورة من النسيان. كانت الأشياء التي يتم العثور عليها ترسل في أبهة عظيمة إلى البابا، وللتو تصل رسالة بابوية إلى هذه الأبرشية أو تلك تؤكد «صدق» هذه الاكتشافات التي عُثر عليها وتُكرس، تبعا لذلك، هذه القرية أو ذاك الكور.

أفاقت قرية مسقط رأسي، الحجر، ذات يوم على إشاعة ملحة حول صندوق عثر عليه في قاعدة صومعة جامع أمر الأسقف بتدميرها. كان الصندوق مختوما بشريط رصاصي، وداخل الصندوق وجد نعش وهيكل عظمي ورقٌ مكتوب باللغة العربية. اندهش الجميع للأمر. ماذا تفعل العربية وسط البقايا المقدسة الشاهدة على مسيحية شبه الجزيرة الإيبيرية ؟ الشيطان الذي أريد له أن يخرج من النافذة عاد من الباب.

لم يعرف خوري الأبرشية ولا الأسقف يوحنا ميتيدز دو سالاتيرا Jean Menedez de Salpatirra كيف يتصرفان إزّاء هذا الأمر فأحالاه على رئيس الأساقفة، الذي أمر بأن تفك أسرار المكتوب باللغة العربية. الكل في قريتنا كان يعرف بأن السنيور خافيس يعرف العربية بفضل سنه المتقدم. لذا اتجه الأسقف نحوه لكي يقرأ له الرّق. كان السنيور خافيس يقدم دروسا في

اللغة العربية للأسقف دون بيدرو كاسترو Don Pedro Castro ويقوم معه بقراءة الموسوعة الجغرافية للإدريسي «نزهة المشتاق في ارتياد الآفاق». كنت من حين لآخر أذهب عند السنيور خافيس لتمتين عربيتي. كنا منهمكين في قراءة موسوعة الإدريسي حين دخل الأسقف. نهض خافيس باحترام وإجلال. كنت على وشك الخروج حين أشار الأسقف علي بالبقاء. أعطى الرق لخافيس الذي تصفحه ثم أخذ يقرؤه ببطء. كان يجد صعوبة بالغة في فك أسراره. وفجأة ، التفت الأسقف نحوي وتساءل عما أفعله عند السينيور خافيس. ارتبكت ثم أجبت بأنني آخذ دروسا في الجغرافية. كنت أعرف بأن موسوعة الإدريسي توجد ضمن المتن العلمي المسموح به بدراسته في الحلقات الدراسية للكنيسة. أشار على خافيس بإعطائي كتاب الإدريسي فاستجاب بدون تردد. أمرني الأسقف بالقراءة فتسارع خفقان قلبي. رددت مع نفسي بأن أيامي معدودة. أوقفني:

- اتبعني.

حين ابتعدنا عن المباني قال لي :

- سنذهب توا عند رئيس الأساقفة، ستقول له بأن خافيس لم يعرف ترجمة الرق، وستقوم أنت بالترجمة.

كانت أبرشية رئيس الأساقفة تبعد بعشرة فراسخ. حثثنا السير نحوها. سرنا بمحاذاة الحمراء التي كانت توجد على يميننا وواصلنا السير نحو غرناطة، وطيلة مسارنا لم نتبادل كلمة واحدة.

بدخولنا للأبرشية أشار الأسقف إلى غرفة انتظار بها دكة خشبية. جلست واستغرقت في تخيل الاحتمالات المكنة غير المحمودة العواقب التي تخبئها هذه المغامرة حين انتزعني خوري م توهماتي المشؤومة.

- اتبعني..

سرت وراءه في رواق بلطت أرضيته بحجر منحوت، وكانت النوافذ التي تحف به ترسل نورا منخلا. الرواق يؤدي إلى باحة بأقواس، وفي قلب

الباحة كان هناك جناح مكاتب رئيس الأساقفة. كان واقفا وبجانبه وقف الأسقف.

– قال لي مانولو بأنك تقرأ العربية. متوجها إلي بالسؤال.

– أبتِ أنا من قرية الحجر حيث ما زال الناس يتحدثون العربية، وقد تعلمتها على يد طبيب يجيدها ببلنسية.

كنت أكذب. فلم يعلمني أحد العربية غير والدي.

هل صدّقني ؟ أم أن مظهري البريء شفع لي ؟ أو أن الأسقف لم يكن يكترث بصدق أقوالي من عدمه قدر اهتمامه بضرورة فك أسرار الرق؟ أعطاني إياه.

في الحال تبينت أن كتابته مختلفة عن الكتابة الأندلسية الدائرية والمزخرفة. كانت كتابة الرق تميل للأشكال المكعبة البسيطة القريبة من الخط الكوفي القيرواني. لم يكن النص مشكولا ولكن الأصعب من هذا هو أنه كان بلا تنقيط، وبإمكان الكلمة أن يكون لها عدة مدلولات. تمكنت وبفضل المعنى العام من الوصول إلى معاني الكلمات غير المنقطة.

كان النص هو التالي :

« يا طالب اللغز أقرن، وإن لم تقرن لم تحط بفهم الجفر.»

سألني عن المعنى بالعجمية فقلته له على هذا الشكل :

أنت الذي تريد أن تفك الأحجية، إجمع المعنى

إن لم تفعل لا يمكنك أن تفك أسراره.

كان امتحاني الأول مقنعا. رأيت الرضا في وجه الأسقف.

ــــ عد غدا، قال لي.

ثم عاد أدراجه للتو، وسار في ممر جانبي متبوعا بالأسقف. عدت في الغد. هيئوا لي غرفة ووضعوا بجانبي خوريا شابا، أتى لي برق تحت عنوان «جفر إنجيل يوحنا في خراب الوجود». ترجمت كلمة الخراب بالقيامة في أسفل النص. جملة تبدأ ب «باسم الذات الكريمة المتلبية...» لم أتمكن من تبين ما يليها. كانت الكلمة التي تليها غير منقوطة وبالتالي غامضة. طلبت منجدا فوفره لي الخوري. الكلمة غير مستعملة في اللغة العربية وهي تماثل الجوهر أو الخلاصة، من لب الأشياء. يبدو بوضوح أن النص تم التفكير فيه بالقشتالية وكتب بالعربية، ولا يمكنني أن أفصح عن هذه الحقيقة البديهية لأنها تتنافى والتأويل الذي تريد الكنيسة أن تسبغه. كانت الكنيسة تريد شهداء وأوثانا وليس حقائق. كانت تريد بأن يعود النص إلى فجر المسيحية وتكون العظام عظام حواريين، أما الكفن فهو كفن القديسة مريم. أرضت الترجمة التي أعطيتها للكلمة ما كانت الكنيسة تبتغيه. كافأني الأسقف على ذلك بأن منحني ثلاثمائة ريال، وذاعت شهرتي بعد ذلك. أينما حللت وارتحلت كان الناس يشيرون علي بالشخص الذي تمكن من قراءة الرّق الذي أُرسل إلى البابا بروما فيما بعد.

كان علي أن أقوم بترجمة نصوص أخرى. أحد هذه النصوص تتحدث عن اضطرابات الشرق، حيث سيولد ستة قرون بعد ميلاد المسيح عليه السلام، ملك يفرض سلطته على العالم، وسيكتنف الشر مسعاه. وتلك هي اللعنة !

كان النص هو التالي :

وملك يتحكم على الوجود كله إلى الغروب

ودين يتقدم على من قد أملاه من الغيوب

والسر يتفهم بما القدر أعطاه على الذنوب.

كان النص عبارة عن نبوءة بظهور الإسلام، لكن لغته وأسلوبه لا يُبقيان أدنى شك بأنه نص منحول. كان النص في أسلوبه أقرب إلى عامية غرناطة، لكن الاتجاه العام يريد أن يعود بجذوره إلى عهد السيد المسيح.

دفعتني فقرة ملتبسة حول مآل الديانتين التوحيديتين، الإسلام والمسيحية إلى الحذر، فالتأويل يقود إلى الغموض، وقد أديت المعنى بالقشتالية بما يلي :

مملكة تبسط قبضتها حتى الغرب

ودين يتقدم على حساب آخر تثقله المظالم

وهكذا انكشف ما أترعه القدر بالخطايا.

ترجمة أخرى تعطي معنى آخر:

مملكة تقود الكون كله حتى مغيب الشمس

دين يتقدم رغم مظالمه

والقدر يعاقب تبعا للخطايا المقترفة. هو ذا السر.

كان التركيب بالعربية مهلهلا وركيكا. ألحّ علي الخوري لأشرح له البيت الثاني. فتخلصت من ذلك بأن قمت بترجمة حرفية، أما من وجهة نظري الخاصة فكُتّاب النص يقصدون انتشار الإسلام، لكن هذا يفترض بأن النص كتب في فجر المسيحية وأنه تنبأ بمجرى الأحداث. ومفاد ما جاء فيه أنه وبعد الانتكاسات الأولى فالمسيحية ستأخذ بثأرها. كان ذلك تأويل الكنيسة. لكن النص كان بحق معاصرا، كما يشي بذلك بناؤه وتركيبه. أما بالنسبة للنبوءة المفترضة فقد تبين صدقها، فالعالم الإسلامي في انحطاط والمسيحية تتقدم.

صرت المترجم المعتمد للكنيسة. وقد سمح لي هذا بتعميق معرفتي بالمسيحية وتنمية معارفي في اللغة العربية. ولكن الأمر لم يكن يخلو من مخاطر. فالأشخاص الذين كنت ألازمهم أخذوا يتهربون مني. كانوا يخافون بأن يحكم علي رجال محاكم التفتيش بالمحرقة. كانت لحظات الهدنة هذه قصيرة، ولطف وكياسة بعض رجال الدين لا تبدد المخاطر. كان معارفي أسرى لإحساس عام يسود فيه الخوف والشك. أخذوا يتجنبونني. صرت منبوذا وَسَرتْ شائعات بأنني سُيلقي بي في المحرقة إن آجلا أو عاجلا.

بعد شتاء طويل وقاس تقدم الربيع بخطى وئيدة صغيرة ومحتشمة. كان الثلج ما يزال يكلل قمم جبال البشارات ويمنح المنظر جلالا مهيبا. أرغمت التساقطات الغزيرة السكان على البقاء في بيوتهم، وسمحت لهم الإنفراجات الأولى بالخروج. تناست القرية إدانة الحمّال والبنّاء لكي تأخذ الحياة مجراها العادي. عاد والدي لأشغال الحقل. كان على أن أقوم بسفر إلى غرناطة لكي أقدم ترجمة أنجزتها لأسقفية المدينة، وكانت الزيارة مناسبة اكتشفت فيها الحمراء. وكانت زهرة، أختي والتي انحصرت خرجاتها إلى موعظات الأحد وجلب الماء، تبدي سلامة طوية رائقة. عقب عودتي دعتني زهرة لمرافقتها إلى الحقول. كانت الطبيعة بهية .

- أين تريدين أن نذهب ؟ سألتها.

- أينما شئتَ، بيدرو، لدي رغبة في المشي والحديث.

- لماذا تناديني بيدرو ؟ ليس هناك شخص يسمعنا.

- الأمر سيان، أحمد.

ثم ران الصمت علينا. بدأت أتحدث عن الحمراء. كنت متأثرا بجمالها.

- الحمراء جميلة، دفعتُ.

- هي جميلة بالفعل.

- إنها فخر لنا يا زهرة، أليس كذلك؟

- من نحن؟

- نحن المسلمين.

التزمتِ الصمت لهنيهة ثم أضافت:

- لم تعد مِلكا للمسلمين.

- لكنهم هم الذين بنوها.

- لم يعرفوا كيف يحافظون عليها. إنها تعود الآن لمن سيعرف كيف يحافظ عليها.

- لماذا ؟ ألستِ فخورة بتراثنا؟

- بلى.

ثم أضافت كأنها لم تكن تصيخ السمع إلي :

- لدي رغبة في أن أقول لك شيئا يا أحمد، لكن عِدني بأن تحتفظ بالسر.

اعترتني رعشة وتظاهرت برباطة الجأش.

- أعدك يا زهرة.

- طيب يا بيدرو أو يا أحمد — كما تريد — أنا متعبة من العيش مسلمة في داخل البيت ومسيحية في الخارج. في يوم ما سينكشف كل شيء.

- ليس لنا خيار في هذا الوضع يا زهرة. لقد أُجبرنا على ذلك.

كررت في الواقع ما كان أبي يقوله لي.

- الأمر مرهق مع طول الزمن، واصلت زهرة، حين كانت قشتالة مسلمة كنا مسلمين. والآن...

- ماذا تقصدين يا زهرة ؟

- هذا ما أريد أن أصل إليه يا بيدرو. أنا مسيحية لأن اسبانيا مسيحية.

لو هوت السماء حينها على رأسي فلم تكن لتؤذيني بالقدر الذي فعل القول الذي سمعته من زهرة. اعتقدت في البداية أن الأمر يتعلق بمزحة، لكن زهرة كانت جدية لكي تستسلم لهذا النوع من المزاح.

- كيف يمكنك أن تعتبري نفسك مسيحية بينما نحن مسلمون.

- إنه نفس الإله، والمسلمون والمسيحيون يعبدونه بشكل مختلف .

- لكن باسم المسيحية يَقتل القشتاليون؟

- وباسم الإسلام كان المسلمون يقتلون.

- أستغرب يا زهرة مما تقولين.

- لا، يا أحمد، إن فضلت بأن أناديك أحمد، أنا تعبت من أن أتستر وأتحايل في كل مرة، وليست لدي رغبة في مغادرة مسقط رأسي. الأفضل أن أصير مسيحية.

- لكن أن تكون مسلما يعني أن تكون وفيا لتاريخ، لآلامنا، لمأساة أهلنا.

- ما تعرض له أهلنا ظلم صراح، ولاشيء يبرره، لكن المسيح ليس مسؤولا.

- باسم المسيح قامت محاكم التفتيش، رددتُ.

- اسمع، يا أحمد، أنت رجل ويمكنك الحفاظ على عقيدتك من خلال الإسلام.

- لكن يا زهرة، حاربت موريسكيات بأيد عارية الشرطة وكتائب التريسو دفاعا عن العقيدة.

- أنا لا أريد أن أحارب. أريد أن أعيش يا أحمد، أريد أن يكون لي بيت وأسرة.

- تؤلمينني يا زهرة. أنتِ تخونين أغلى ما لدينا.

- هذه أفضل وسيلة لحمل هذا التراث. أعرف أن أجدادنا كانوا فقهاء، وبأنهم توارثوا تقليدا جعل بيوتاهم حافلة على مر السنين بالعلم والمعرفة، ولن أعمد لخيانة هذا التراث، فبحفاظي على الحياة، أحافظ على تراثهم، وبفقدانها أفقد كل شيء.

- لكن بإمكاننا أن نكون الشيئين معا. نبقى في ديارنا ونحافظ على ديننا.

- أحمد، سنجبر يوما ما على الاختيار: البقاء وتغيير المعتقد الديني أو الحفاظ عليه وضرورة مغادرة البلد.

خِلْتُ بأنني أحادث شخصا آخر غير زهرة. لا، ما كان لرقة زهرة ودماثتها أن يهيآها لهذا السجال.

- لستِ أنت من تتكلمين يا زهرة.

- عندك حق، لست أنا، إنه ما أعيشه هو الذي يتكلم باسمي.

توقفتْ لهنيهة ثم أضافت :

- حرصت على أن أُسرّ لك بهذا. أبي ليس مهيئا الآن لسماع هذا، أرجوك أن تبقي السّر بيننا كما وعدتني.

عدنا بدون أن ننبس ببنت شفة. احتفظتُ بأمل ملح بأن زهرة كانت تمازحني هي الجادة غاية الجد.

انقلبت حياتي رأسا على عقب بفعل ما كشفته لي زهرة. لم يكن بإمكاني إخبار أي أحد. كان من شأن ذلك أن يخفف عني، لكن لمن أبوح بسرّي ؟ لغريب ؟ هذا سيقود لكشف سرّ العائلة. أكاشف والدي فأفشي إذّاك سر زهرة ؟ كانت هناك أمي لكنني خفت من الخوض في الأمر معها. كنت أعرف بأنها متواطئة مع زهرة. لكنني لم أكن أعرف حدود هذا التواطؤ. هل تكون هي أيضا قد ارتدت؟

انتهى أبي إلى الانتباه لحالتي. كنت ساهيا طوال الوقت. ولاحظ أنني أقاطع أختي. كان عجزي عن الفعل يثقل علي.

فاتحني أبي في الأمر ذات يوم بكياسة:

ـــ كن لطيفا مع زهرة، إنها مرهفة الإحساس وأنت تؤلمها بمقاطعتها. أنت من يحميها.

تملكتني رغبة في البوح بكل شيء ثم ما لبثت أن تحكمت في نفسي.

- حاضر، أبتاه. قلت مكتفيا بهذا الرد.

في خلواتنا التثقيفية، كان يحدثني عن الصوفي المسلم ابن عربي، ودعاني لتفسير شعره حول الحب. لم أفهم منه إلا نتفا قليلة. كسرتُ حلقة التثقيف بطرحي السؤال التالي على والدي:

- أبتاه، إذا أُجبرنا في يوم ما على الاختيار بين العقيدة وأرضنا، أيهما سنختار؟

- العقيدة، يا بني. العقيدة أكثر أهمية من الأرض بالنسبة للمسلم. حين نفقد العقيدة لا يعود للحياة معنى. حين نفقد الأرض ونحافظ على العقيدة فالأمل يبقى قائما في استعادة الأرض.

- ليس من السهل على المرء أن يفقد أرضه.

- ضياع العقيدة أفظع يا بني، قدوتنا هو سيدنا محمد عليه السلام الذي هاجر إلى المدينة ليحافظ على عقيدته وغادر مسقط رأسه، مكة، أم القُرى التي اصطفاها الله. ورغم ذلك هجرها ليحافظ على رسالته.

هدّني الضنى بين كائنين عزيزين علي اختارا خيارين متقابلين.. أبي انحاز للعقيدة وأختي للأرض. لم أكن أريد فقدان أيا منهما. كنت أحس بأنني قريب من أبي باعتباره أبي، ولما يمثله اختياره الذي كان بمثابة انصهار مع شعبه المضطهد. كنت آلم في صمت.

اصفرّتِ السنابل وكان علينا أن نستعد للحصاد، ووحدهم المسيحيون الجدد كانوا يضطلعون بهذا العمل. كنت آنذاك فتى في السادسة عشر من عمري وكان علي أن أُشغِّل الحصادين، وأن أحرص على مؤونتهم، وأن أقوم بالدّرس وأن أحرص على الخصوص ألاّ يرشح شيء من عاداتنا الدينية. كان المسيحيون الجدد مسيحيين سيئين ولكنهم كانوا أيضا مسلمين سيئين. كانوا يحبون الرقص ويشربون الخمر ولا يصومون رمضان، ولكن كان هناك، رغم كل شيء، أمر غريب في عاداتهم: ذبح البهيمة، بحسب الشريعة الإسلامية أو اليهودية، وينفرون من أكل لحم الخنزير، ومن شأن هذا أن يفضحهم. كان خايمي المنهمك في الحصاد، يغني ويقطع هذه الأجواء المرحة بكلام سوقي، ومن حين لآخر، يبدأ في التصفيق والرقص بأعقاب رجليه كأنما يرقص الفلامنغو أمام حسناء أندلسية متخيلة.

- إنهم لغريبون هؤلاء المسيحيون القدامى الذين يتعاملون معنا على أننا مسلمون. قل لي، بيدرو، هل الزمبرة من تعاليم الإسلام ؟ فالفقهاء لا يحبونها. والأتراك و المورو، سكان المغرب، ليست لهم الزمبرة، إنها شيء يخصنا نحن، فلماذا يمنعوننا من التغني بالزمرة. ثم الزمبرة لا تزعج أحدا، بيدرو؟

- نعم، خايمي. إنها لا تزعج أحدا، اكتفيت بالرد.

- نحن لسنا مسلمين ولا مسيحيين، إننا إسبان. بيدرو.

- نعم خايمي.

- تكلم يا بيدرو، أأنت خائف؟ ممّ تخاف؟ إنهم لا يأبهون بنا رجال الشرطة ورجال محاكم التفتيش. يريدون منا أن نعطيهم المال. نعطيهم المال.

يكرهون الفقهاء، ومن حين لآخر يحتاجون لرجل من الدهماء يحرقونه من أجل تقديم درس، ثم ينسون الحادث.

- معك الحق، خايمي، إنهم لا يحبون الفقهاء خصوصا.

- لم يعد هناك فقهاء. ينبغي أن تتقن العربية وتحفظ القرآن عن ظهر قلب. مستحيل.

- هذا مستحيل خايمي، متى ستنتهي من الدرس؟

- رأيي أنا، سننتهي من ذلك في غضون أسبوع. وإن كان هناك ريح فمن أربعة أيام إلى خمسة. هل أنت متعب؟ وبعد ذلك يجب وضع القمح في الأكياس ونقله، و هذا لعمري، شاق. كنت أتمنى الالتحاق بالجندية، لكنهم لا يريدون. أنا مسيحي جديد. لكن ماذا يغير هذا في الأمر؟

- لاشيء، فعلا.

- حين سأنتهي من هذا العمل الملعون سأذهب للشُّرب. وسأشرب خمرا جيدا. خمر خيريز. خمر خيريز ممتاز.

- على ما يبدو.

- ألم تذقه ؟

- لا، إلاهي، أنا لا أشرب الخمر.

- ماذا تساوى الحياة من دون خمر ؟ هذه ميزة أن يكون الواحد مسيحيا، من أجل الخمر على الأقل.

ثم بدأ يضحك. كان اليوم قد أشرف على نهايته.

إن كنتُ قد تذكرت هذه المحاورة فلأنها كانت مقدمة لتحول في حياتي. فجأة رأيت أمي وهي مذعورة تجري نحوي وتقول لي بنَفَس متقطع :

- بيدرو، بيدرو، أختك إيناس ومنذ أن خرجت هذا الصباح...

التحق بنا أبي الذي كان في الجهة الأخرى من الحقل مع عمال آخرين.

- دييغو. صاحت أمي، لم تعد إيناس.

لم يتخل أبي عن برودة أعصابه، وحاول أن يهدىء من روع أمي :

- هدئي من روعك، سيذهب بيدرو وخايمي للبحث عنها. ليس لها مكان لتذهب إليه حتى تضل في الطريق، ربما احتمت في مكان ما لتتجنب الحرارة المفرطة.

ورغم ذلك كنا نعرف في السياق الذي يفرضه رعب محاكم التفتيش بأن كل تأخر، كل غياب يولِّد قلقا آسرا. جهّز خايمي حصانه وجهزتُ أنا بغلا وبدأنا نجول في البادية. كان البدر مكتملا وكنت أصيح ملء قُوَتي «إيناس»، «إيناس»، وكان الصدى يرد إلي ندائي. عدنا أدراجنا في الهزيع الأخير من الليل مهدودين من يوم كامل من العمل والبحث. كان خايمي يطمئنني:

- لا تكترث amigo، سنجدها في البيت، ربما لديها صديق، هذا أمر طبيعي يا صاحبي. نحن المسيحيون الجدد لا نقبل بهذا. عادي. سينتهي الفتيان العاشقان بالعودة إلى عشيهما. لا تجعل من هذا حدثا، بيدرو. قبّلها كأن شيئا لم يقع. هي ذي الحياة. Es la vida

بدت لي هذه الفرضية أقل شناعة من الخواطر التي كانت تنتابني. لتصبأ زهرة إلى المسيحية. ليكن لها صاحب، لكن لتعد إلى البيت. لم تعد. حين عدنا أنا وخايمي وجدنا أبي متزويا يصلي، وكانت أمي تنتحب. عدنا للبحث عنها في الغد وانضم إلينا سكان القرية. تركنا أشغال التقاط السنابل ودرسها وتخزينها. كان وجه أبي شاحبا رغم الجهد الذي كان يبذله ليبدو متماسكا وهادئا. كنت أؤاخذ نفسي، فإيناس أو زهرة غادرت البيت لأنني قاطعتها. لماذا قاطعتها ؟ لأنها قررت أن تختار ما لا أوافق عليه. في اليوم

الثالث بدأنا نفقد الأمل. بدأ تغليب فرضية الاختطاف أو الهرب. لكن إلى أين؟

بعد ظهيرة حارة طرق الباب أحد رجال الشرطة. فتحته. تفرّس في وجهي:

- كلّم أباك.

خرج أبي منهكا أشد الإنهاك:

- دييغو، عثرنا على جثة ابنتك غير بعيد من النهر، وجسدها مشوه تعرض للتمثيل.

وخرّ والدي على الأرض.

كانت السماء فارغة يوم دفن زهرة. كيف يمكن أن تكون السماء مسكونة وتسمح باقتراف هذه المظلمة. كانت زهرة مجبرة على الهرب لأنها لم تكن قادرة على ممارسة إسلامها وهي ملاحَقة. ولا هي كانت قادرة على ممارسة مسيحيتها أيضا. لماذا لم تحمها السماء؟ الجسد الجميل غاية الجمال والقسمات المرهفة تحولت إلى جسد مشوه وإلى وجه بلا قسمات. ولِم يسمح الله بأمر كهذا ؟

بدأ الخوري عظته بالحديث عن الملاك إيناس التي تحلق روحها من الآن و صاعدا حول الرب. كانت لدي رغبة في إيقافه والقول له بأنه شريك في مقتل زهرة. فالهمجية التي شوهتها ليست بلا صلة بالحماس الديني. كنت أنا أيضا متواطئا لكنني لم أكن وحدي. حتى أبي مسؤول عما وقع. لماذا أراد أن يثقل كاهلينا الغضّين بهذا الحمل الثقيل: حمل ذاكرة، والحفاظ عليها في وجه العواصف الهوجاء وسط جو مليء بالريبة والكراهية. هذا عبء فوق طاقة زهرة. وأبي كان مسؤولا والكل مسؤول. الفرايلة، الشرطة، الملك، الله... لماذا تركنا الله لحالنا؟ الله الذي كان موزعا بين معسكرين، يبتهل له هؤلاء وهؤلاء ويتركهم يتنازعون ويتقاتلون باسمه.

لم تكن السماء وحدها فارغة، كانت الأرض كذلك أيضا. البساتين، الأودية، الجداول، الكائنات لم تعد هي نفسها. صار العالم بلا روح، وصار مليئا بالأشباح منذ أن هجرته زهرة... عذوبتها ودماثتها لم تعد تسكن هذا العالم. كانت تريد أن تصير مسيحية مع بقائها مسلمة. لو بقيت حية لربما تغيرت أشياء عديدة. الدعوة إلى المحبة في المسيحية، الشغف بالعدالة لدى الإسلام، رقة الأولى وزهد الثاني، لكن زهرة قُتلت. سيقول المسيحيون بأن المسلمين هم الذين ارتكبوا هذا الفعل الشنيع، وسيُحمِّل المسلمون المسيحيين

مسؤولية هذا العمل المنكر. سيراقبون بعضهم البعض لكي لا يروا إلا الجانب السئ في الآخر.

أي ذنب اقترفته زهرة ؟ بقاؤها متعلقة بالأرض؟ مواصلة حبها لأبيها وأخيها اللذين بقيا مخلصين لعقيدة أجدادهم. حبها لأمها التي هي من أصول مسيحية. أهذا ذنب؟ أهذا جرم ؟

كان الخوري بصدد تلاوة مرثيته حول هذه الروح المسيحية التي أنقذها أنوار الروح القدس بأن خلصتها من الدجل. سعيدة هي إيناس التي ماتت بروح متصالحة مع دين المسيح.

ياليتها كانت مسيحية أو مسلمة، أو يهودية، فالحياة تعلو على كل شيء. لكنها ماتت، مشوهة، وحملت معها جزءا مني. رحلت إلى الأبد.

لحق والدي بزهرة بضعة شهور بعد ذلك وقد هدّه الحزن والأسى. انزوت والدتي في دير للدومينكان. كان حزنها أكبر من كل اعتقاد ديني. ألحّت علي أن أهجر مسقط رأسي الذي لم يعد يطاق.

مراكش
1603 -1598



كانت ذُرى سلسلة جبال درن[1] مجللة بالثلج تحت الأشعة البرّاقة التي تهب المنظر جلالا مهيبا، وكانت الجداول والسواقي الطافحة بالمياه تنساب بالقرب من المسارب الوحلة بمحاذاة الجبل والذي تحيط به تضاريس وعرة وتندفع سيولا عنيفة على إيقاع النور المتلألئ في صفحة ماء، وتواصل اندفاعها نحو سهول الحوز تسقي البساتين والجنان الكبيرة. كان منظر سهل الحوز المخضر يتأرجح بين الجبل المكلل بالثلج وبين الأطراف القاحلة. هذا التناقض يشكل مراكش. في هذه المدينة اخترت الإقامة، أو بالأحرى قادني القدر إليها منذ أن هجرت الأندلس، مسقط رأسي التي لن أراها قط.

كانت قرية الحجر بدون روح منذ مقتل زهرة و موت أبي. فاتحت خايمي في مشروع الهجرة الى المغرب، فنظر إلي في ذهول. قلت له :

- أنا مسلم ياخايمي ولا يمكنني أن أخفي ذلك منذ وفاة زهرة وأبي. لا يمكنني العيش هنا دون أن أعرّض نفسي للخطر. هي مسألة وقت.

- لكنني أنا لست مسلما، بيدرو، إنني لا أعرف حتى من أكون.

- مسيحي جديد يعني مسيحيا سيئا.

- معك حق، مسيحي جديد أو مسلم، الأمر سيان، الفرايلة لا يحبونهم.

- قررت أن أرحل وفضلت أن أخبرك إن ...

- لا أعرف شيئا عن الاسلام ولا أتقن العربية.

---

[1]- جبال درن هي جبال الأطلس الكبير بالأمازيغية.

- ماذا ستفعل هنا ؟ لا يمكنك أن تصير جنديا، والشغل في الفلاحة شاق وبلا جدوى.

- معك حق إنه عسير وبلا جدوى، لكن افريقيا صعبة يا بيدرو..

- إلى أين تريد أن ترحل، إلى أمريكا ؟

- صحيح أنهم لن يتركوني أرحل إلى هناك. طيب، بيدرو، هل يزعجك أن آخذ بعض الوقت للتفكير. أحب بلدي الأندلس.

- أنا أيضا، خايمي، أحبها لكنها صارت غير مضيافة.

كان شغف المغامرة هو الذي دفع خايمي لمرافقتي إلى الضفة الأخرى. ركبنا البحر من سانتا كروز نحو البريجة التي يحتلها البرتغاليون. تنكرنا في هيئة قشتاليين مسيحيين لا شيء بإمكانه أن يفضحهم، لا البشرة، ولا اللغة، ولا الممارسة الدينية. عبرنا في فصل الصيف. كان البحر هادئا والرياح مواتية.. أمضينا ثلاث أيام للوصول للبريجة وهي مدينة على شاطئ المحيط في أيدي البرتغاليين مبنية بالحجر على شكل قلعة مَحَصَّنة. الجدران المحيطة بها عريضة إلى درجة أن ثلاثة فرسان يمكنهم أن يسيروا فيها على صف واحد، وأعتقد أن متانة ما شيده البرتغاليون هي التي نحتت كلمة برتقيز الشائعة عند المورو للإحالة على كل بناء من الحجر أو حتى على مغارة أو منحدر صخري. يمكن للمدينة أن تتعرض للقصف بالمدافع والكور لكنها كانت محصنة. كانت تبدو منيعة على كل محاولة لإقتحامها. إنها محاطة بثلاثة خنادق مرتبطة بالبحر. أما بوابة المدينة فتفتح بواسطة جسر — متحرك.

تقدمنا نحو قبطان المدينة الذي استقبلنا ببشاشة. أراد معرفة السبب الذي قادنا إلى هذه المغامرة.

- خلاف بسيط مع جيران كما قد يقع بين المتجاورين. إننا تحت حمايتكم، ونلتمس منكم الترخيص لنا بالعودة إلى ديارنا متى بدا لنا ذلك، قلت له.

- أعدكما، قال لنا، دون أن يعير اهتماما لما يبدو أنها مغامرة شابين يبحثان عن أحاسيس قوية، أو مال، أو يهربان من أسى تجربة حب فاشل أو من مشاكل عائلية.

للوهلة الأولى بدا الهرب مجازفة. فالمدينة محصنة ومحروسة جيدا، ولا أحد من ساكنتها كان بإمكانه اجتياز خط الحراسة، فهو كان محروسا من طرف فرسان مدججين بالسلاح، ولا يمكن اجتياز الجسر — المتحرك نحو الحقول والمراعي بدون إذن.

حين طلبنا الإذن للخروج لاكتشاف ما يحيط بالمدينة، حاول القبطان أن يثنينا عن ذلك بتخويفنا من المسلمين الذين إن أمسكوا بنا فسيسحلوننا. ادعينا بأننا لن نغامر بالوصول إلى ما وراء الحقول، فتم قبول طلبنا على أن نعود إلى حصن البريجة قبل حلول الليل. استطلعنا الحقول لكن ما كنا نبحث عنه هو تجمع سكاني يُمكّننا من لقاء إخواننا في الدين. لم نهجر ديارنا إلا لأننا لم نكن قادرين على ممارسة ديننا في أمن وأمان. كنا عرضة للملاحقة، ولا يمكن تحقيق كرامتنا الإنسانية إلا في ممارستنا لشعائرنا الدينية بدون موانع. فالبحث عن الكرامة أكثر أهمية من الإرتباط بالأرض أو بذاكرة الأماكن. اتفقت أنا وحايمي، إن فاجئنا البرتغاليون، فسيتظاهر بأنه أصيب بمرض ما. كانت بحوزته شفرة سيجرح بها شفتيه.. مع مغيب الشمس سُمع صوت نفير الحراس قبل رفع الجسر - المتحرك وإغلاق البوابة. تجاهلنا ذلك. انتظرنا الليل لكي نهرب، لكن الحراس اقتفوا أثرنا. كنا نسمع أصواتهم تقترب منا. تظاهر حايمي بإصابته بنوبة صرع وكان فمه يترف دما.

- ألم تخافا من المسلمين؟ صاح بنا أحد الحراس.

- صديقي، تعرض لنوبة، قلت، ولهذا لم نتمكن من العودة في الوقت المحدد لدخول المدينة.

- إنه يحتضر، لاحظ الحارس.

لم يشك الحراس قيد أنملة في حيلتنا. رُفع صديقي من ذراعيه ثم أركبه أحد الحراس إلى جانبه فوق فرسه. في البريجة دعي أحد القساوسة لتفقده.

كان حكمه نهائيا: خايمي يحتضر. طوّبه ورشه بالماء المبارك. انتهى صديقي الذي أتقن دور المريض في سريره بالكنيسة بأن أظهر علامات معافاة مما جعلهم يوقنون ببركة القس وكراماته الاستشفائية. لقد نجح في تحقيق معجزة شفائه كما نجح الحراس في تخليصنا من المسلمين. لقد نجونا بمعجزة !

حين بدأ خايمي يبدي علامات الإبلال من المرض، طلبت من القبطان الإذن بأن آخذه إلى الحقول ليروّح عن نفسه ويستنشق الهواء النقي. بدا القبطان مترددا لكنه انتهى بالقبول. وعدناه بالعودة قبيل حلول الليل وعدم تكرار ما وقع سابقا.

كنا نعرف، أنا وخايمي، بأننا لن تتاح لنا فرصة أخرى، لذا ما أن وصلنا إلى الحقول حتى أطلقنا ساقينا للريح.. رصدنا أقرب تجمع سكاني، قرية أزمور، المتواجدة شمال البريجة، والتي وبحسب المعلومات التي جمعتها خلسة في القلعة توجد على بعد خمسة فراسخ.. مع مغيب الشمس سمعنا بعيدا صوت النفير مذكرا ومنبها، ثم سمعنا زمجرة صوت طلقة بندقية ثم سمعنا طلقة أخرى. أناخ علينا صمت ثقيل بعدها وملأنا رعبا. فجأة سمعنا الصوت المصم لطلقة مدفع. ثم ران الصمت من جديد على المكان إلاّ من نباح الكلاب الذي يقطعه من حين لحين. كانت السماء صافية والجو حارا. كنا نرتطم هنا وهناك بإبّالات السنابل، فالوقت كان وقت حصاد. سرنا بدون توقف، وأحسسنا بالعطش، كانت عملية هروبنا مجازفة ولا شيء كان سيجنبنا بطش الآهالي المسلمين: طلقة معزولة، ضربة عصا، فبإمكانهم أن يشكوا فينا ويعتبروننا جاسوسين. في لحظة ما ندمت على المغامرة، لكنني لم أشرك خايمي في هواجسي. ربما كانت تدور في خلده نفس الهواجس. في الفجر كنا مهدودين. ارتمينا على الأرض، فالتعب والخوف والعطش ولّدا لدينا أحاسيس باللامبالاة مما جعلنا نغفو. حلمت ببلدي الأندلس ورأيتني وأنا صبي أخبّ على صهوة حصان بدون سرج وأبي يناديني باسمي العربي أحمد من دون خوف. وتداخلت هذه الصورة مع صوت الآذان في بلدة الحجر، مسقط رأسي، وقرع أجراس الكنائس، ثم صحوت بغتة على أصوات قادمة من جميع الاتجاهات، مثل أصوات الصيادين الملاحقين لطريدة. اقتربت الأصوات

فنهضنا، تبينا جمهرة متجهة نحونا تحمل المناجل. في الصباح وفي الطريق المؤدي إلى الحقول وجدنا أحد المستطلعين ودعا الفلاحين. رأى فينا خطرا محدقا، خطر مسيحيين يريدون اختطاف مسلمين وبيعهم كعبيد إلى البرازيل، كما وقع عدة مرات، وكما يفعلون مع خيلهم التي يتم وسقها للبرازيل.

كانت المرة الأولى التي أرى فيها مسلمين في أرض الإسلام. لم يكونوا يماثلون الصورة التي كانت لدي عنهم. كانوا بالأحرى خشنين ورثي الثياب. أشار رجل يبدو أنه من الأعيان على الجمع الأهوج فنكّسوا مناجلهم، وفهمت من كلامه المتسارع بأنه بإمكانه إرجاعنا للبرتغاليين مقابل مساجين يعتقلهم هؤلاء في قلعتهم. أشرنا لهم برغبتنا في الشرب، فأعطونا قلّة ماء. بللنا عروقنا، ثم نطقت الشهادتين. اندهش الرجل كما اندهش الآخرون، فكررت النطق بالشهادتين.

استداروا نحو بعضهم البعض.

- مسلمان؟

كنت أنطق الكلمات والجمل بتؤدة وأنا أعيد الشهادة. سمعت بعضهم يصيح :

- ينطق الشهادة أحسن منا !

تغيرت المعاملة فجأة، جرى البعض وعادوا بعد حين بالحليب والتمر الذي آكله لأول مرة، وعادوا أيضا بالخبز والزبدة والعسل. أكلنا حتى الشبع ثم توجهنا إلى أزمور عند قائد المدينة. كان الخبر قد وصله فبقي ينتظرنا في دار تختلف تماما عن الأكواخ المنتشرة على مرمى البصر. دار بأقواس بلا زخرف مع شكل شبيه بما هو شائع في الأندلس. دخلنا عبر صحن فيه برودة منعشة تخفف ثقل الحرارة الخانقة في الخارج. كان القائد في رفقة القاضي. جلسنا على الأرض. طرح علينا القاضي عدة أسئلة ليتأكد من صدقنا. حكيت له قصتي، وبدا أن الشكوك التي حامت حولنا تبددت. سألني القائد هل أكتب العربية، فأجبته بالإيجاب.

- أكتب إذن شيئا ما على هذه الورقة.

- ماذا أكتب؟ سألته.

- أكتب ما بدا لك.

كتبت إذن ما عنّ بخاطري، عبّرت عن فرحتي بالتواجد بين إخواني في الدين، وحمدت الله الذي شملنا برعايته حتى خلّصَنا من المسيحيين وأوصلنا سالمين عند إخواننا. شكرت القائد على عنايته وكرمه.

تمعن القائد في ما كتبته. مطّ شفتيه وقال :

- لا تشكر القائد وإنما السلطان.

أعدت الكتابة وشكرت هذه المرة السلطان.

فهمت للتو بأن رسالتي بُعثت للسلطان مولاى أحمد المنصور الذهبي في مراكش. بخروجنا من دار القائد، وجدنا حشدا من الناس جاؤوا لرؤيتنا، بعضهم يصيح على آثارنا.

- شهِّد.. شهِّد.

لم أنبس ببنت شفة، وفي النهاية نطقت بالشهادة.

سمعت نفس صيحات التعجب السابقة، «إنه ينطق الشهادة أحسن منا». زجرهم القائد الذي رافقنا إلى دار الضيافة. علقتُ بعربية أقرب إلى الفصحى.

- كنا لا نجرؤ على نطق الشهادة مخافة أن نُعرِّض حياتنا للخطر، وها نحن، بحمد الله، يُطلب فيه منا أن نفعل ذلك بعطف وحنو.

بعد عشرة أيام من الإختلاء في دار الضيافة حيث أحسنت معاملتنا، جاء القائد شخصيا لطلبنا. أعطانا ثيابا جديدة وبغلين قويين وكلّف بنا أحد مساعديه الذي قادنا نحو مراكش. كنا نعرف بأننا نتوجه عند السلطان مولاى أحمد المنصور الذهبي. حياة جديدة ترتسم في الأفق.

قضينا ثلاثة أيام في الطريق من أزمور إلى أحواز مراكش. سرنا في طريق القوافل المؤدي إلى مراكش. كان علينا أن نصل غداة عيد الأضحى، وقد اختار السلطان تلقى تهاني القبائل والأعيان وقادة الجيش وكبار رجال المخزن على ضفاف وادي تانسيفت. لقد تم اكتشاف بعض جيوب داء الطاعون في العاصمة الكبرى ودفع ذلك السلطان إلى وضع معسكره على مشارف مراكش ستة أشهر من قبل. استقينا هذه المعلومات من مُرافقنا. كانت جمهرة من الخفير أو الزطاطة كما يسموناها في المغرب، تتقدمنا. وفي كل مرحلة، كانت القبيلة المتواجدة في الطريق تؤَمِّنُ لنا الاحتياجات الأساسية، أو ما يسميه المورو ب المونة. وكان علينا، تفاديا للحرارة المفرطة السير منذ الفجر وطرفا من الليل. كانت الليلة الأولى في أحواز أزمور بالحوزية والتي تتميز بالبنايات المشيدة بأكوام من الحجارة على شكل أهرام يسميها السكان تازوتا أو تازوكا، ولهذه البنايات مخابئ تحت الأرض تسمى توفري. بعد سهل دكالة بدت التضاريس قاسية، بهضابها القاحلة، ورباها الحمراء، وبعض الشجيرات المتفرقة، ونتف من الخضرة على مجرى نهر أم الربيع. اجتزنا النهر بلا عناء رغم أنه، وكما قيل لنا، يتعذر اجتيازه في الشتاء إلا من المعابر أو المشارع، كما يسموها، المهيئة لذلك. عندما اقتربنا من مراكش تغير المنظر وصار أكثر جاذبية. كان النخل يمتد على مرمى البصر مُشكّلا منظرا رائعا وخصوصا مع الحقول المحاطة بجدران مبنية بالتراب المدكوك. في هضبة على ضفاف وادي تانسيفت انتصب معسكر السلطان.

تحيط خيام لا يحصيها عد بسرادق السلطان، أفراگ، وهو على شكل قبة. والأفراگ يشبه في شكله البنايات الصلبة إلا أنه يفصل بأسوار من الكتان تقوم مقام الأسوار. هذا الكتان يرصع بكتابات وزخارف تذكر بالأشكال الهندسية الأندلسية، وتتخلل أفراك أبواب. في أطراف المعسكر كان

هناك جند سوس، وفرسان القبائل الذين يشكلون لوحدهم قوة عسكرية من خمسة وعشرين ألف فارساً. أما بالنسبة لجند النخبة الذين يسمون جيش الأندلس. فقد كان مجهزا بأفضل السلاح، وكان مشكلا من مرتدين إسبان وبرتغاليين وإفرتج ونابوليتانيين وبندقيين وآخرين. سأعرف أكثر عن هذه الهيئة التي يقودها مواطن قاده قدره إلى هذه الربوع، جودر باشا.

كان الحرس الخاص للسلطان مشكلا من الإصباحية[1] تحت إمرة مصطفى باي والذي يشكل كتيبة شرف السلطان، وهو مكون من البياك والسلاق والبلدروش وهي مسميات تركية تظهر التأثير العثماني على بلاط المنصور.

أدهشتني كثرة جند السلطان والإجراءات الأمنية المصاحبة له. لم أر أبدا حشدا من الجند وبقوة كهذه، وقلت في نفسي، يمكن للسلطان بهذا أن يستعيد الأندلس.

تكلف بنا، أنا وخايمي، أحد أفراد الخازندار محمود باشا، الذي كان يُصرِّف الشؤون الداخلية للبلاط. كان علينا أن نقيم في خيمة مُعَدَّة للأعيان، وفي ساعات الأكل، كان خدم الأكل، الشنشرية، يأتون لنا بمختلف صنوف الأكل مع فواكه الفصل. لم أذق في حياتي عنبا لذيذا مثل عنب حقول مراكش. حرصنا ألا نبتعد عن المعسكر. كنا نعرف بأننا مراقبون. كان موعد مقابلة السلطان يؤخَّر في كل مرة.. ظهيرة كل يوم يأتينا وصيف لخيمتنا يخبرنا، بأدب جم، بأن السلطان سيستقبلنا. انتهيت إلى إدراك أن الانتظار طريقة لتدبير شؤون الناس وصيغة لإقرار التميز والفرادة والسمو. يخلق

---

[1]- الإصباحية، هم جند السلطان، مما قد يقابل اليوم فيالق الشرف، وتنظيمهم مستقى من الأتراك العثمانيين، وإن كان أصل الكلمة عربيا مأخوذا من الصفائح، فحولها النطق التركي إلى صبايح، ولقد ظلت كلمة الإصباحية وما تحيل عليه من تنظيم الجند مستعملة في كل من الجزائر وتونس، وأعطت باللغة الفرنسية Spahis، وما لبث النطق الدارج أن حول الكلمة الفرنسية إلى سبايسي، ومنها قائد السبايسي، أي قائد الإصباحية، وما تزال عائلات في تونس تحمل هذا الإسم، كما لا يزال تعبير ثوب سبايس جاريا في المغرب يحيل على اللباس الذي كان يلبسه هؤلاء الجند، وهو يعدُّ من فاخر الثوب.

الانتظار لدى الشخص الذي ينتظر حالة نفسية سلبية وُيعظّم الشخصَ موضع الانتظار.

مع أولى نسائم الخريف والأخبار المُطَمْئِنة عن تراجع الطاعون، قرر السلطان رفع معسكر محلّته[1] والعودة إلى مراكش.

غداة رفع معسكر السلطان قامت كل تشكيلات الجند بإعداد نفسها للرحيل. طيلة الليل قام الجنود والخدم بتفكيك الخيام ووضع المؤن واللوازم داخل تلاليس وصناديق كبيرة. وحده أفراگ السلطان تُرك، فهو لن يفكك إلا بعد مغادرته. يتكفل القُبجيون[2] بأغراضه الشخصية. وكل واحد مكلف بمهمة خاصة. واحد مختص بمستلزمات الوضوء، وآخر بالسرير وهذا بالموقد وذاك بالمطبخ..

انسللنا من معسكرنا، أنا وخايمي لكي نشاهد استعدادات الرحيل.

- أترى قوة المسلمين ؟ قلت لخايمي.

- هذا مدهش، بيدرو. لكنني أرى بأن المورو لن ينتصروا في الحروب بهذا الشكل.

- لماذا إذن ؟

- العدد لا يشكل جيشا. المورو غير منظمين. يحتفلون كل ليلة ولا يبدؤون العمل إلا في منتصف النهار.

- لأنهم يشتغلون في الليل.

- رأيت كيف يشتغلون أثناء الليل حين كنت أنت نائما !

- كيف؟

---

[1]- المحلّة هي مجموع الكتائب التي ترافق السلطان في تنقلاته.

[2]- كلمة قُبجي مركبة من قب وتعني بالتركية الباب، وجي التي تفيد المهنة، وقد استمرت الوظيفة، في البلاط المغربي البواب، مع اندثار الكلمة التركية.

- لم أستطع النوم ذات يوم بسبب الحر فخرجت لأتمشى قليلا. استضافني أحد المساعدين.

- وكيف تفاهمتما ؟

- بالإشارة. ابتعدنا عن معسكر السلطان، ذهبنا إلى دار واحد من القواد في واحة النخيل، كان هناك بعض مساعدي السلطان، وهناك استمتعوا..

- واستمتعت معهم !

- قليلا.. شربت، ليس غير.

- كيف؟

- أنا، بيدرو، سأصير مسلما شيئا فشيئا، وليس دفعة واحدة. هذا صعب. ثم إن المورو والذين هم مسلمون قدامى ليسوا مسلمين بصفة كلية. مثل نصارى إسبانيا، فالذين يقول شيئا وهم يفعلون شيئا آخر..

كنت مصدوما، وأردت أن أعرف أكثر عن مغامرة خايمي.

- وماذا فعلت أيضا؟

- لا شيء. كانت هناك فتيات يغنين، لم أفهم شيئا مما يقلنه. كن يرقصن أيضا ببطونهن. تكلم المساعد مع بنت تعلقت بي. ضحكا وضحكت أنا أيضا، وفهمت للتو بأنه قال لها بأنني غير مختون فضحكتْ.

- وكيف تمكنت من فهم ذلك؟

- بواسطة الإشارات. أشارت البنت وقد جعلت من أصبعيها طرفي مقص إلى أسفل البطن وقمت بإشارة نفي برأسي.

- هذا فظيع، ياخايمي، إنهم سيعتقدون بأننا مسلمون سيئون ويمكن أن يخبروا السلطان بذلك.

- هذا لا يزعجهم يا بيدرو، إنهم ليسوا مسلمين جيدين هم أيضا، وهناك عدد كبير من القشتاليين والإفرنج والبرتغاليين، وهم مسلمون ظاهريا فقط. المورو تعوّدوا على هذا.

ثم أضاف :

- معك حق. لقد دعوني لكي يعرفوا شؤوننا. كان هناك جندي من جيش الأندلس، مرتد قشتالي، كان يترجم لخادم المعسكر. كان يريد أن يعرف هل أنت مسلم جيد، فقلت له بأنك فقيه. أما عني أنا فقلت له بأنني كنت أريد أن أصبح جنديا في بلدي إسبانيا، لكنهم لم يقبلونني لأنني مسيحي جديد. لم أُخْفِ شيئا. إذا لم يعجبني الأمر هنا، سأعود إلى بلدي، ليست لي رغبة في أن أُختّن.

- قُضي الأمر يا خايمي، لن يكون بإمكانك أبدا أن تعود لمسقط رأسك.

- ماذا ؟

- لن يتركك المورو تفعل ذلك، والقشتاليون سيقتلونك إن وقعت بين أيديهم.

كان خايمي نائما حين شُرع باكرا في ترتيبات حركة محلة السلطان. تحرك الجيش المسمى بجيش سوس مع أشعة الشمس الأولى يقوده قائده على رأس كوكبة من الفرسان المسمون بباكباشي. بعد جيش سوس جاء دور شراگة بنفس التشكيلة، ويشكل الجيشان نخبة جيوش القبائل. أمّا الجيش النظامي فكان مكونا من العلوج تحت قيادة محمود باشا، ومن الجيش الأندلسي المعروف كذلك بجيش النار تحت إمرة جودر باشا. فالأول تركي، والثاني مرتد قشتالي اعتنق الإسلام. كان الجيشان يسيران بشكل متواز. في منتصف النهار بدأ الإصباحية بقلاسينهم في الحركة مسبوقين بقرع الطبول وأصوات النفافير. دلنا بعض مساعدي الخازندار على الموضع الذي ينبغي أن

نلزمه أنا وخايمي خلْف موكب السلطان. وضعوا رهن إشارتينا فرسين عربين بربرين. كان مصطفى باي قائد الإصباحية في مقدمة الموكب يحمل لواء أبيض، يُعرف باللواء المنصور. خرج السلطان محفوفا بكتيبة مكونة من البياك وهم أهل القلانس الصفرية المذهبية ذوات الأعراف من ريش النعام الملون ويحمل أحد أفرادهم مظلا حول موكب السلطان، والمظل هو رمز من رموز السيادة. حول البياك يُشكل السلاق حلقة حول الموكب السلطاني ويُميزون بقلانسهم الطويلة وأحزمتهم. ثم هناك البلبردوش المعروفون برماحهم. كان موكب السلطان يسير على إيقاع قرع الطبول ونفخ المزامير.

أما مؤخرة الموكب السلطاني فكانت مُشكّلة من المساعدين وحاملي البنود الخافقات.

كنا، أنا وخايمي، نتبع موكب السلطان العائد من مراكش، يخفرنا عناصر من الخازندار لا يفارقوننا قيد أنملة. تزينت المدينة بأبهى زينتها لاستقبال السلطان المنصور كما كان يحب أن يسمى.

كان علينا في مراكش أن نسكن، أنا وخايمي في فندق متواجد بحي لموظفي القصر، «درب باشاي»، حوّله النطق المحلي إلى درب «دباشي». أذهلتني المدينة بمعمارها الزاهد المتأثر بالمعمار الصحراوي، رغم أن دواخل البيوت تستلهم الأسلوب الأندلسي المرهف. تتخلل فضاء المدينة حدائق وأجنّة تسقى بواسطة سواقي تنحدر من الجبل بواسطة نظام متقن من مجاري المياه والخطارات التي يعود عهدها إلى الموحدين. تبدو ثقافة الحدائق راسخة، وقد ذكّرتني بالعصر الذهبي لإسبانيا المسلمة، وذكّرتني صومعة الكتبية بالخيرلدا. تخيلت إشبيلية زمن عظمة الإسلام في الأندلس وروعته. أذهلني هذا الزواج السعيد بين تقشف الموحدين ورهافة الأندلسيين الذي تجسده مراكش، وهو، ربما، أصل عبقرية هذه المدينة.

كان علينا أن نغشى قصر البديع من باب بريمة يوم الأربعاء وهو يوم الاستقبالات أو الديوان حيث يستقبل السلطان الأعيان. سرنا في ممر طويل قادنا إلى زقاق منعرج، أو تعريجة، يسميه أهل مراكش بأعگومي، وجدنا عنده عناصر من القُبجية سلّمونا إلى مساعدين لجودر باشا، والذي لم يتأخر في الظهور. تكفل هو نفسه بتفتيشنا قبل مقابلة السلطان. كلمني بالقشتالية، لكن لا شيء فيه كان يشي بالمودة أو التعاطف. كان هادئا وباردا. لم يطرح علي أي سؤال متعلق بديني أو أسباب هروبي. كل هذا لا يهمه. تجردت من ثيابي في حضرته، أمرني بأن أخلع نعلي. كان يخيل لمن يرى وجهه ووجهي ولغة التواصل بيننا بأن المشهد يدور في مكان ما باسبانيا.

- لا تكلم الملك Rey إلا إذا كلمك، وابتعد عنه بذراعين.

ثم دعا خايمي، وقام معه بنفس العمل وبطريقة غير شخصية.

قادني عناصر يخدمون تحت إمرته إلى صيوان موصول بقبة الدخول، يسمى القبة الخضراء. كان مزخرفا بزليج من مختلف الأشكال الهندسية والتي تذكر بروعة معمار الأندلس، وفي السقف كان الجبص المنقوش يذكر بمقرنصات الحمراء. كان ينبعث هواء رطب منعش من الصيوان بفضل حركة الهواء المنبعث من مداخيل الأروقة المتراصة. كانت ضخامة البنايات وعلوها تساهم في جلال المكان ومهابته. أما السقوف فكانت من خشب شجر الأرز المقلم.

دلونا على جناح يطلق عليه قوس، يقوم مقام غرفة انتظار. وجدنا قاضي قضاة مراكش الركراكي في مدخل الصيوان، وقف واحتضنني.

- مرحبا بك أخي في الإسلام في بلاد الإسلام، حفظك الله أنت وصاحبك وشملكما رسولنا عليه أزكى التسليم ببركته وشفاعته يوم لا شفاعة إلا شفاعته، وليكن مجيئكما طالع يمن على الأندلس حتى تعود لحوزة الإسلام. حفظ الله بك وبصاحبك بيضة الإسلام، وأعان الله مولانا السلطان المنصور بالله حتى يعيد الأندلس لحوزة الإسلام.

لم أتمالك من ذرف دموعي. كان التأثر قويا، بدا خايمي ضائعا، لكنه لم يكن أقل مني تأثرا بكل هذا الإجلال.

قُدّمت لنا الحلويَات والعصائر، وتركتُ القاضي يسهب في الحديث عن روعة الأندلس وعن الفقيه الكبير ابن حزم والفقيه الشاطبي. بقيت ذاكرة الأندلس حية لدى علماء ورجال بلاط المورو. تقدم رجل مسن، قصير القامة، نحيف الوجنتين، نهض القاضي احتراما له وحياه منحنيا، وقدّمه لنا :

- إنه الكاتب والمؤرخ وشاعر البلاط سيدي عبد العزيز الفشتالي، نفعنا الله ببركاته.

حدجنا الكاتب بنظرة مُرحّبة. بدا عليه أنه مطلع على خبرنا، وقد أثبتت مجريات الأمور ذلك، قال أبياتا عن الأندلس ليلطف الجو:

يا أهل أندلس لله دركمُ ماءٌ وظلٌّ وأنهارٌ وأشجارُ
ما جنة الخلد إلا في دياركمُ ولو تخيرت هذا كنت أختار
لا تحسبوا في غد أن تدخلوا سقرا فليس تُدخل بعد الجنة النار

صارت الجنة، يا للحسرة، جهنم.. التمس مني خايمي أن أترجم له. وحين فرغت من ذلك، ابتسم بسخرية. كان شاعر البلاط والقاضي يتبدلان الأحاديث الودية حين حضر قبجي مناديا:

- الفشتالي، كاتب سيدنا بابا مولاي أحمد المنصور الذهبي، نصره الله على أعدائه، ليتقدم إلى الأعتاب الشريفة.

نهض بهمّة رغم سنه.

ران الصمت كأننا سمعنا حكما بالإعدام ولن يتأخر التنفيذ.

وتسارعت ضربات خفقان قلبي.

بعد دقائق كانت بطول الدهر جاء قبجي آخر وبادرنا :

- ضيفا سيدنا بابا مولاي أحمد المنصور الذهبي، نصره الله على أعدائه، ليتقدما للأعتاب الشريفة بالقبة العظيمة، القبة الخمسينية.

سار القبجي أمامنا وتبعناه أنا والقاضي الركراكي وخايمي. اقتربتُ من أذن القاضي وهمست له إن كان بإمكاني قول مدح على شرف السلطان. أجاب القاضي:

- السلطان يحب المديح، خصوصا إذا جاء من أجانب، اعلموا بأنه سيلطق عليكما اسمين جديدين. هذه هي القاعدة حتى ولو كنتما مُسلمَين.

اجتزنا باحة كبيرة وسط حديقتين في مستوى أدنى، كان الممر الذي يفصل بين الحديقتين مبلطا بالرخام، وهو يؤدي إلى حوض يزود بماء جاري. الباحة معدة بشكل متوازي. في الوسط هناك الحوض الكبير، تحيط به

حديقتان من هنا وهناك، وحوضان صغيران جانبيان يحيطان بالجناح الكبير المخصص للاستقبالات، القبة الخمسينية. وبشكل متواز، ومقابل جناح الإستقبال من الجهة الأخرى للحوض الكبير، هناك حوضان صغيران يحيطان بالفضاء الخاص للسلطان الذي تعلوه قبة من زجاج، مسماة بالقبة الزجاجية. مقابل القبة الخضراء ينتصب الفضاء الحميمي للسلطان والذي يحمل اسم المحظية، قبة الخيزران. وسط كل جانب من الباحة ينتصب جناح يضطلع بوظيفة ما. فالجناح الأخضر يقوم بمهمة ديوان العمل مع مسجد تقام فيه التظاهرات الدينية، والقبة الخمسينية تقوم مقام قاعة استقبال، والقبة الزجاجية كانت الجناح الخاص للسلطان. أما الحريم فكن يسكن بقبة الخيزران المتصلة بملحقات القصر والمطبخ ومحلات المؤونة في القبو ومستودع الأسلحة. بين الحريم والقبة الزجاجية يؤدي قوس كبير إلى الحديقة الخاصة بالسلطان المسماة بالدويرية. كنت أتأمل هذه الأمكنة التي سأقضي فيها إثني عشرة سنة من عمري. تخلل سيرنا، أنا وخايمي، توقفات كنا نقوم بها إثر إشارة من القبجي الذي كان يتقدمنا.. كان الممر الذي يحاذي الحوض يحفه صف من رماة جيش الأندلس الذي يقوده جودر باشا بجزماتهم القشتالية، وقبعاتهم الحمر، وقلانسهم المزينة بريش النعام، وأحزمة من الحرير على الطريقة التركية، وعلى أبواب القبة الخمسينية يقف عنصران من البياك بحرابهما مما يضفي المهابة على المراسم ويبعث الهيبة والوجل.

سُميت القبة الخمسينية بهذا الإسم لأن طولها خمسون ذراعا من كل جانب، فهي تتميز على القبب الأخرى بحجمها وبروعة بنائها.. كانت البوابة مرصعة بأشكال وردية وأخرى هندسية متقنة موشاة بالعظام والعاج، أما داخل القبة فكان مغطى بأستار حريرية تسمى الحيطي ذات إفريز مذهب، وكتابات جميلة في مدح السلطان ووصف قصر البديع. تتباهى الأبيات الشعرية التي تزين القبة بجماله وحسنه وبانيه السلطان المنصور، وذلك تقليد شائع عند المورو،إذ يجعلون الأمكنة الفخمة التي يبتنيها السلاطين والوزراء ورجال الدولة تتكلم باسم بانيها وتتباهى.

داخل القبة ووراء نافورة من الرخام يتطاير منها الماء يمكن أن نميز شخصا تعلوه مظلة محمولة من طرف بياك، محاط على يمينه بثلاثة قادة للجيوش الثلاثة الإصباحية، والعلوج، وجيش الأندلس. وخلفهم مباشرة الخازندار، وعلى يساره شاعر البلاط عبد العزيز الفشتالي. كان الماء يسيل من السقف من فتحة صغيرة بحجم ذراع ويزود سواقي صغيرة في الأرضية المعدة بالرخام والزليج. أخرجني صوت قُبجي من افتتاني.

- نكّسا رأسيكما، أنتما في حضرة السلطان.

فجأة أعلن قُبجى جهير الصوت بصوت أجَش :

- ضيفا سيدنا مولاي أحمد المنصور الذهبي، فخر الإسلام وسيفه المسلول وظل الله في الأرض، أطال الله في عمره وأدام مكرماته وخلد في الصالحات ذكره. أشار إلينا القبجي بالتوقف.

أضاف صوت آخر :

- الناجيان اللذان تفضل سيدنا بتلقيبهما شهاب الدين وعز الدين واللذين هربا من بطش الكفار الذين استولوا على الأندلس، لعنهم الله وأعادها لحوزة الإسلام.

ثم صاح قبجيون، بصوت واحد، ثلاث مرات.

« الله ينصر سيدي ويبارك في عمره»

أشار إلينا قبجي بأن نتبعه.

ألقيت خلسة نظرة تجاه من سيشملنا ظله. كان في الخمسين من عمره، طويل القامة، ممتلئ الخدين، واسع المنكبين، يشع منظره ذكاء وقّاد وثقة كبيرة. افتر ثغره عن ابتسامة وهو يرانا، بسمة رضا، لأننا نعضد أنا وخايمي صورته كسلطان عظيم أمام رعاياه وعلمائه وخصومه الأتراك. سيذاع الخبر في مساجد المدينة، وسيعبر مناد حارات المدينة معلنا النبأ. انحنينا

على إيقاع القُبجي الذي يسبقنا. تذكرت تحذير جودر باشا لنا بضرورة بقائنا على مسافة من السلطان. كان جودر هناك، بنظرته اللامبالية، التي تنضح بالسأم، بخصلات شعره المنسدلة على أذنيه. تغلّبتُ على ارتباكي وقلت بضع كلمات أعددتها. لقد بلغ مني التأثر درجة أنني لم أتذكر ما قلته بالضبط، ولكنني احتفظت بالمقابل بما قاله السلطان للغرابة التي كنا نمثلها. كنا عبارة عن ذخائر حية مثلها في ذلك مثل رفات الأتقياء المسيحيين في قشتالة.

عبّر السلطان عن استغرابه وهو يخاطب شاعر البلاط وقاضي مراكش:

-"كيف يكون لبلاد الأندلس من يقول العربية مثل هذا الكلام، لأنه كلام الفقهاء"[1].

أومأ الموظفان الكبيران بالرأس، كأنهما يعرفان حقيقة ما يجري بالأندلس والأهوال التي يقاسيها الموريسكيون. تأثرت للإطراء المتضمن في كلام السلطان.

أشار السلطان برأسه فبدأ قبجي آخر على عتبة البوابة، يكاد لا يُرى بالصدح بصوت جهوري.

-قرر السلطان، بابا أحمد المنصور الذهبي نصره الله على أعدائه، أن يُعيّن شهاب الدين كاتبا في البلاط لدى الشاعر القشتالي، وقرر أن يكون عز الدين جنديا للإسلام في جيش الأندلس تحت إمرة جودر باشا.

انتهت المقابلة. انسحبنا ونحن نعود القهقرى.

أخذنا القبجي المكلف بالبرتوكول إلى قوس صغير قرب بوابة الدخول الرئيسية بباب الرخام، والتي تؤدي إلى قصبة الموحدين التي كانت تتواجد بها

---

[1]- شهاب الدين أُفُقاي: ناصر الدين على القوم الكافرين، ص 35.

قصورهم ودور بعض الأعيان السعديين. عادة ما يتم الدخول من باب الرخام في المناسبات الرسمية، أما الخدم والأعوان فيدخلون من باب بريمة.

- انتظرا هنا في القوس، قال لنا قبجي، فجودر باشا وكاهيته[1] سيلحقان بكما.

جاء الكاهيا مرفوقا بعنصرين من الخازندار وأعطانا قدرا من المال. وهكذا جُنّد خايمي — لم أتعود على اسمه الجديد - في جيش الأندلس تحت إمرة جودر باشا، وهكذا شارك في حملة ضد قبائل متمردة في بلاد حاحا لم يعد إثرها، فقد أردته طلقة غادرة قتيلا.

---

[1] - الكاهية : وتعني النائب بالتركية، وما تزال أسر تحمل هذا الإسم في المغرب.

بدأتُ حياتي المهنية في المغرب ككاتب في بلاط السلطان السعدي مولاي أحمد المنصور الذهبي، مكلفا بترجمة المراسلات الواردة من قشتالة. لم يكن حجم العمل ضاغطا و لم يكن بمثل نشاط الكنيسة حيث كان مجال الترجمة يذهب من الكتب الدنيوية للطب أو كتب الجغرافية العربية إلى النصوص المقدسة للإسلام. منحني هذا وقتا أكثر لكي أعمق معرفتي باللغة العربية وذلك من خلال احتكاكي بالعلماء المورو. تمكنت من خلال إفرنجي ملحق ببلاط السلطان من معرفة بعض مبادىء الفرنساوية القريبة من القشتالية. كان العالم الإفرنجي على دراية جيدة بالعربية وبنصوص الإسلام. كان فيزيائيا ـــ أي طبيبا ـــ بتكوينه لكنه كان يبدي فضولا كبيرا حتى في الأمور التي تبدو ثانوية. كانت حياتي الجديدة بالنسبة إلي فرصة اكتشاف الحياة في أرض الإسلام مع إخواني في الدين على الأخص. أذهلني تعلق أهل مراكش بأوليائهم الصالحين. لو لم يكن قاضي المدينة الركراكي، وهو رجل ورع وتقي ومتفان جدا، لأمضيت وقتا طويلا في التكيف مع حياتي الجديدة. كان بالنسبة لي عرّابا. أسكنني عنده، وبدّد حرجي بالإستشهاد دوما بحديث للرسول ﷺ «لأن يهدي الله بك رجلا واحدا، خير من الشمس وما طلعت عليه.»

كان علي أن أتعرّف على كاتبين شابين سيكونان زملين لي. كان جاري مثقفا، كامل الرجولة، ومتكتما يسمى أنتاتي. كان يقضي سحابة يومه قارئا و لم يكن يخالط إلا شابا، ابن مرتد، كان والده مقربا من السلطان في وقت ما منذ معركة الملوك الثلاثة في غشت 1578، التي توجت مولاي أحمد المنصور الذهبي سلطانا بعد وفاة أخيه مولاي عبد المالك. كانت ستقوم إذاك فتنة بعد مآل المعركة فتم إخمادها في المهد من طرف المرتد دوغا الذي كان قد خدم السلطان الراحل مولاي عبد المالك. لكن المرتد البرتغالي،

المعروف بدوغالي انتهى إلى فقد الحظوة لدى السلطان الذي بدأ في اتخاذ مسافة إزاء من ساعده في إرساء أركان حكمه في بدايات ملكه. وظّف السلطان إبن دوغالي ككاتب في البلاط. كان هذا الشاب، الذي شارف على العشرين من العمر يحرص على الحفاظ على إسمه كمرتد، دوغا، وكان يرفض حمل اسم عبد الهادي الذي كان سمّاه به السلطان. كان يبدي لامبالة مشفوعة بالغيظ، وجعله اندفاع الشباب، الذي لم تكن تكبحه تعاليم الإسلام، متهورا وطائشا. كان أنتاني ودوغا زميليَّ طيلة المدة التي قضيتها في ظل حكم السلطان مولاي أحمد المنصور. وبقدر ما كان الأول لامعا بخصاله الإنسانية والفكرية بقدر ما كان الثاني يتميز باندفاعه وتهوره.

لم تكن هناك تراتبية في العلاقات بالبلاط مثلما هو الحال في الكنيسة، ويأتي التميز من القرب من السلطان. كان الفشتالي يتبوأ مكانة خاصة بفضل قربه من السلطان، لا يأتي للبلاط إلا في يوم الديوان الذي كان يُعقد كلّ يوم أربعاء، ويحرص في هذا اليوم على ارتداء أحسن الثياب. كان مهووسا بالمظهر سواء أكان في الخطاب أو الهندام، ويحرص على أن يبرز ذلك. يأتي في منتصف النهار لينتظر مع رجال الدولة مجيء السلطان، ويتحف جلسات الإنتظار تلك بإنشاد بعض الأشعار معتمدا في ذلك على ذاكرة قوية. كان يعرف الشعر العربي القديم ويُظهر تعلقا شديدا بشعر المتنبي، بل إنه رتّب ديوان شعره تبعا لقافيته. كان تحت إمرته خادم مساعد له في تحبير الخطابات، الشاوي. كان هذا الرجل متملقا، تُزري به قامته القصيرة وقلة ذوقه، لكنه يُعوض هذا بذلاقة لسانٍ مثيرة وبالوشاية. لم يكن متسقا في كلامه، ولا ثابتا في أحكامه. بإمكانه أن يسبغ كل الصفات الحميدة على الباب العالي، حامي الملة والدين، وفي الغد تراه يقول العكس إن تبين بعض الحذر لدى السلطان تجاه الأتراك. وكان يستطيع أن يَنْظم القصيد في هجاء اليهود والنصارى، دون أن يتحرج من الارتباط بعلاقات مصالح مع بعض المرتدين المسيحين الأقوياء والذين يستجدي منهم بعض الامتيازات، أو مع بعض الأغنياء اليهود الذين يستفيد من عطاياهم. لم يكن الإسلام بالنسبة له فلسفة ولا أخلاقا، وإنما دين السلطان، ولهذا السبب كان يتبناه. لم يكن يحبذ النقاش وإن قال

أحدهم رأيا لا يوافق هواه كان يهدد بتبليغ ذلك للسلطان. كان أنتاتي يحتقر الرجل، وقد كنت شاهدا ذات يوم على مشهد يوضح بجلاء الهوة الثقافية التي تفصل أنتاتي عن الشاوي. بادر الشاوي أنتاتي في باحة القبة الخضراء بما كان أشبه بالاستفزاز :

- أمازلتَ أيها الأمازيغي ترفض اعتمار الطربوش رغم أنها تعليمات مولانا السلطان ؟

- اعتمر أجدادي دوما العمامة. الأتراك ليسوا أجدادي، ردّ أنتاتي.

- ومتى كان أجدادك مرجعا !؟

- ومتى كان أجدادك كذلك، إن كنت تعرفهم ؟

- كنتم لا تسكنون إلا المغارات، حين..

- .. حين أوقفتم دورة حضارتنا. إنك لا تعرف التاريخ يالشاوي..

- أنت جاحد، بفضل سيدي تعلمت العربية وصار بمقدورك التخاطب بلغة متحضرة.

- روحي بقيت أمازيغية.

- إنكم خونة.

- ليست هناك خيانة أكبر من انتزاع الأرض من مالكيها، وطمس ذاكرتهم بالأكاذيب والأراجيف.

- سيدي ينحدر من النسب الشريف، وشجرة نسبه تثبت ذلك، شئت أم أبيت !

- ومتى كان لفروج النساء أقفال؟

- أي وقاحة هاته !

- الوقاحة الكبرى هي تشويه الحقيقة، ثم ألا يتعارض مع الإسلام الإقرار بتمييز على قاعدة عرقية أو دم شريف؟

- ستؤدي غاليا ثمن تنطعك.

- ستؤدي غاليا ثمن حماقتك.

- أنتم صالحون للإبادة.

- أعرف الحب الذي تكنونه لنا، لكننا لن نمتعكم بمشهد اختفائنا. في كل منعرج ستلقوننا. سنتحول إن لزم الأمر ذلك. ويمكننا أن نصير شرفاء بالمناسبة، لكننا لن نختفي أبدا.

- لو كان الأمر بيدي لقتلتك.

- لكن الأمر ليس بيدك.

- يا للمهانة، لغة عربية جميلة تخرج من فم من لا يوقر العرب.

- المهانة الكبرى هو أن يعمد عربي، أو من يدّعي أنه عربي، إلى سب الأمازيغيين في عقر ديارهم.

اختفى الشاوي وهو يُرغي ويُزبد. كنت مذهولا لما سمعته. التفتُ نحو أنتاتي بعد أن اختفى الشاوي وقلت له :

- لست أمازيغيا سيدي إبراهيم.

- يا شهاب الدين، أنا لست أمازيغيا إلا للذي يريد أن يكون عربيا قحا بالقوة. وحده الله يعرف حقيقة الأصول العرقية. ثم، أذلك مهم؟

لم يكن أنتاتي يخص شاعر البلاط الفشتالي بالود. عدة أشياء تفصلهما. كان الفشتالي ينحدر من قبيلة عربية، وكان أنتاتي أمازيغيا قحا. وكان الأول يتبنى إسلاما أصوليا، ولهذا، كان يبدو متشددا، أما الثاني فكانت له رؤية فلسفية للدين، ولذا كان يبدو محتفظا بمسافة نقدية تجاهه. لكن كانت هناك أشياء مشتركة بينهما: إتقانهما للغة العربية وإعجابهما بالمتنبي لأسباب مختلفة. كان الفشتالي معجبا بفخامة تعبيره وجزالة نظمه، أما أنتاتي فكان مشدودا لمعرفته العميقة بخواطر النفس البشرية وحِكَمه الفلسفية. البلاطات وحدها تستطيع تجميع عناصر متنافرة. هناك دائما الصدفة في تحديد تركيبة

البلاط، لكن ليست الصدفة وحدها هي من تتحكم في التركيبة، فالحسابات السياسية تتدخل أيضا في تزكية هذا العنصر وعزل ذاك. رحّل السلطان مولاي أحمد المنصور الذهبي إلى مراكش عائلات متنفذة وأعيانا بغرض قطع صلاتهم مع قواعدهم ولكي يبقوا تحت مراقبته. هناك عائلة ابن طلحة من فاس التي لم يقبل السلطان إدراجها في خدمته إلا بعيدا عن موطنها، ففرض عليها الإستقرار في مراكش، وحكم على العالم الكبير ابن طاهر من تافيلالت بأن يُدرّس في جامعة ابن يوسف بعيدا عن أهله وذويه. وكان على دوغا وأنتاتي أن يخضعا بدورهما لحسابات سياسية. وأعتقد للتو بأن مكانتي أنا أيضا حصلت عليها لاعتبارات سياسية صرف. كان بالإمكان الإستغناء عن خدماتي، لكن الغرض كان تبليغ رسالة إلى العلماء. أفلا يُقدّم السلطان نفسه، باستخدامه إيّاي في بلاطه، كحام للإسلام وحامل للوائه؟ إن لم يسترد مولاي أحمد المنصور الأندلس فهو حامي المسلمين المضطَهدين. فليس الأتراك وحدهم من يحمل لواء الإسلام وحماية المسلمين المضطهدين.

تقطع هذه الأفكار التي أسجلها هنا مع السذاجة التي كنت أبديها أول الأمر. فمع مرور السنين وباحتكاكي مع من سبقوني وخصوصا أنتاتي تعلمت كيف أتجرد من رؤيتي المثالية التي كانت لي عن السياسة وعن البلاط. إنهما كم هائل من الحسابات، ومن الضربات، ومن الدسائس. في هذا المجال لم أكن فاعلا وإنما ملاحظا وانتهت ملاحظتي أن بينت لي كنه الأمور.

في مجرى الحياة اليومية تأثرت بالغ الأثر بأناس متميزين، أولئك الذين يؤمنون بقيم مثالية رغم كل شيء. من المؤكد أنهم لا يُؤثّرون في مجرى الأحداث، لكنهم ينتصبون كمنارات في غبش الحياة الوضيعة. كيف يمكنني أن أنسى القاضي الركراكي والفقيه ابن يعقوب، عالم الفقه الكبير، أو أولئك الناس البسطاء الذين ما أن يتعرفون علي في المسجد حتى يحيونني برؤوسهم، أو في الحمام وهم يوسعون لي مكانا أو يملؤون لي سطلا.

ذات يوم، سنة تقريبا بعد هجرتي إلى المغرب، بادرني القاضي الركراكي بشكل مباغت:

- يا بني، إن الرجل حينما يظل وحيدا يتعرض له الشيطان، ولذلك يجب أن تُكْمِل دينك.

داريت ارتباكي وقلت :

- أنا غريب هنا ولا أعرف ناسا كثرا.

- توكل على الله.

- إن شاء الله.

- بحوله وقوته.

هكذا إذن تزوجت ببنت إحدى محظيات القاضي الركراكي لالة تاجة. جرى زواجنا بلا بهرجة. انتقلت إلى بيت في رياض الزيتون، وهو الحي الذي كان أغلب الذين يقطنونه من أهل الأندلس.

كان سلطان المغرب بابا مولاي أحمد المنصور الذهبي في أوج مجده. كان قد كسب مع أخيه مولاي عبد المالك حرب وادي المخازن ضد البرتغال في سنة 1578 وكان يحظى بالاحترام من لدن معاصريه من الملوك. ومن الأحداث الكبرى في عهده إرساله لبعثة عسكرية إلى بلاد مالي وضمه لها تحت إمرة القائد العسكري جودر باشا. لم يكن يرى رجال الدولة والعلماء فائدة في عمل كهذا في مفازات بعيدة تُعرّض الجنود إلى أهوال الصحراء، ثم إنه من منظور الشريعة لا يمكن تبرير حملة ضد المسلمين. وقد حرص السلطان على القيام بذلك لتعزيز مكانته ومن أجل الذهب أيضا. أما الإنجاز الكبير الذي أراد به أن يُخلّد به ملكه هو بناؤه لقصر البديع، وهو عجيبة من عجائب الدهر، وقد استلهم نمط قصور الحمراء.. بيد أن القصر بأحواضه كان يقدم شيئا فريدا في بلاد المغرب الإسلامي.. والأمر المميز كذلك في فترة حكمه هو قواعد الحكم والأسس الإدارية التي أدرجها السلطان. فقد استلهم نموذج المؤسسات العثمانية. ثم كان يستحضر عظمة الأندلس إبّان حكم المسلمين لها والتي أراد أن يبعثها في بلاد المغرب. كان على البلاط المغربي أن يماثل البلاطات الأندلسية. كان السلطان يهوى البذخ في كل مكان وفي كل شيء. كان معجبا بشاعر البلاط الفشتالي لا لما كان عليه هذا الشاعر ولكن لما يجسده، فهو يُذكّر بالكاتب والشاعر في البلاط الأندلسي لسان الدين بن الخطيب.

أما بالنسبة للتنظيم العسكري، فقد تأثر بنظام الانكشارية العثماني. ولم يكن يثق في القضايا العسكرية والأمنية إلا في المرتدين والمرتزقة، وهذا ما يفسر صعود نجم جودر باشا ومحمود باي باشا ومرتدين آخرين. ثم كان الذين أفل نجمهم، مثل دوغا – لي الذي أصبح مصدر إزعاج بالنسبة للسلطان. فعقب معركة وادي المخازن حسم دوغا – لي الأمر لفائدة مولاي

أحمد، ونجح في قطع دابر مطامع القادة العسكريين الطموحين. وقد كان من شأن هذا الدَّين أن يثقل كاهل السلطان الذي انتهى بنفي دوغا– لي إلى أكادير، مع أخذ احتياط إمساك إبنه كرهينة في بلاطه. ثم هناك جانب المراسم التي كان المنصور يحرص عليها كبير الحرص: مراسم الديوان، خروجه في جولات محاطة بأبّهة كبيرة تتخللها زيارات للأولياء الصالحين مع عطايا، والقطع الذهبية تلقى على الفقراء وهم يتزاحمون أمامه. لم يكن شيء يملؤه فرحا مثل تلك المشاهد. ثم المطارحات الشعرية بين شعراء البلاط وخروجه إلى الحديقة الكبرى المشتهى. ولم تكن تلك الأنشطة، وإن تكنِ خاصة، تخلو من طقوس. فكان على الفشتالي أو شاعر آخر من البلاط أن ينْظم أبياتا أو يعارض بعض أشعار كبار الشعراء الأندلسيين والعباسيين. فالمنصور لم يكن يحب أن يقارن إلا مع أمراء الشرق، ولم يكن يُكِنُّ الإعجاب للأسر الأمازيغية التي تعاقبت على المغرب. وأقام المنصور جنان المشتهى على أنقاض جنان الصالحة الذي ما يزال الأطفال المغاربة يتغنون به وهم يتعلمون المشي، والذي كان أقامه السلطان الموحدي عبد المومن. ونفس الشيء بالنسبة لقصر البديع، فقد كان المنصور يريد تجاوز كل ما حققته الدول الأمازيغية السابقة، ولا يتحرج من الصدع بذلك.

ثم هناك عيد المولد النبوي. وهو تقليد أدخله مسلمو الأندلس متأثرين بالاحتفالات المسيحية المحتفية بميلاد المسيح. كانت الأندلس رائدة، وانتهى الأمر إلى إضفاء الرفعة والعناية التي يستحقها مولد الرسول عليه الصلاة والسلام. كان على العالم الإسلامي المتراجع أمام زحف المسيحيين التشبث بذاكرته، وأي نموذج يمكن التشبث به غير ذكرى رسول الله؟ حدث ذلك أول مرة في سبته حيث شرع الأمير أبو القاسم العزفي في الاحتفال بالمولد ثم انتقل ذلك إلى باقي مناطق المغرب.

حينما يستولي الملل على ساكنة مراكش، أو حينما يحس السلطان بروح التمرد تسري فيها، كان ينظم مهرجانا كبيرا لجيشه المظفر في أحواز مراكش فتنسى المدينة مشاكلها ولا تتحدث إلا عن عظمة جيش مولاي أحمد المنصور وقوته الضاربة وتنظيمه المحكم.

كان لهذه العظمة التي تفرض الاحترام وتبعث على الرهبة الخوف وجهٌ آخر. لم يكن المنصور يتأذى من التناقض ولا يقبل الرأي المخالف. فقد فشا ما تعرض لها العالم الكبير الأساكي بابا أحمد التنبوكتيّ من سوء المعاملة، إذ نُقل إثر حملة جودر باشا مخافة أن يوحّد قبائل سونغاي المهزومة بمالي. قطع مع فيالق جيش النار، كما كان يسمى جيش جودر، فيافي الصحراء وقفارها إبان اشتداد الحر، وسقط من فوق ناقته وكسرت ذراعه ولا أحد كان بإمكانه نقل معاناة الفقيه المالي إلى السلطان. فهو كان صارما حيال هذه الأمور. سنتان بعد التحاقي بالبلاط، كان على كبير قضاة فاس الأحمدي أن يأتي ليشارك في الاحتفالات بعيد الأضحى. في طريقه رأى صفا من الرجال والنساء والأطفال مكبلين، وراعه منظر امرأة فاجأها المخاض وهي مُقيّدة. رأى كبير القضاة المشهد فراعه ذلك، وآلمه عجزه عن فعل أي شي. كان الحراس الذين يقودون المساجين لا يكترثون بمعاناة المرأة وهي تضع، ولا مبالين بتوسلات القاضي. في مراكش وأثناء مقابلة السلطان، أبلغ القاضي السلطان بما رآه، وفوجئ بمقاطعته له. أُفرد إفراد البعير الأجرب، فلا أحد صار يكلمه أو يبادله التحية. أدرك جرم فعلته، وارتمى على قدمي السلطان طالبا صفحه. قال له السلطان موبخا :

- إعلم بأنك لو لم تكن من المقربين لي باعتبارك أستاذا لي لعاقبتك أشد العقاب على كلامك المتهور. «لولا ما رأيت ما أمكنك أن تجيء مع أصحابك عشرة أيام في أمن ودعة. فإن أهل المغرب مجانين، مارستناهم هي المحن من السلاسل والأغلال.»[1]

كان الشيخ أحمد بابا التنبوكتيّ يحظى بالاحترام لعلمه وتقواه، ولم يفهم الناس إصرار السلطان على إبقائه منفيا. كان يسكن بالقرب من قصر البديع جهة باب أگناو. ذهبت لرؤية هذا العالم المحترم في بيته المتواضع. كنت أعرف بأنني أُعرّض نفسي بهذا لزبانية السلطان وأزلامه. لكن وطني هو

---

[1] - الإفراني : نزهة الحادي : ص 243.

الإسلام. فلم أفر من بطش الكنيسة وخدامها لأقع في شَرَك مرتدين غلاظ. وجدت عنده عالم سوس الكبير ابن يعقوب. وللحقيقة، فرغم الخوف من السلطان كان علماء مراكش يبدون توقيرا لعالم مالي. لكن ذلك لم يُنسه مسقط رأسه و لاذويه، ومكتبته التي نهب معظمها.

كانت السكينة تُشعُّ منه. بدا بوجهه النحيف ونظره الثاقب. لم يكن الشيخ يفارق سبحته، وكان يرتدي عباءة بيضاء مع شال حول العنق يقيه برد مراكش القارس في الشتاء. قبّلت يده وأنا أتقدم نحوه، فقال لي :

- يا بني، ليست الأندلس وحدها ما فقدنا. الأنكى من ذلك، أننا بصدد ضياع الإسلام. ما الذي يبرر استعباد المسلم لأخيه المسلم؟

لم ينس المعاملة الفظة التي تعرض لها أهله الذين سيقوا كالعبيد ومنهم أشراف في قومهم.

أخذ عالم سوس ابن يعقوب يده وتلا الآية : ﴿إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد﴾. (84-28)

ثم استرسل في تفسير الآية:

هناك في الإسلام العود دوما إلى الله والأوبة إليه. إنه البدء والمنتهى. هو الأول والآخر. ومسار هذه العودة لا يمكنه أن يحدث بدون امتحان ولا ابتلاء. إنه ضرب من الارتقاء، لا يتأتى من دون مجاهدة. قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه﴾. (84-6)

رد بابا أحمد التنبوكتي :

- لا يمكن للمسلم أن يقنط من رحمة الله، ندعو الله أن يمنحنا صبرا جميلا، فلا معين لنا سواه.

ما هو الصبر الجميل؟ لقد ورد ذلك في القرآن الكريم، لكن ماذا يعني الصبر الجميل ؟ لم أفكر في ذلك من قبل.

أتينا ثلاثتنا من معاطن مختلفة، بابا أحمد التنبوكتي من مالي، وابن يعقوب من سوس وأنا، أحمد شهاب الدين، من الأندلس. هناك شيء ما يجمعنا: التوق إلى العدالة مقرونا بتروع روحي. هما البوتقة التي ننصهر بداخلها. من أجل هذا الآصرة هجرت مسقط رأسي وأجدادي. هكذا كنت أفهم الإسلام، وهكذا كنت أتصور علماءه الذين يتميزون بقوة يقينهم وثباتهم كما هو مجسد في هذين العالمين. من المؤكد أننا جميعنا هامشيون لا يُؤخذون بعين الاعتبار في مجريات الأحداث.

كان أنتاتي يرفض أن يُنادَى بإسمه كما يحدث دائما، هنتاتي، بهاء في مستهل اسمه، هاء فرضتها قواعد الإبدال والإعلال في اللغة العربية، مثلما هو الحال في كلمات أخرى مثل زناگة التي صارت صنهاجة، وشتوكة التي تنطق هشتوكة، أو زرون (الصخور) التي صارت زرهون. لم يكن ذلك جزئية بالنسبة لأنتاتي الذي كان يريد أن يبقى على ما هو عليه: أمازيغي. أنتاتة شعبة من الكنفدرالية القبلية لمصمودة التي ظهرت بداخلها حركة الموحدين وبنو عمومتهم الحفصيين الذين حكموا تونس. أنتاتي إذن من قبيلة مدحورة، لكنها وفي اندحارها تحولت إلى أرستقراطية في قلب الجبل والتي نالت إعجاب الكاتب الأندلسي لسان الدين ابن الخطيب. وحين دخل السعديون بلاد سوس قضوا على بقايا الأرستقراطية الأمازيغية. وقد احتفظ أنتاتي بمرارات ما وقع من خلال محكيات ذويه. لا يمكن للمرء أن ينسى حملات النهب والسلب والحقول المحروقة والأطفال المروعين والكبار مقطوعي الرؤوس أومقيدين بالأغلال، حتى حين يُهزم، وخاصة حين يُهزم.

تلقّى إبراهيم أنتاتي تعليمه الأول في مسقط رأسه بتالات[1] نْ يعقوب ثم جاء لاستكمال تكوينه بجامع سيدي يوسف بن علي في مراكش، وحين تولى مولاي أحمد المنصور دفة الحكم اتخذه كاتبا في حاشيته. فيمكن أن يكون مفيدا. فهو يعرف جيدا عالم الجبل، ثم ليس هناك ما هو أنبل من خدمة من ارتضاه الله لخدمة عباده. ألم يكن المغرب مستهدفا من طرف الغزو الصليبي للبرتغال وإسبانيا؟ ألم يحاول البرتغاليون الإستيلاء على فونتي وقلعة أگادير؟ وما يزالون يستولون على البريجة وموغادور. لقد أثارت معركة وادي المخازن حماسا دينيا، بل تعصبا دينيا. في هذا السياق التحق أنتاتي

---

[1]- تالات بالأمازيغية هي الشِعْبة وجمعها شِعاب، أما في الزناتية فتستعمل بصيغة التكبير، تالا، بمعنى العين، ومنها مدينة تاهلة التي أصلها تالا، وأضيف حرف الهاء وفق قواعد الإبدال بالدارجة المغربية.

ببلاط السلطان السعدي. كان يعتقد بأن السلطان صادق، وبينت له مجريات الأمور اللاحقة بأنه كان مخطئا. فالمنصور، كما قال لي أنتاتي، كان يريد أن يمسك به كرهينة. ولماذا، سألته:

- لا أعرف، شهاب الدين، الجبل ليس محل ثقة بالنسبة للماسكين للسلطة، ربما ينبغي فصله عن نخبه.

واعترف لي بأنه عانى كثيرا من اختزاله إلى لا شيء أو أقل من لا شيء. صورة تزين البلاط، وتحفة من بقايا مصمودة. انتقام رائع للشريف السعدي. كان أنتاتي يعرف بأن المنصور لا يحب الأمازيغ ويتظاهر بأنه لا يُدرك ذلك. حينما تكون موازين القوى غير متكافئة من الأفضل أن يلعب الواحد دور الأبله، كان يقول لي دائما. كان يلعب دور من لا يفهم ومن لا يعلم، رغما أنه كان يعرف جيدا ما يدور، وحتى حين لا يعرف، تجعل معرفته بالناس وبالخبايا تحليلاته صائبة أو محتملة الصحة.

- أعود للتاريخ، قال لي ذات يوم، أليس هو سيد الكل وكل شيء ؟

- الله هو مالك كل شيء. صححت له.

- سيان، ردّ علي.

يُثْقل علي أن أقول هذا، لكن الطريقة التي كان يفهم بها أنتاتي الإسلام كانت تزعجني. كان أنتاتي، وهو المسلم، معتزليا، بمعنى عقلانيا، وأقرب إلى إبن رشد. فبالنسبة له الدين والفلسفة ينبغي أن يقودا لنفس الغاية.

- ماذا إذن؟ سألته ذات مرة.

- منظومة أخلاقية.

- وماذا عن الدين.

- ما الدين بدون أخلاق؟ جسم بلا روح.

لو فاجأنا موظفو البلاط يوما ما ونحن بصدد مناقشة مسائل فلسفية لرمونا بكل شائنة، ولأعلن الفقيه الركراگي بأننا مارقون. فأنتاتي، لنقل ذلك، لم يكن محبوبا من طرف الحاشية. كان يعرف ذلك، وكان لا يأبه به.

لم يكن الفشتالي يواري نفوره من أنتاتي أو يقوم بجهد لإخفائه، حتى إنه بإمكانه تجاهله إن صادفه في الطريق. وكان أنتاتي يحب السخرية من مظهره المتعالم، وتعابيره الرّنانة، وأسلوبه المتكلف وكلماته المنتقاة.

- كل هذا أجوف ولا يعبر عن أي شيء صادق وجِدّي، كان يردد.

ورغم ذلك كان أنتاتي يتقن العربية ويعرف أسرارها.

ذات يوم طرح علي سؤالا مدهشا: هل القشتاليون والمسيحيون الآخرون يعبرون أجمعهم بذات اللغة المتكلفة السائدة في بلاط السلطان السعدي. دُهشت للحقيقة ولم أكن فكرت في الأمر، إن كانت القشتالية، من خلال استعمالي لها، تختزن عبقرية ما. لم يكن بإمكاني قبول أن تصبح الّغة الدارجة لغة الكتابة أو الفكر، ولا كنت أستطيع فهم ذلك. بالنسبة لي اللغة العربية هي اللغة المصطفاة بامتياز.

- يكتب القشتاليون كما يتكلمون أو تقريبا. قلت.

- وددت لو أني تعلمت القشتالية.

- لغة أعدائنا.

- ليس لنا من أعداء إلا أنفسنا. إذا كان القشتاليون أكثر قوة منا، فلأنهم في جوانب ما أفضل منا.

- تدهشني، سيدي إبراهيم، بفضل الله ومنّه يمكن أن ننتصر على الكفار وبإمكان سيدنا مولانا أحمد المنصور، نصره الله وأيده، إن شاء الله، أن يسترد الأندلس. قلت وأنا أقلد أسلوب خطاب علماء المورو.

- لإعادة إنجازات ملوك الطوائف؟ لجلسات التهتك والخلاعة؟ للرذيلة والغيلة؟ ما الغاية من ذلك شهاب الدين؟ أتفهَّم جرحك، لكن كن واقعيا، فبابا أحمد يحرص على وشائج جيدة مع الإسبان، ولن يقوم بأي شيء يثير حفيظتهم. هو في حاجة إليهم، كما هم في حاجة له ضد الأتراك، وضدكم، أنتم الموريسكيين. ينبغي أن تكونوا معزولين. تخيلْ لو كان بإمكانكم الحصول على دعم بابا أحمد، لو وُضعتْ قوته الضاربة في خدمتكم لما تعرضتم للاضطهاد الذي تعرضتم له وعانيتم منه.

انقبض قلبي لسماع هذا. هناك جانب من الصحة فيما قاله أنتاتي، لكنني كنت، وبالمناسبة، مرتبطا بدَيْن أخلاقي تجاه السلطان. لاحظ أنتاتي حزني.

- لا ينبغي أن يكون لك وعي شقي، فليس لبابا أحمد أدنى حرج. أنت والأندلسيون بيادق يستعملها في رقعة شطرنج. تحررْ من وعيك الشقي، وسوف ترى، ستكون أحسن حالا.

كان أنتاتي يحب الإطلاع لمعرفة كل شيء وخصوصا ما يدور في بلاد المسيحيين. حكيت له بعض قصص ملوك قشتالة والتي أعجبته ودوّنها في بعض دفاتره. وقد تعلمت منه بعض نتف الأمازيغية. كان منبعا للعلم والمعرفة، لكنه لم يكن راضيا بذلك، فهو كان يؤمن كما يقول، بأن لا شيء يعلو على الفعل والممارسة. «ألوذ بالكتب، لأنني لا أملك خيارا آخر»، كان يكرر دائما.

فكر ثاقب، لكن، وبالمناسبة، ألم تكن تقوده موجدة عارمة تكاد تعميه؟ أوَلم يكن فكره الثاقب نتاج جرحه، في جانب آخر ؟

ذات يوم كنت أتواجد ببنيقتي، وهي سيكرتارية بدون قمطر، والتي تقوم مقام المكتب، وبها دكة، وهي ما يسمى باللغات اللاتينية ب banquetto، وربما أن يكون أصل البنقية لاتينيا. كنت فرغت من ترجمة رسالة بالقشتالية، توصل بها السلطان من ملك إسبانيا فيليب الثاني. وكما هي العادة، ذهبت عند الخطاط لينسخها ووضع خاتم الإيالة الشريفة وشعارها : بركة محمد، والرسوم الموشاة الخاصة بالمنصور والتي كانت تزين كل مراسلاته. وجدت الخطاط مروعا، فقد علم بأن إبنه أصيب بنوبة صرع. طلب مني أن أؤجل نسخ الرسالة إلى حين تفقده ولده. لم تكن الرسالة مستعجلة وتفصلنا عن جلسات الديوان ثلاثة أيام. كنا يوم الأحد، وظاهريا لا تبعات لتأخر عملية النسخ. كان قبجي قد تابع المشهد.

أخذت مسوداتي تحت ذراعي ودخلت بنيقة أنتاتي. كان منهمكا في قراءة «مقدمة» إبن خلدون. تراجعت قليلا، لكن أنتاتي أشار علي بأن أتقدم:

- قرأت «المقدمة» عدة مرات، وأعرف من خلال ابن خلدون بأن الدهماء هي التي تصنع التاريخ. ما الجديد يا شهاب الدين؟

- لا شيء.

- لا إشاعة عن السلطان أو عن محظياته أو عن أحد أولاده أو قادة جيشه ؟

- لا أكترث بهذا الضرب من اللغو.

- أنت على خطأ، فإن تمكنا من تحليل تلك الإشاعات، بإمكانها أن تعطينا بعض الحقائق.

دخل دوغا ، دعاه أنتاتي بشكل ماكر للحديث :

- أما بالنسبة لدوغا، فإنه يحمل معه دائما أخبارا طريفة، فهو في علاقة لصيقة مع المجتمع الفائر والحي.

كان لدوغا جانب سوقي، وكان أنتاتي يحبه جدا.

- سيكون الغد مثل الأمس، قال دوغا، لا شيء سيتغير في هذا البلد الموبوء. السلطان الذي يفرض على الفلاحين غرس قصب السكر ويحصل من ذلك أموالا طائلة بفضل وكلاء يهود. ضقت ذرعا وأريد أن أقدم على المغامرة..

- يمكنك أن تنضم لجيش النار تحت قيادة جودر باشا، اقترح أنتاتي.

- رحماك يا أنتاتي، كل شيء إلا البلدان الحارة، وخصوصا تلك التي لا يُشرب فيها الخمر.

- الله يحفظ، قلت.

- الله يحفظك يا شهاب الدين. لم يدخل أبي في حظيرة الإسلام ليُحرم من الخمر ومن ملاذ الحياة، ولكن من أجل المال والحظوة. غير أنه لم يعد لنا لا المال ولا الحظوة، فلنستمتع على الأقل بملذات الحياة.

- لا أحد يمنعك من ذلك، أضاف أنتاتي مستهزئا.

- هنا، ينبغي إرشاء مرتد لكي تحصل على خمر جيد، أو تؤدي ثمنا باهظا لتحصل على الخمر الذي يجلبه المهربون، وإلا عليك أن تقنع بالماحيا الذي يُعده يهود دمنات أو أشربة تامصلوحت.

- إنك لا تحرم نفسك إذن؟ رد أنتاتي.

- ينبغي التنكر في هيئة يهودي للتسلل إلى خمارة من خمارات باب الرب. الجو هناك كئيب والخمر رديء والمشروبات فاسدة، ثم هناك نفس الوجوه لمرتدين أدبرت أيامهم، وليهود جشعين، ثم لا نساء في المكان. علية القوم من سامي الموظفين في أحياء لقصور أو لمّاسين من يستمتع بمتع الحياة، مع الشراب المعتق، والراقصات، والمحظيات.

تقززت لسماع كل هذا فهممتُ بالذهاب حين قام أنتاتي وأمسكني.

- هذه أيضا بلاد الإسلام يا شهاب الدين.

قال دوغا في اتجاه أنتاتي :

- آه يا أنتاتي، لو كنتَ تستطيع أن تكون أقل جدية، لكنكم أنتم الأمازيغيين صارمون جدا.

ألا تكون المرارة التي يحس بها الإبن راجعة إلى كون الأب دوغا، المعروف بدوغا- لي، قد أُبعد من الدائرة المحيطة بالسلطان؟

فالأب كان نجما صاعدا في بدايات عهد مولاي أحمد المنصور، وكان دوغا- لي قبلها مقربا من أخيه مولاي عبد المالك، وحين مات هذا الأخير مسموما، في ظروف لم تنجل ملابساتها قط، قام مولاي أحمد بتطهير محيطه من المرتدين الذين كانوا في خدمة أخيه، وقد احتفظ بدوغا-لي كرجل ثقته والشاب جودر الذي سيذيع صيته فيما بعد. كان لدوغا-لي طموح جامح، لذلك استُعمل لتأمين الفترة الانتقالية، وتم تجريده شيئا فشيئا من صلاحياته وانتهى منفيا بأكادير.

- قل بيدرو، توجه دوغا نحوي بالسؤال.

- اسمي شهاب الدين، قاطعته مستغربا.

- ألم تكن تسمي بيدرو في بلادك.. شهاب الدين، فليكن. بالنسبة لي لا فرق بين الإسلام والمسيحية واليهودية، فهي كلها حِجرٌ على الإنسان. قل لي شهاب الدين، أخي في الإسلام..

- لا أحب هذه النبرة المستهزئة.

- بماذا أناديك إذن؟ المترجم الخاص لمولانا السلطان.. أيروقك هذا التعبير؟ كم من المراحل تفصل ما بين مراكش والبريجة مرورا بحمر؟

- ثلاثة، أجبت.

- يمكنهم أن يلقوا القبض علي إذن، استخلص.

ثم توجه لأنتاتي :

- نحن خُلقنا لنتفاهم، يمكننا أن نهاجر أنا وأنت إلى البرازيل.

- لا وطن لي إلا هذا. ردّ أنتاتي، لن أهجره، مهما كان السبب، حتى ولو..

ثم توقف.

- حتى ؟ استفسر دوغا.

- لا شيء.

- هيا، أنتاتي، أتكتم عني شيئا ؟

- حتى إذا كان علي أن أُدّبر تناقضات. حتى إذا تحتم علي أن أحاتل.

- لكن الناس كلهم هنا يحاتلون، إلاّ شهاب الدين بطبيعة الحال وحاميه القاضي الركراكي. كدت أن أُعرّض نفسي بالأمس لغضبه.

- كيف؟ سأل أنتاتي.

- كدت أن أُهَشِّم وجه مرتد في حانة، لكنني ارعويت. بإمكان صاحب الحانة أن يُبَلّغ عني بكوني مسلما، فيجدها القاضي الركركي فرصة للحكم علي بالجلد. كم جلدة بالضبط ؟

- ثمانون، أجبت.

- ها أنتما تريان. لم أحطم وجه المرتد، ولم يُبلِّغ عني أحد، ولم يحكم علي القاضي. ها أنت ترى، أنتاتي، بأنني أنا أيضا أحاتل. في البرازيل لن يكون علينا أن نحاتل.

كان بإمكان النقاش أن يطول على هذا النحو. فدوغا يحب أن يسترسل في الحديث عن مشاريع هجرته للبرازيل بل للهند. فجأة سمعنا صيحات القبجيين معلنة قدوم السلطان. وقفنا بسرعة وخرجنا من بنيقة

أنتاتي. وقفنا في سقيفة أمام الساحة. كنا نرى السلطان وهو قبالة القبة الزجاجية التي خرج منه. كان واقفا، يرتدي جبة بيضاء من الحرير الرقيق مسمى الملف، بياقة مسدودة، أُعدَّ لباسه هذا من لدن خياطي القصر، وأخذ الناس يقلدونه، وسمي بالمنصورية على اسم السلطان. لكن ذهني كان منصرفا عن هذا كله. عمّت حركة غير معتادة أرجاء المكان، الجند المساعدون، الشواش، وقد امتطوا صهوة جيادهم وانطلقوا راكضين، وخلف السلطان مباشرة كان هناك الخازندار، وقائد الإصباحية، ولا أحد ينبس ببنت شفة. أما بالنسبة لنا فكنا مسمرين، لم يكن أنتاتي على ما يبدو ينظر إلى السلطان بل كان يصوب نظره بشكل ثابت على شاكلة جند قشتالة.

كان القبجيون يجرون من ركن لآخر في ساحة قصر البديع، والسلطان يرى المشهد بهدوء ولا مبالاة، لا يأبه لحضورنا، كما لو أن حركة القبجيين والشواش والإصباحية تسليه. دام ذلك ربع ساعة أو أكثر ولكنها كانت بحجم الدهر. جرى عناصر من الإصباحية نحو السلطان وهم يجرّون الخطاط المسكين. حينما رأيته فهمت ما وقع، فالقبجي الذي كان ضبطنا نقل إلى رؤسائه ما دار بيننا، والذين أخبروا السلطان بدورهم. كان الخطاط المسكين متهما بترك عمله بدون إذن. لا يهم إن كان ابنه يحتضر. كان أنتاتي على حق، الكل يوشي بالكل، ولا أحد يثق في أحد. حتى التفاصيل الصغيرة يتم تضخيمها. كان للبلاط معايير أخرى في التعامل، ولكنها كانت معهودة لدي. فهي تذكرني بالكنيسة أو بالأحرى محاكم التفتيش. فمحاكم التفتيش حالة نفسية، وليست المحرقة سوى حلقة من سلسلة. محاكم التفتيش هي الخوف، هي الوشاية، هي الكذب، هي تشويه الحقائق، هي الإرجاف.أغمضت عيني وبدأت أبتهل لله: إلاهي، كن لي حتى أحتمل هوان عبادك الضالين ولا تصرفني عن أنوارك التي أضاءت الأكوان، أتوجه إليك ربي، أنت الملاذ، من تُعِزُّه فهو المعتز، ومن تخذله فمن ذا ينصره، يا أرحم الراحمين. ﴿قل اللهم مالك الملك، تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء، بيدك الخير، إنك على كل شيء قدير﴾.

فتحت عيني فرأيت الخطاط المسكين مرميا أمام السلطان، ممددا على الأرض، يُقبل قدميه ويتضرع له على ما يبدو. هل سيقطع السلطان رأسه؟ وأي عقاب آخر سيجريه عليه؟ هل يكون ابن الخطاط قد مات ؟

قال السلطان شيئا ما، واستدار على عقبيه، ودخل لوحده جناحه الخاص. توقف الخازندار وقائد الإصباحية أمام عتبة الجناح الخاص بالسلطان. لقد حقق ما كان يبتغيه: بث الرعب في خدامه.

انفرجت أساريرنا لرؤية حياة الخطاط قد حفظت.

- سينتهي هذا المشهد إلى شق طريقه في حوليات التاريخ، ومن شأنه أن يحجب كل المنجزات الكبرى لأحمد المنصور. قال أنتاتي بحنق.

- أتعتقد ذلك؟ قلت.

- نعم، للتاريخ طرق ملتوية، وله أسرار وحده يعرف كنهها. واصل أنتاتي.

- لهذا علي أن أسافر للبرازيل، ردد دوغا.

علمنا، أسبوعا بعد ذلك في تأريخ الفشتالي في «مناهل الصفا» والذي لم يعاين المشهد، صيغة أخرى مزينة. فالسلطان، جريا على عادته المرعية وكرمه المستفيض استقصى الأحوال الصحية لإبن أحد كتابه. أخذ عليه، وبعطفه الأبوي المعهود مغادرته للبلاط الشريف بدون إذن، وكلّف نساء القصر العارفات بأمور الطب بالتكفل بالصبي.

تزدان مراكش بأبهى حللها أياما قبيل عيد المولد النبوي، يأتي الناس من كل صوب: مريدو الزوايا، المتصوفة الذين يملؤون مقامات الأولياء الصالحين، المتسولون وذوو الإعاقات. يعمد عناصر الخازندار، وبأمر من السلطان، إلى الطواف على مقامات الأولياء وتوزيع العطايا. تنشط المدينة وتمتلئ الأسواق وتكثر الحفلات وتعج ساحة جامع الفنا بقصاصي السيرة النبوية. كانوا يتنافسون، بعضهم باللغة العربية الدارجة، وبعضهم بالأمازيغية على سرد العلامات البارزة من حياة الرسول عليه السلام، منذ ولادته والإشارات التي رافقت ذلك، وعن رضاعته، والملائكة الذين طهروا قلبه، وأسفاره التجارية إلى الشام، وأمانته وصدقه، وانعزاله في غار حراء قبل نزول الوحي للتأمل. كانت غبطة عارمة بالنسبة لي أن أنتقل من حلقة إلى حلقة لأسمع قصص السيرة النبوية العطرة، غبطة من أجبر طويلا على إخفاء دينه وعلى الوقوف، عاجزا، على الاحتفالات الكبرى التي كانت تواكب عيد ميلاد المسيح. غبطة من فصل عن غاية وجوده وعثر عليها أخيرا بلا موانع من خوف أو تضييق.

لا أعرف الأمازيغية، لكن كان بإمكاني أن أميز، في لباس القادمين من سوس، التقاليد العالمة لفقهائها. كنت أحب دورانهم على إيقاع ضرب الدفوف، كما أحب ألعابهم البهلوانية التي هي، لربما، مخلفات لفنون الحرب.

كنت محظوظا لأنني حضرت الاحتفالات بعيد المولد النبوي في قصر البديع ورأيت مشاهد رائعة تؤكد عظمة السلطان وروعة الإسلام. يوما قبل العيد وبعد صلاة العصر، يخرج موكب كبير حاملا الشموع بمختلف الأحجام والألوان. كانت الشموع محمولة على الرؤوس من طرف فتيان قويي البنية، وكل طائفة أو حرفة يتقدمها صف من الفتيات الصغيرات وهن يحملن

الشموع. والكل يسير على إيقاع الطبل والغيطة. يعبر الموكب المدينة تحت الأنظار المفتتنة للسكان، وزغاريد النساء تضبط إيقاع المسير من جامع الفنا مرورا بجنان المسرة أمام باب أگناو، ثم ينعطف الجمع نحو قصبة الموحدين تاركا على يمينه جنان المشتهى. وعلى الموكب أن يصل إلى الباحة المقابلة لقصر البديع أمام باب الرخام قبيل مغرب الشمس، إذاك يضع حاملو الشموع شموعهم والمباخر، ثم ما يلبث القبجيون أن يحملوها إلى الداخل بدار المُلك.

في الغد وقبيل الفجر، يُدعى رجالات الدولة إلى صلاة الفجر كل حسب مكانته، ويتزيى كل واحد منهم بأحسن ثيابه ويلزم المكان المخصص له في جامع القصر بالقبة الخضراء. يؤم السلطان الصلاة، لابسا الأبيض كما جرت العادة في التقاليد السعدية. بعد الصلاة، يتربع السلطان فوق دكة والشموع والمباخر موضوعة أمامه تقوم مقام حاجز بينه وبين الضيوف، ثم يفتتح خطيب الاحتفالات بسرد سيرة الرسول عليه السلام، وذكر مناقبه، ومعجزاته، ثم تُنشَد قصائد المديح النبوي بدءا بقصيدة البردة للإمام البوصيري وغيرها. وحين يُفْرَغُ من ذلك يبدأ الصوفيون في الذكر، ثم ينشدون قصائد صوفية لشعراء المغرب والأندلس، ويأتي دور العلماء الكبار، يفتتح القاضي الشاطبي بإنشاده لقصيدة ثم يليه صهري القاضي الرگرگي ثم المفتي الكبير وأخيرا الكاتب الفشتالي. لا يتغير شكل القصيدة من شاعر لآخر، فالقصيدة تفتتح بالغزل ثم يُعَرِّجُ على مدح الرسول عليه السلام، ثم تختتم بذكر عظمة سيدنا بابا أحمد المنصور. كنت أعرف بأن السلطان يخص ولي العهد المأمون بالعطف، وقد حكى لي أنتاتي، بإسهاب، حفل تنصيبه كولي للعهد. وقد تضمن هذا الحفل إنشاد قصائد تمجد خصال ولي العهد، فالشعراء لا يدعون فرصة لإزجاء المديح لوارث العرش.

يدور احتفال المولد النبوي أمام نظر السلطان الحاني، ويُقرأ في قسمات وجهه تفضيله لهذا الشاعر أو ذاك والذي يتلقى بعد إتمام إنشاده عطايا متمثلة في ألبسة ونقود. وهكذا ينتهي الاحتفال ثم ينصب سماط الأكل

وسط ساحة قصر البديع والتي تزينها الأحواض الكبيرة بنافورات رخامية. يضع الشوشريون، أو خدم المطبخ، مختلف صنوف الأكل والتي تمثل كل مناطق المغرب. ينهض السلطان قبل الفراغ من الأكل معلنا نهاية الحفل، وبخروجه يتبعه كبار الموظفين ثم تفتح أبواب قصر البديع للعوام لكي ينالوا بدورهم من طعام السلطان.

كنت أسير، مأخوذا بهذا الجو الاحتفالي وسط الأعيان حين أمسكني أنتاتي من طرْف الجلباب:

- إلى أين تسير؟ سأل.

- إلى بيت صهري في درب باشاي أبارك له العيد ثم أعود إلى بيتي، لماذا ؟

- سأقول لك بعد حين.

- لماذا لا تقول لي الآن؟

- بعد حين. قلت لك، آتي عندك بعد صلاة العصر.

سمعت ورائي صوت دوغا، مُحَدِّثا أنتاتي وهو ينتقد الحفل :

- إنهم لا يكتفون بإيقاظنا في هزيع الليل، ولكنهم ينشدون علينا الشعر العربي القديم الذي لا نفهم منه شيئا. أعرف أنك..

أسرعت الخطى لكي لا أسمع أقوالا وقحة، تقال خصوصا في بلاط السلطان مولاي أحمد، سبط الرسول.

شغلت بالي أقوال أنتاتي، ولم أذكر شيئا من ذلك خلال زيارتي لصهري. كان سعيدا بالتهنئة التي حصل عليها بعد إنشاد قصيدة أمضى شهورا في نظمها ونقَّب في الكتب القديمة بحثا عن الكلمات الشاردة لمدح السلطان وولي عهده. لم يحصل على الخلعة، اللباس الذي يهدى للمكافأة في مثل هذه

المناسبات، ومن الخلعة جاءت كلمة غالا gala عند جيراننا المسيحيين، لكنه كان سعيدا أن متح صوره الشعرية من المتن الشعري العربي القديم.

تركت زوجتي وابني في بيت صهري وذهبت إلى بيتي مسرعا. صليت العصر في بيتي. جاء أنتاتي بعد الصلاة مباشرة، جلس فوق طنفسة وبادرني.

- ألم تلاحظ شيئا على وجه السلطان؟

- الفرح.

- الفرح، فعلا، ضحك أنتاتي بسخرية، ألم تلاحظ انخطافه عينيه اللتين كانتا تتراقصان.

- لم ألاحظ شيئا، كنت مأخوذا بجلال الحفل وبهائه.

- آه، شهاب الدين، كم أنت ساذج. إعلم إذن بأن ولي عهده وخليفته في فاس شق عليه عصا الطاعة ؟

- كيف؟ إبنه المحبوب، إبنه الذي مدحه كل الشعراء والقضاة والعلماء.

- نعم، Hermano كما كان يناديني من حين لحين مستخدما الكلمات الإسبانية القليلة التي تعلمها مني.

لم أصدق أذني.

واصل أنتاتي :

- جرى هذا قبل أيام معدودة. أتتذكر الخطاط، الذي جُرجر ككلب من طرف جند الإصباحية ؟

أشرت برأسي، غير قادر على قول كلمة واحدة.

- نسخ رسالة من السلطان إلى ابنه المامون، وقد أخبرني الخطاط بفحواها. ظاهريا يمحض السلطان ابنه النصح حول كيفية تدبير الأمور

ويذكر تفاصيل تافهة. لدي اليقين بأن الرسالة من إملاء السلطان نفسه، فشكلها قريب من الدارجة وتراكيبها غير منقحة. لكن المهم لا يكمن هنا. لدي انطباع بأن السلطان يُحضّر شيئا ما. يريد أن يخدع ابنه قبل أن يصوب له ضربة قاصمة.

- إلاهي، إننا في زمن ملوك الطوائف.

- ها أنت ترى، لقد أتت إلينا الأندلس، وترى في أي شكل جاءت. قال أنتاتي.

اشتعلت النار بين السلطان وإبنه. تأكدت لاحقا من الأخبار التي سمعتها من أنتاتي، رغم أنه كانت له قراءة خاصة للأحداث. بدأ الناس يتحدثون عن نمط الحياة المنحل للإبن. بعث السلطان الغاضب من تصرفات الإبن مبعوثين إليه، غير أن الإبن لم يرعو، بل إنه قتل أحد وزراء والده، القائد السفياني، مسموما والذي جاء لتعزيره. لذا قرر السلطان معاقبته ببعث حملة عسكرية. وقد هدد الإبن بعد أن اطلع على نوايا السلطان بالهرب إلى تلمسان وطلب عون الأتراك، لذا ضبط السلطان نفسه وتعامل بحكمة مع ابنه فبعث له رسالة مكتوبة بنبرة أبوية محاولا إرجاعه إلى جادة الصواب. اعتبر أنتاتي أن ما يقال عن نمط حياة الأمير ليس إلا ادعاء، فهل نمط حياة باقي الأمراء، أو السلطان نفسه، بمنآى عن الشبهات لكي يتم التحامل على انحرافات ولي العهد ؟ الحقيقة هي أن السلطان علم بنزوع الأمير إلى الاستقلال عنه. فكان من الضروري تشويهه إزاء الرأي العام، وُشرع في نشر أخبار عن جلسات تهتك وخلاعة تدل على طيشه. أما بالنسبة لحِلم السلطان فأنتاتي لا يصدق ذلك، فلجوء السلطان إلى الدبلوماسية مرده إلى أن مواجهة جاره القوي في الشرق لا تخلو من مخاطر. فالرسالة التي سرّبها الخطاط لا هدف من ورائها إلا خداع الإبن. ينبغي إبقاؤه في الحِجر قبل إيقاع العقاب الشديد به.

- ما دهى الخطاط ليخاطر هكذا بنفسه !.. وإذا كانت نواياه سيئة. سألت أنتاتي لأنني خشيت عليه.

- الخطاط صادق.

- ولماذا عَرَّض نفسه للخطر؟

- هو جريح. هوذا انتقامه. فجِراح الصغار هي مثل الأَرَضَة التي تقضم جذع الشجرة الكبيرة وتنتهي بإسقاطها.

وأنشد أنتاتي البيتين الشهيرين للمتنبي:

وُمراد النفوس أصغر من	أن نتعادى فيه وأن نتفانى
غير أن الفتى يلاقي المنايـــا	كالحات ولا يلاقي الهوانا

لم أعهد فصل ربيع في مراكش أجمل من هذا الذي صادف حَرْكَة[1] السلطان نحو فاس. لقد بعث بإبنه مولاي زيدان، حاكم تادلا إلى الطرق المؤدية إلى فاس لكي يقطع طريق المسافرين عبر سهل تادلا وجبال فزاز[2]. وبعث كتيبة إلى سلا لمراقبة الطريق عبر سهل تامسنا. كان ينبغي فصل الأمير المامون عن أخبار حركة والده نحوه. كان جيش السلطان مكونا من إثنى عشر ألف جنديا، ومنهم الإصباحية، والرماة الطبجيون، وجيش النخبة، جيش النار، تحت قيادة جودر باشا، ثم هناك بطبيعة الحال الفرايگية، المكلفون بنصب سرادق السلطان في تنقلاته، وهو تقليد يعود للموحدين في القرن الحادي عشر. وعهد السلطان لإبنه، أبي فارس، حاكم مراكش، النيابة عنه. فصارت الأمور في القصر، دار المُلك، مُنحلّة ينقصها الحزم. اغتنمنا الفرصة نحن الكتاب، لكي نعتني بشؤوننا. اقترح علي أنتاتي أن نقوم بنزهة مع عائلتينا، في أحواز مراكش. جهزّنا ذات خميس، غداة يوم الجمعة الذي لا عمل فيه بغلين، وركبت زوجتانا أتانَيْن وتوجهنا نحو الجنوب على طريق أغمات. كانت الطبيعة جميلة، والسواقي تنضح بالمياه، وذرى جبل درن مكللة بالثلج.

اجتزنا جنان المشتهى وأثخنا في مراعي أگدال والتي تخصص لقطيع السلطان، حين بادرت أنتاتي في ما يتداوله الناس :

- يقولون بأن السلطان لن يعود من حركته إلى فاس، سمعت هذا بعد حلقة الذكر في ضريح سيدي سليمان الجزولي.

- تُرَّهات، قاطع أنتاتي. كيف بإمكانهم أن يعرفوا الغيب.

---

[1]- الحرْكَة تعني سريّة مكلفة بالزجر والعقاب.

[2]- جبال فزاز بالأمازيغية تحيل إلى جبال الأطلس المتوسط.

- سادة الوقت، يقولون هذا، إنهم يؤولون الإشارات.

- إنك تثير دهشتي شهاب الدين. على أي سند يتنبؤون بالمستقبل؟ لا أصدق هذه الأشياء وأنت أيضا لا ينبغي أن تصدقها.

أمام المأساة التي تعرضنا لها استمسكنا، نحن الموريسكيين، بالشعوذة. كنا نراقب الإشارات لكي نغالب آلامنا وأحزاننا، وقد لزمني كثير من الوقت لأتحرر من هذا الإنقياذ الأعمى لهذه الأفكار البالية.

ران علينا صمت ثقيل. واصلت دوابنا سيرها بهدوء. كانت زوجتي تحمل على ظهرها ابني حكَم. أما أبناء أنتاتي فسبقونا على طريق أغمات لنصب الخيمة وتحضير الأكل. تستغرق الرحلة ثلاث ساعات من الطريق قبل أن نصل إلى خاصرة الجبل.

كان أنتاتي يتأمل ما حوله ثم قال:

- منذ مدة والنار تستعر بين الإبن والأب، لكن هذا هو المظهر المرئي للهوة. فليس هناك من أحد غير الإبن لسبر تناقضات الأب، فالإبن هو مرآة الأب. ومنذ مدة طويلة والأب يرفض رؤية نفسه في المرآة. كان غير قادر على رؤية الواقع كما هو. وقف الحظ إلى جانبه فسمح لنفسه بكل شيء. منذ معركة وادي المخازن تخلص من المرتدين الذين كانوا سند أخيه. قضى على القبائل. شلّ كل من كان بإمكانه أن يكون مصدر إزعاج، ثم أطلق العنان لجنون عظمته. ماذا يبرر القيام بحملة عسكرية على مملكة سونغاي ؟ إغراء الذهب؟ سراب. كانت الحملة أكثر كلفة مما أتت به.إثنا عشر ألف جنديا من خمسة وعشرين ألفا هلكوا. الجهاد ؟ لكن الأساكيا أهل سونغاي، مسلمون. ثم جنون بناء قصر البديع. ما الذي يبرر كل هذا الإسراف؟ أثقل على الناس البسطاء بالضرائب من أجل جنون العظمة، إذ لم يعد يسمع إلا صوته، وقد جثم المرتزقته من المرتدين على كل الساكنة كالرصاص. كان ينبغي أن تحدث قطيعة إزاء كل هذا، والإبن المامون هو المرآة التي تنعكس فيها أنانية السلطان. فهو يرفض أن يرى نفسه في المرآة ويذهب إلى فاس ليحطم المرآة التي يُظهرها له ابنه. هذا، ربما، هو ما يسميه سادة الوقت، كما

قلت، النهاية. إنها نهاية سدى. فالمنصور ورغم عبقريته لم ينفك يكرر نفسه بينما العالم يتغير من حوله. كان في حاجة لأفكار جديدة و لم ينتبه لذلك. وهو الآن أمام حقيقته.

أصختُ السمع له بإنتباه. أنتاتي جزء من لعبة، من صراع، أما أنا فلا. لم يكن لي الحق في أن أنخرط سياسيا. لا ينبغي أن أنخرط في لعبة دقيقة لا أعرف قواعدها. ينبغي أن ألزم ما يترتب على وضعية الضيف: الإنصات والملاحظة و الامتناع عن الدخول في لعبة لست طرفا فيه. واصل أنتاتي:

- المستقبل مظلم، ثلاثة أبناء يتطلعون للحكم، سيتكالبون بعضهم على بعض ويمزقون البلد إربا إربا. والمأساة هي أن لا أحد منهم هُيء للأمانة العظمى، ويتصورون السلطة إرثا وليس عهدا. فالمامون يشبه والده، فهو ماكر، وحازم، ويميل إلى الشهوات مثله. أما زيدان فرغم أنه مثقف لكنه مليء بالحقد. وأبو فارس يعيش داخل قوقعته، يأكل وينام، وينام ويأكل وحين يصحو لنفسه يقول بأن الجن تسكنه. لا أحد منهم بإمكانه قيادة البلد. سيلجؤون للمرتزقة الذين سيتحكمون فيهم كدابة ذلول، ولن يترددوا، من أجل السلطة، أن يستنجدوا إما الترك أو الإسبان متناسين كل دعاوى الإسلام في أمر الجهاد أو اعتبارات الاستقلال.

توقفنا قرب أوريكة لكي نستحم. ارتوينا من عين ماء. لم يكن بوسعي تخيل ما يدور سياسيا في أعماق المغرب ولا الصراعات التي تتجاذبه. فجأة أحسست بالحنين إلى الأندلس مسقط رأسي، فكّرت في أختي القتيلة، وأبي الذي قتله الكمد، وأمي التي انزوت في دير والتي قد تكون ماتت. فكرت في خايمي الذي لم يهجر الأندلس إلا ليموت في معركة لا دخل له فيها. أي ظلم هذا ؟ لماذا نطرد من أرضنا ؟ هي أرض أجدادنا بعد كل شيء. كان بإمكاننا أن نعيش فيها بوئام مع المسيحيين واليهود. كانت لدي صورة مثالية عن المجتمع المسلم أو دار الإسلام. أعادتني صيحة ابني إلى الواقع. يذكرني إبني وزوجتي بأن طريق العودة أغلق وللأبد. ورغم ذلك، وفي هذا

الوقت المحدد، حيث جلسنا قرب عين ماء ينساب ماؤها في ساقية، تبينت أنني كنت أكبت بداخلي شيئا ما. أكبت حبي لمسقط رأسي. أكبت وضعيتي كمنفي. كنت منفيا وسأبقى منفيا إلى الأبد. لن يكون بإمكاني إطلاقا، وعلى غرار أنتاتي، أن أتحدث بعاطفة متوقدة عن بلد المغرب وتاريخه ومستقبله.

تذرَّعت برغبتي في اكتشاف ما يحيط بنا وانزويت لأفكر، تقدمت نحو الدوار القريب غير بعيد عن دور مبنية بالحجر على خاصرة الجبل. كانت هناك صبايا يحملن قلل الماء ويتبادلن كلاما بالأمازيغية، وأخريات يشبكن أيديهن في أيدي بعضهن بشكل متقابل ويغنين بالعربية الدارجة. أصخت السمع وحاولت فهم غنائهن. كانت ذكرى الأندلس حية في الذاكرة الجماعية حتى في هذا الركن. كن يغنين عن إشبيلية التي تبكي، تولول:

تيك اشبيلية

تي وليولوة

ما قْتلوني ما حّياوني..

هو ذا أنا، في منزلة بين المنزلتين. أدركت وضعيتي كمنفي بين الحياة والموت، وفهمت أخيرا مأساة اليهودي وتعاطفت معه. لا أعرف هل سيأتي يوم يعمد فيه أحد ما ليقدم لنا اعتذارا عن كل الآلام التي كابدناها ونكابدها نحن الموريسكيون. جرت دمعة على خدي. منذ خمس سنوات وأنا أكبت جرحي، الذي سوف يظل سرمديا. عدت على عقبي. كان أنتاتي منهمكا في شد بردعة بغله. توقفت ونظرت إليه لأول مرة، بشكل مجرد. إنه تعبير عن عبقرية، لكن لا أعرف ولأي سبب كان لدي إحساس بأن هناك شيئا غير مكتمل لدى هذا الشخص الاستثنائي، ربما هو شعور الضيم الذي يثقل عليه؟ ربما هي الموجدة.. وقد تكون القطيعة بين الضفتين؟ عبقري يمكنه أن يصير سلبيا ومخربا لذاته. لن يعود بالإمكان استعادة نموذج الموحدين. سيكون هناك أشخاص على شاكلة أنتاتي واعون بشكل فردي بعبقريتهم، منهم علماء، وأولياء صالحون، أو بعض المغامرين السياسيين الذين سينهي حلهم بالانهيار.

نتاجٌ عليه أن يخاتل السلطة القائمة، كما كان أنتاتي يقول لي. إنه لن يلتئم مع أي وضع ولن يقبله أي وضع. كان الأمر أشبه برؤيا لا يمكنني التعبير عنها وخصوصا مع أنتاتي. هناك جانب حساس فيه وينبغي أن أراعيه.

أبدى أنتاتي كياسة بعدم توجيه الحديث إلي. كنا نسير جنبا لجنب فوق بغلينا. على يسارنا قبر شاعر إشبيلية إبن عباد، ذاك الأمير العربيد الذي خلعه أمير أمازيغي زاهد، يوسف بن تاشفين. كنا، أنتاتي وأنا تجسيدا، لهاتين العبقريتين. أنتاتي يجسد العبقرية الأمازيغية في قوتها، وأريدني تجسيدا للعبقرية الأندلسية في روعتها. سراب، انقرض النموذجان، ولم يعودا موجودين إلا كعملة لم تعد متداولة. لم يعد لنا قيمة، لا أنتاتي ولا أنا. كنا ذخيرتين من ماض انقضى. لقد جعلتني وضعيتي كمنفي أعي هذا. هل كان الأمر نفسه بالنسبة لأنتاتي؟ هل يتلفع بالأوهام و يجري وراء السراب؟ تغير التاريخ منذ 1942، ومن هذا الجرح أو الصدمة صرنا تحفا من الماضي. مضى علينا، نحن الموريسكيين، قرن من الزمن لنفهم بأننا سنصير منفيين إلى الأبد. ليس لأننا سنصير أيتام أرض انتزعت منا، ولكن أيتام فكرة كذلك، الفكرة التي كونّاها عن أرضنا وعن العلاقات بين جماعتنا المنهزمة والجماعة المسيحية المنتصرة. بعيدا عن أرضنا، سنفلح الأرض، سينجح بعضنا في ميادين تقنية، سنصير مرتزقة. سنصبح نسخة باهتة لما كنّا عليه في أرضنا. سيكون هناك سقط متاع لهذه الصدمة، مثل شظية قذيفة: جودر، المرتدون، قادة بدون ضمير، وآخرون وآخرون. ينبغي أن أعيش وضعيتي بلا عاطفة.

وصلنا إلى منتجعنا في غيضة قرب الوادي. كان الماء ينهمر ويتكسر على جلاميد صخر. قدم لي أنتاتي إخوانه. كانوا سعداء. رقصوا رقصة أحواش التي تضبط إيقاعها الصرخات وقرع الطبول. كان أنتاتي ينظر إليهم بلا حراك. بدا أنه لا يستمتع بغنائهم. يبدو أن وعيه التاريخي يقض مضجعه. كان لدي انطباع بأنه منفي هو الآخر. منفي وسط ذويه، و لعلّ هذا أن يكون أشد إيلاما مما كنت أعانيه.

ذات يوم استُدعي صهري، القاضي الركراكي من قِبل أم الأميرين، المامون وأبي فارس، لالة خيزران. لم يكن يتكلم إلا بنتف كلمات وهمسا مخافة أن يتم سماعه من طرف آذان غير متكتمة. كان بالإمكان إعادة نسج ما حصل انطلاقا من حركة الذهاب والإياب لحاملي الرسائل، الرقّاصة، كما يسميهم المورو، بين فاس ومراكش. بوغت الأمير المامون، وقد كان مقطوعا عن أخبار ما يجري، من طرف جيش السلطان الذي عسكر في أحواز فاس، بالدوح. كان الأمير المامون يعرف بأنه سيخسر المعركة، لذا هرب وطلب الأمان في زاوية الولي الصالح سيدي بوشتة في قبيلة فشتالة. بعث السلطان جيش النخبة الإصباحية وجيش النار تحت قيادة جودر باشا يدعمهما الفرسان. حاصروه بما يربو على ألفي جندي. أقسم جودر باشا بأغلظ الإيمان، إن لم يستسلم الأمير، ليمزقنه إربا إربا جاعلا منه عبرة. قاوم الأمير المامون ما أمكنه ذلك. وعلى إثر بعض المناوشات، قبض عليه وُأخذ مقيدا إلى مكناس. تدخلت أمه لدى أعيان مراكش لكي يستعطفوا السلطان. لم يذهب صهري إلى فاس، أما من تدخلوا لدى السلطان ليستعطفوه فقد تذرعوا بأن ابنه تاب وصار على النهج القويم فأمرهم السلطان، وقد هدّه التعب والغم، بأن يذهبوا إلى مكان حبسه لكي يستقصوا أمره وموقفه. وحين عادوا قدّموا تقريرا مليئا بالمديح عن تحول الإبن المارق ورغبته في أن يتبع الصراط المستقيم في كنف السلطان. كانوا يقولون نفس الكلام إلا القائد ابن ساسي.

- سيدي، الحقيقة هي أن إبن جلالتكم لم يُبد أي ندم، فهو ما يزال على الأفكار الخرقاء التي كانت تراوده.

طلب السلطان النصح. كان مضطربا.

اقترح عليه الباشا الوزكيطي، نظرا لدالته على السلطان والعلاقة العائلية التي تجمعهما من طرف الأم بأن يقتله : «ما اجتمع سيفان في غمد» قال له.

- كيف يمكنني قتل إبني؟ رد السلطان.

لم يعش السلطان أبدا مثل هذه الوضعية، فالخلاف مع ابنه أعاده إلى حجمه الإنساني. فخصمه هو ابنه، ولا يمكنه التخلص من ابنه كما يتخلص من خصم عادي، لا يكاد يعرفه، ويصفّيه، إن لزم الأمر، بدون تبرم ولا أسى. تذرع السلطان بتقديم الخلاف مع ابنه على أن مرده الانحلال الخلقي للإبن. كان الأب والسلطان يتصارعان بداخله. أسَرَّ لهؤلاء القواد والباشوات بالتزام الشدة مع الإبن، وبضرورة معاملته بقسوة في السجن.

دُعي صهري للقاء الأمير أبي فارس الذي كان سيستقبله ثم تراجع عن ذلك، واستقبله نيابة عنه رفيق له متبجح. أثر ذلك بالغ الأثر في صهري حتى إنه نسي السبب الذي من أجله دعي. لم يكن يتكلم إلا عن المعاملة الفظة التي لقيها من رفيق الأمير، عوض المهمة التي كُلف بها. كان مصدوما لكون صديق الأمير عامله بدون إعارة أي اعتبار لا لمكانته ولا لسنه. كان متأثرا جدا لدرجة أنه ما انفك يتكلم عن ذلك، وكان متوجسا حتى أنه ينسى ما هو أساسي «كيف يمكن أن يكون فتى سيء التربية صديقا حميما للأمير؟..» كان يكرر بلا توقف، وحين يحس بالثقة يقول: «كيف لأمير أن يتخذ من فتى عديم التربية صديقا حميما؟».

كان السبب الذي من أجله استُدعي صهري هو رسالة من السلطان إلى ابنه أبي فارس تخبره بأنه انتصر على ابنه الضال، المامون، وتأمر القاضي بضرورة تضمين خطبة الجمعة أصداء هذا النصر المؤزر للسلطان في مختلف منابر المدينة.

كان الناس في غالبيتهم على علم بملابسات الحملة العقابية للسلطان، والخطبة لا تخبرهم بما لا يعرفونه، لكنها كانت طريقة لتجديد عقد البيعة بين السلطان ورعاياه. لم تذكر الخطبة خبرا أساسيا تضمنته رسالة السلطان وتم الحرص على إغفاله. بدأ وباء الطاعون ينتشر في غرب البلاد ويتم تداول إشاعات ملحة عن وجود بعض الحالات في مراكش. وحسب الشريعة، إذا ضرب الطاعون أرضا فلا يغادرها أهلها.. وبدل انشغال الناس بما يجري من صراع في هرم السلطة، صاروا قدريين بسبب الوباء الذي يحصد كل يوم عدد كبير من الضحايا. مرت احتفالات العيد النبوي هذه السنة بدون بريق. صادفت اشتداد قيظ الصيف. خَفَتَ الحماس مقارنة مع الأعياد السابقة واقتصر على زيارة الأولياء الصالحين للتضرع لهم لإبعاد شبح الطاعون. لم يعد يُرى في المدينة أنشطة فرحة. حتى حلقات جامع الفنا بدأت في ترديد خطاب حول القيامة وأهوالها. هل هي نهاية الدنيا حقا ؟ صارت الأخبار الواردة من فاس نادرة.

كنت قد فرغت لتوي من أداء صلاة العشاء في ضريح الإمام الجزولي وكنت أهُمُّ بالإنزواء في ركن لأداء صلاة الشفع والوتر حين اقترب مني أحد مريدي الزاوية مع إشارة نهاية الصلاة وهمهم لي بكلام مبهم ثم انزوى في ركن. لزمني بعض الوقت لإعادة تركيب جملته. مات السلطان. بقيت منكفئا على نفسي متأملا. لا يبدو أن عالم الزاوية تأثر بهذا الخبر الذي لم أكن وحدي مَن علم به. يتواصل الناس هنا، داخل الزاوية، بكلمات مقتضبة، بإشارات، بشفرات لا يستطيع ممن ليس من المريدين أن يفكها. تمضي الزاوية في مجرى حياتها المعتادة، بدون أن تكترث ظاهريا لما يجري من حولها. هل في هذا تجسيد لانفصال السلطة الدنيوية عن السلطة الروحية؟ لا أدري، أو بالأحرى أعرف. فبين الإثنين يدور صراع خفي، فلكل واحد دائرته، وعالمه، وإيقاعه. ولكن ليس هناك انفصال واضح، فكل واحد في حاجة لحيز الآخر، كما لو أن كل منهما لا يكتفي بالدائرة المخولة له. مواجهة غامضة لا تفصح عن نفسها. كان للزوايا ميزة عنصر تعرف كيف تروضه: الزمن، فالزمن سرمدي، لذا فالمسار التأهيلي للمريدين يعلمهم النظر إلى الأشياء نظرة نسبية،

وهذا ما يفسر قدرة الأولياء ومريديهم على تلقي الضربات، وإحناء الظهر بلا تأفف، والبحث عن تسويات مع السلطة القائمة. فعزلة أهل الزوايا أمر ظاهري فقط. وعلى خلاف ذلك يمضي الزمن عند السلطة الدنيوية بمنحناه الصاعد، حتى بلوغه إلى الذروة ثم انحنائه، ناهيك عن التقلبات التي ترافق هذا المسار. وقفت، أديت صلاة الشفع والوتر وانزويت في ركن مستندا على الحائط لأتأمل. تلوت سورة «العصر»، كأنني كنت أقرؤها لأول مرة: ﴿والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾. (103-1، 3) لا أعرف لِم، ولكني في لحظتي تلك عقدت مقارنة بين وضعية الإنسان في الإسلام وفي المسيحية. في هذه السورة، هناك من جهة الخطيئة الأصلية المرتبطة بالإنسان ومن جهة أخرى هناك الخلاص والارتقاء، فالسقوط ليس مطلقا ولا نهائيا، فبفعل الخير والصبر يُكفّر الإنسان عن خطاياه، ولا يمكن للخلاص إلا أن يكون جماعيا.

رددت مع الجمع الورد «الله حي». حينما انتعلت بَلْغَتِي وأنا أتأهب لمغادرة المسجد، همس لي مريد وكأنه يكلم نفسه ليذكرني بعظمة الله: الطاعون.

توجهت عند أنتاتي في درب هنتانة حيث يقطن، قرب مسجد القاضي الزكندري. لا شيء في المدينة كان يُعبِّر عن الأسى. كانت، هنا وهناك، ذؤابات شموع تتراءى من فتحات النوافذ وبعض بغال لأناس تأخروا ويلتحقون بدورهم. كل شيء طبيعي وعادي. البدر مكتمل، وحرارة الصيف اشتد أوارها. أسرعت الخطى. طرقت باب دار أنتاتي، وكان هو من فتح لي. بدا هو أيضا غير مطلع على ما حدث. فقد حرره سفر السلطان إلى فاس وجعله يهتم بأموره الخاصة.. في طاولته كان هناك فانوس وأوراق، ودواة وكتب.

أشار علي بالجلوس فوق جلد خروف، هيدورة. أعطاني وسادة وضعتها بيني وبين الحائط. جلس قبالتي، خمن بأنني جئت من أجل شيء مهم. أبلغته الخبر، سكت مليا، ثم وكأنه يكلم نفسه ذكر الآية القرآنية :

- ﴿ولا تدع مع الله إلها آخر لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه، له الحكم وإليه ترجعون﴾.(28-88)

غلّفنا صمت ثقيل، ثم عاد أنتاتي للسؤال.

- بماذا مات؟

- بالطاعون.

- هو المأخوذ بالعظمة، كان يحب أن يموت ميتة أخرى غير هذه.

وأضاف:

- عبقرية كبيرة من أجل أشياء صغيرة.

- إنه سلطان عظيم، جازفت بالقول.

- سياسي محنك، لا ريب في ذلك. عالم، مغرم بالجمال وعارف به، كل هذا صحيح، لكن هل هذا يكفي ليجعل منه سلطانا عظيما. لا. لم يكن سلطانا عظيما، لقد أمسك الجميع كرهائن لكي لا يظهر إلا شخصه. لا أحد كان بإمكانه مطاولته، أو صرف الأنظار عنه. كانت عظمته تمر عن طرق محق عباد الله. لا، لم يكن بابا أحمد سلطانا عظيما، إلا إذا اعتبرنا عظمة بهرجاته: قصره البديع، مراسمه، طقوسه، بلاطه، شعراؤه المتحلقون حوله، مؤرخوه المنتفعون من عطاياه. كان الإنجاز الكبير الذي حققه هو الحملة على بلاد السودان وكانت تلك الحملة غلطة كبرى، فقد أضعفت البلاد بالضرائب التي فرضت على السكان وأحدثت نزيفا في الجيش، وأضرت بصورته كأمير للمؤمنين. أما قصر البديع فكان جُبًّا بلا قرار لهدر المال وقد أنجزه لإرضاء جنون العظمة المتحكم فيه. خطّطه بنفسه وشيده لذاته، ولا أعرف ما سيكون مآله الآن بعد موت السلطان. ثم أولاده. يا للبوار ! سيتنازعون البلد كما لو أنهم يتنازعون إرثا. لقد بقي البلد قائما، لأن بابا أحمد أرعب الكل، بمرتزقته ومرتديه، بقواده الجشعين والخليعين، بعلمائه المرتشين، بواسطة هذا استمرت الأمور. سيظل بابا أحمد المثال النموذجي الذي لا يمكن تجاوزه. ستكون هناك نسخ تحاكيه تتأسى صورة بابا أحمد،

سلاطين أشداء ذوو بطش ومكر، سيعيدون حرفيا تقنيات حكمه، بحماس وإقدام متفاوت. وفي جنون عظمتهم، سينسون حكم التاريخ كما لو أنهم سرمديون. في ليلة أفول حياته كان لبابا أحمد شعور مسبق بما يدخره له التاريخ: إبنه الذي قام ضده، إبنه الذي كان بمثابة مرآة تعكس حقيقته. ذهب لفاس لتحطيم المرآة، لكنه لم يتمكن من التنبؤ بمكر التاريخ. فالطاعون الذي هرب منه، هو الذي وضع خططا لتجنبه: تحركاته، أطبائه، ترياقه وأدويته.. ومات بما كان يهرب منه. من شأن حشرجاته وقيئه وبصقه الدم أن تذكره بما كان قد نسيه: وضعيته ككائن بشري، له مهمة نبيلة وجسيمة لكنها ليست ملكية ولا إقطاعية. مات بابا أحمد لكنه ترك نمطا من الحكم سيبقينا رهائن، نمط سنقتتل فيه، ونعمد على شلّ بعضنا البعض. ولن نقوم بشيء عظيم منذ انقطعت الصلة مع الشمال، منذ أن تم وأد روح هذه الأرض بالأكاذيب والأراجيف. كنت تتحدث عن استعادة الأندلس، واعتقدت أن بابا أحمد سيفعل هذا من أجلك، لينتقم لكم، أنتم الموريسكيون. إنس الفتح العسكري شهاب الدين، فالفتح الحقيقي الذي علينا أن ننجزه هو ضد الشر الساكن بدواخلنا، الشر الجماعي الذي ينخرنا.

ثم صمت.

خرج، وجاء بطبق، وضع التيگورامين، طبق الاحتفاء بقدوم الضيف عند الأمازيغ الشلوح من سوس، وهو مصنوع من العسل وأملو وزيت أرگان. أكلت بلا شهية.

وضعت الخبز على المائدة، كنت أبكي في صمت، فهمت لماذا جعل القشتاليون منا لقمة سائغة. لم يكن لنا سند نرتكز عليه. فالكلام الجميل، وعبارات المواساة لا تكفي، ولا يمكننا أن نستند إلى شجرة تنخرها الأحقاد وتأكلها الصراعات. لم يكن لنا عمق استراتيجي: الأتراك يحاربون المورو، والمورو يحاربون أهل السودان. البعض يقاتل البعض الآخر. وماذا بإمكان شجاعتنا أن تفعل؟ كان صراع الموريسكيين بطوليا لكنه بلا نتيجة. كان الداء عميقا.

قاطعني أنتاتي :

- فيم تفكر شهاب الدين؟

- لدي إحساس بأننا، نحن الموريسكيين، اللعنة التي أصابت الأمة الإسلامية.

- كيف كذلك؟

- مع كل هذا الوهن الذي يرين على دار الإسلام، سُيضطهد أقوام آخرون ويُقتلون وُيطردون من ديارهم، ظلما مثلنا. ولن يكون لديهم من يُعوّلون عليه..

ثم انهمرت دموعي.

أمستردام
1611



أرتعش من البرد. من نافذتي أرى المدينة مغلّفة بالثلج. أخذت قطع الحطب وألقيت بها في المدفأة. التماعات هنا وهناك. الحطب يحترق ويُشيع الدفء. خرج رفاقي في الرحلة، بلانكو وورودريغيز وپالامينو، لاكتشاف أمستردام، بحسب قولهم، رغم البرد القارس، رغم الثلج. الملل أثقل عليهم بدون شك. رجال طيبون. كانوا يمتهنون حرفا يدوية أو يشتغلون في الفلاحة. ما انفك جرحهم ينزف. جاؤوا مع آلاف من المطرودين الآخرين من الأندلس في شتنبر 1609 (1018 هجرية) بقرار من ملك اسبانيا فيليب الثالث. كان ذلك منذ سنتين. استقروا في الضفة اليسرى لمدينة سلا. فقدوا كل شيء، والقليل الذي حملوه معهم نهب من طرف قراصنة بلاد الإفرنج. حتى أولئك الذين ارتدوا للمسيحية رُحّلوا، وعجزوا عن فهم ما تعرضوا له من آلام وتنكيل. أغلبهم لا يعرف من الإسلام إلا نتفا، ومعرفتهم باللغة العربية ضعيفة، بل منعدمة. دفعت تصرفاتهم التي لا تخلو من فظاظة لأن يُعرِض عنهم سكان سلا القديمة في الضفة اليمنى للنهر. كان مواطنوهم المطرودون قبلهم، الهورناشيروس، يرتابون في شأنهم. كان مرافقيَّ يحملون معهم مخلفات اقتلاعهم من جذورهم. علي أن أكون صبورا تجاههم. يجب أن آخذ بعين الاعتبار محنتهم. لا يمكنني أن أزجرهم أو أوبخّهم.أعرف أنهم خرجوا إلى الحانة للشراب والبحث عن فتيات سيئات السمعة. الله يهديهم. تضوع رائحة الخمر منهم كلما عادوا، وأراهم أحيانا يترنحون. يبدؤون في الحديث وأتركهم يفعلون. يحكون محنتهم: أراضيهم المنهوبة، ممتلكاتهم المصادرة، ثم تعرضهم للطرد. كان غضبهم ضد القشتاليين يحتد ويقسمون بمغلظات الإيمان بأنهم سينتقمون. أحيانا حين يثقل عليهم الحنين لا يتمالكون من البكاء بدمع غزير. يبقون طويلا في الصالون يرطنون بالقشتالية، اللغة الوحيدة التي يعرفون، ويحدث أن آخذهم من أيديهم لأوصلهم إلى غرفهم، وأضعهم في أسرّتهم وأغطيهم. إنهم لا ينهضون لأداء صلاة الصبح عند

الفجر. ولا يلتزمون بأداء الصلاة في مواقيتها، فضلا عن أنهم يؤدونها كيفما اتفق. رفض رودريغيز القيام بجهد في هذا الصدد، لأنه، كما يقول بدون مواربة، لا يعتبر نفسه لا مسيحيا ولا مسلما. كان الآخران ينسيان أحيانا القيام بالوضوء.. أؤمهما في الصلاة. ويحدث، حين أتمها، بأن أباغتهما وهما يتحادثان أو يبدءان السلام إثر الفراغ من الصلاة من اليسار.. كلّفني السلطان مولاي زيدان بترؤس الوفد المتوجه لبعض البلدان الأوربية لإخطارهم بالضرر الذي لحق بالموريسكيين والتدخل لدى السلطات الإفرنجية لاسترداد ممتلكاتهم التي صادرها القراصنة الإفرنج. صارت القرصنة حلبة صراع بين المسيحيين والمسلمين في البحر الأبيض المتوسط خاصة. وسمم ذلك العلاقات بين الضفتين. كم من مسافرين مطمئنين وجدوا أنفسهم أسرى، بيعوا كعبيد لما تبقى من حياتهم، إن لم يتم افتداؤهم. لقد صار الأمر تجارة مربحة وخصوصا حين يتم العثور على صيد ثمين: تاجر غني، أميرة، عالم يفدى بالذهب الخالص. أصدقائي يخصونني بود وتقدير كبيرين لأنني قادر على تفهم آلامهم والتعبير عن هواجسهم..يبدو رودريغيز الأكثر صبرا على محنته. احتفظ بهدوئه رغم روح التمرد التي تسكنه وأظهر إرادة في التكيف مع الأوضاع. يبرغم كلمات عربية. حين كنا بميناء أمستردام أبدى فضولا إزاء العتاد البحري الحربي الهولندي. أما الآخران، بلانكو وپلامينو فهما يبدوان مذعنين لما جرى. لم يبرأ پالامينو لما تعرض له من خسارة، وينهار في كل مرة ويجهش بالبكاء.

أنا مؤهل لفهم بلواهم، بما أنني أحدهم، للتعريف بها لدى الأمم الأوربية، لأنني تعلمت في بلاط السلطان مولاي أحمد المنصور – تغمده الله برحمته – قواعد الديبلوماسية، والتي طورتها في عهد مولاي زيدان. كم يبدو هذا بعيدا جدا. كان انتقال الحكم مضطربا، وكانت المعركة بين الإخوة الثلاثة المامون وأبي فارس ومولاي زيدان فظيعة، رغم أن مولاي زيدان بويع بعد وفاة والده، لكن، وللأسف، فالطبيعة الإنسانية ضعيفة وحب الحكم والسلطان ينسي المرء الالتزامات التي قطعها ويدفعه إلى أن يضرب بعرض الحائط كل الاعتبارات الأخلاقية.

أعلن أبو فارس نفسه سلطانا في مراكش رافضا بيعة أخيه مولاي زيدان. اغتنم أنتاتي وضعية الفرقة وغادر في سِرّية مراكش نحو أهله في جبال درن بزاوية تالات ن يعقوب، حيث أخذ يُدرِّس الحساب والمنطق. وعاد دوغا إلى رشده، فعوض أحلام الهجرة إلى البرازيل، إلتحق بالمهدية مستجيبا لنداء الربح السهل والسريع الذي توفره القرصنة. لقد تبخرت تلك النواة التي كانت بمثابة أسرة بالنسبة لي. وهكذا هي الوضعية الانتقالية بين حكمين. إنها تهدم النظام القائم، لكن وداخل هذا الخراب تشق طريقا نحو الحرية. من المؤكد أن هذه الحرية تكون قصيرة الأمد قبل أن يستقر نظام جديد، بمصالحه، وتنظيماته ونخبته الجديدة وبطشه. استغل أنتاتي هذه الفترة ليستعيد حريته، شأنه شأن العالم المالي بابا أحمد التنبوكتي الذي اغتنم فرصة وفاة السلطان المنصور ليعود لبلده. كنت من بين من ودّعوه في باب دكالة. أضحى الشيخ الوقور كالطفل وهو مقبل على العودة لمسقط رأسه تنبوكتو. ودّعه علماء مراكش وطلبتها بدموع حارة. قبّلت يده احتراما لرجل اُبتلي في جسده وممتلكاته وعائلته. طلبت منه أن يدعو لنا، نحن الموريسكيين فأحاطني بذراعه وتلا الآية الكريمة.

- ﴿إن الله لا يُغيِّر ما بقوم حتى يُغيِّروا ما بأنفسهم﴾. (13-11)

تنبأ أنتاتي بالصراعات التي ستعصف بالمغرب. وجد السلطان مولاي زيدان، الذي وصل إلى كرسي الحكم في حالة شغور، نفسه وحيدا من دون رجالات والده المخلصين. اختار جودر باشا الذي كان يقود «جيش النار» معسكر أبي فارس رافضا الإنضمام لمولاي زيدان. غادر فاس بعد تتويج مولاي زيدان، ومر بمكناس وهناك أطلق سراح الأمير المامون من مكان احتجازه، وقاده مغلولا إلى مراكش وقدّمه لأبي فارس.. كان جودر فاعلا في سياق مضطرب، من دون أن يكون تحت رحمة جبروت المنصور الذي كان يحد من شكيمته. أشار على أبي فارس بالاستفادة من خدمات المامون ضد مولاي زيدان. هُزمت جيوش هذا الأخير قرب نهر أم الربيع، إلاّ أن المامون لم يكن عازما على العمل لحساب أخيه أبي فارس. توجه نحو فاس طالبا نصرة منطقة الغرب بحكم أنه كان حاكما عليها، ودخلها مُظفرًا. تراجع مولاي

زيدان نحو تلمسان وطلب من هناك عون الأتراك. وهكذا اقتسم الأخوان المغرب إلى قسمين: مراكش وفاس. انتظرمولاي زيدان عون الأتراك الذي لم يأت، مما اضطره إلى الاعتماد في النهاية على نفسه. أثناء ذلك سلّط المامون ابنه عبد الله على مراكش، فعزل عمَّه أبا فارس وعرّض المدينة للنهب والسلب. الله يحفظ ! لقد ذهب به الأمر إلى درجة معاشرة إماء جده مولاي أحمد المنصور ومحظياته. لم يكن يصوم رمضان ويشرب الخمر في الشهر الفضيل. كان على نجم جودر باشا أن يأفل في حمأة سعي الإخوة الأعداء الاستيلاء على الحكم، وأدى حياته ثمنا لإخلاصه للأمير أبي فارس. فقد ضحى به عبد الله، ابن أخيه. أنقل هنا شهادة عن نهاية جودر:

«حين أتوا به (جودر) ليُصفّوه. طلب إن كان بإمكانه مخاطبة السلطان عبد الله. وكان جوابهم سلبيا. تم تجريده من ثيابه وأعطى لأحد الخصيان دثارا مخصرا كان يحمله وطلب تسليمه للسلطان، لأن هذا الأخير منحه إياه ليحافظ عليه. كان الدثار المخصر مرصعا بالألماس والأحجار الكريمة. أخرج أيضا روزاريو عيار سبعة عشر قيراط، كل واحدة بإجاصة من الماس في وسطها، لا تقدر بثمن. ثم التفت نحو الخصيان وطلب منهم أن يعطوا هذا إلى السلطان ويبلغوه بأنه يحس بالأسى، لا لأنه سيهجر هذه الحياة، وإنما للخطأ الذي اقترفه بقتله لأهم القواد والموظفين الكبار لجده السلطان المنصور، وكان بإمكان هؤلاء أن يخدموه. طمأنه الخصيان بأنهم سيبلغون هذا للسلطان عبد الله وطلبوا منه الابتهال إلى الله فساعته قد أزفت. فرد بأن كل شيء مقدر من الله الذي يضرع له أن يشمل روحه بواسع رحمته. استوى على ركبتيه وقال «بسم الله». في هذه اللحظة انبرى مخصي وحزّ رأسه».

كم كانت مفجعة ومحزنة نهاية جودر! أُحس الآن وهو في العالم الآخر بالمواساة تجاهه. من المؤكد أنه كان تعبيرا عن عبقرية: حسه التنظيمي، خصاله الديبلوماسية، حزمه، شجاعته، إخلاصه لأسياده. لم يكن يتعفف عن اقتراف المهام الدنيئة ولا يرفض اللجوء إلى الأساليب القذرة للسلطة: الحيلة

والقوة. أفرط في استعمالهما ليُبقي نفسه في الواجهة ولإبعاد منافسيه، لأنه لم يكن يمتلك مبررا آخر للحياة سوى السلطة. كان مروَّضا مثل كلب. فوجهه الشرس والضاري لم يكن جبلّة فيه. أُسِر وهو صغير السن، وبيع لبلاط القسطنطينية. تحول إلى الإسلام، وختن، بل أخصي، فكان عليه أن يتحول إلى حيوان أو آلة. حيوان مفترس ليقطع دابر خصومه، وآلة لخدمة أسياده. لم تكن فيه أي مسحة إنسانية. أُهدي إلى البلاط السعدي كما تهدى بضاعة، فأبان عن خصال مهنية عالية. لم يتردد في قتل مواطنيه كانوا أسرى قشتاليين رفضوا التحول إلى الإسلام، تنفيذا لأوامر تلقاها. وصفى القواد الذين كانوا يشكلون له مصدر إزعاج. تصرف دوما كوحش.. ولكن ألم يكن من قبيل الوحشية ما تعرض له من إخصاء ؟ ألم يكن تحوله إلى وحش نتيجة لإخصائه ؟

مازال يتراءى لي بخصلات شعره المتدلية من أذنيه، بعينيه الزرقاوين، وبشرته البيضاء، وقامته القصيرة، ولباسه الذي جمع بين زي بلده الأصلي قشتالة والتقليد التركي السائد في بلاط السلطان المنصور. ينتعل حذاءً عاليا، وصدرية تنسدل حتى الخصرين وسراويل يخفي أسفلهما في حذائه العالي على طريقة القشتاليين. يضع فوق رأسه قلنسوة على الطريقة التركية، بريشة نعام تزينها، ويتمنطق بحزامه الأصفر الكبير الذي لم يكن يفارقه. يتراءى لي في قبة بقصر البديع عامدا بنفسه لتفتيشي. التنازل الوحيد الذي قدمه إلي آنذاك هو أن خاطبني بالقشتالية. آسَفُ لعدم معرفتي به بقدر أكبر. من المؤكد أنه كان غامضا، قليل الكلام، لكن كم كان سيكون مفيدا لو دفع للكلام. ألم يكن هو نفسه ضحية للزلزال الذي ضرب الأندلس والذي دمرنا كلنا، جاعلا منا سقط المتاع، أو مرتزقة، أو في أحسن الأحوال تحفا نفيسة. هو، ذو الأصول المسلمة، ولد مسيحيا، وتحول إلى الإسلام، وأخصي. جُرد جودر من إنسانيته....

أولئك الذين طُردوا مؤخرا من طرف فيليب الثالث، بذريعة عجزهم عن الاندماج، ليسوا قادرين على ذلك في بلاد الإسلام كذلك كما تثبت الحالات التي ترافقني. كنا غير قابلين للاندماج في مسقط رأسنا لأنه لم يُرَد لنا

ذلك. فقد انتصبت جدران لفصلنا عن بعضنا البعض. كانت إيديولوجية ذات تأويل مسيحي تُجرِّدنا من إنسانيتنا، أو لنقل الأمور بشكل آخر، كانت تخصينا. تخصينا بالخوف. لم يعد بإمكاننا أن ننجب. كنا نضطرب وسط ماء آسن، وكرد فعل صرنا عنيدين وجامدين، نثير من حولنا الشكوك. في حقيقة الأمر. من هم پلامينو وبلانكو وررودريغيز؟ قشتاليون. كان من شأن الإسلام الجامد للأندلسين أن يتطور في علاقة سليمة مع المسيحية. كان بإمكاننا أن نكون فرصة حظ لقشتالة التي لن يكون عليها أن تحمر خجلا من الحمراء والخيرالدا وجامع قرطبة، ولا من ابن رشد أوابن عربي. إنهم منجزاتها الرائعة، وهم أولادها. وهكذا أضحى قدرنا المأساوي أن نكون مرتزقة أو مغامرين. فالذين يتآمرون على قشتالة أو أولئك الذين يريدون الانتقام لم يولدوا أعداء لها. إنه تحول هم أنفسهم ضحاياه، جعلهم أكثر مرارة وأشد حقدا. لتُفتح الأبواب لآل كاراسكو ولآل رودريغيز ولآل طوليدانو، ولكافة المُرحّلين الآخرين من الديانة اليهودية وسينسون محنتهم. هناك ضرب من غيظ المحب، وتكفي إشارة بسيطة لكي ننسى كل أحقادنا. كان بإمكاننا أن نكون ما هي عليه هولندا اليوم، لكل واحد الحرية في ممارسة معتقده الديني بدون أن يتم تعريضه للمضايقة.

تمت التضحية بجودر من طرف أولئك الذين خدمهم. هي ذي النهاية المحزنة للمرتزق. النهاية التي تنتظر كثيرين من بيننا. أما أنا، فسأكون ما أنا عليه، تحفة أثرية، تحفة تتحدى الزمن قبل أن تعثر على عارف ما، يخرجها من الخمول. إنه رهان غير مؤكد. ربما لن يكون هناك عارف وستسقط التحفة في مهاوي النسيان. بعيدا عن موطني بالتبني، المغرب، أتبين كم كنت أضفي هالة مثالية على دار الإسلام. فتح أنتاتي عيني على ما يسمى في مصطلحات التصوف بالباطن، الجانب الذي لا يكون ظاهرا للعيان. لم يكن لعالم الإسلام الصفاء الذي كنت أتخيل بأنه عليه، وأثبت لي مجرى الأحداث ذلك. كم هي محزنة ميتة الأمير أبي فارس الذي اغتاله ابن أخيه عبد الله ! تعب أبو فارس من طيش ابن أخيه وجلسات تهتكه ومجونه ونهبه وتصرفاته الطائشة والعنيفة.. وأدرك هذا الأخير، حدسا، ما يدور بخلد عمه، فجاءه في الليل. لم يَرْتبْ أبو

فارس المسالم في أي شيء هو الذي كان همه الأكبر هو بطنه وتأويل خرافي للدين. لم يرتب في شيء حين دخل عليه ابن أخيه، وفجأة سلّط عليه زبانيته الذين خنقوه تحت الوسادات. كان يركل برجليه عاجزا، ثم تبدد صوته تحت النظر البارد لابن أخيه، قبل أن يسلم الروح.

كان أنتاتي على حق بصدد مجرى الأمور. وكان على حق في أمر آخر انتهيت إلى إدراكه : عدم جدوى استعادة الأندلس. فلو افترضنا أن ميزان القوة العسكرية في صالحنا، فسنعيد استنساخ نفس الأخطاء. كنا سنتصرف بنشوة النصر العسكري على نفس طريقة رجال محاكم التفتيش. سنرفض الآخر، وسنجبره على أن يشبهنا. سنؤجج الضغائن والأحقاد. كنا، في الأخير، سُنرجيء موعد خروجنا من الأندلس. كان علينا أن نتصرف بشكل مختلف، أرض يقتسمها أولادها مهما كانت عقيدتهم : يهودية أو مسيحية أو إسلام.

لكن الأمور اتخذت مجرى آخر، لطف الله بنا، وعسى أن يتمخض شيء إيجابي من مأساتنا.

سنبقى محاصرين في أمستردام طيلة فصل الشتاء. فالطرق يصعب السير فيها بسبب الثلج رغم أنها مُعبَّدة. في هذه العزلة بمكان الإقامة الذي وضعته السلطات الهولندية تحت تصرفنا أخذنا مسافة إزاء الأشياء والأحداث. إنه شعب مثلنا، عانى من وطأة الهيمنة الإسبانية وأدى ثمنا غاليا لافتدائه.

غادرنا باريس في بداية الصيف نحو لوهافر، ومن هناك ركبنا البحر نحو روتردام وواصلنا طريقنا نحو أمستردام. المدينة جميلة ونظيفة، لا تصل إلى حجم مدينة باريس، لكنها تعج بالناس الذين يكدون من أجل قوت عيشهم. فالتجارة مزدهرة مع العالم الخارجي والأوراش البحرية كثيرة. تتنفس المدينة ملء رئتيها هواء الحرية. كانت الجمعيات العامة الهولندية تحت حكم أسرة الهابسبورغ التي تحكم اسبانيا، وقد انعتقت من نيرها، مما ولّد لديها تعلقا كبيرا بالحرية وحفيظة ما تزال متأججة ضد الإسبان. هذه الموجدة سواء أكانت حقيقية أو متخيلة هي ما يفسر سفرنا.

أثارت دهشتي عدة أشياء، منها أيام الصيف الطويلة، وهناك أمر آخر أثار فضولي. حرية العقيدة. تخضع هولندا لمعتقد المصلح لوثر وأحد أتباعه كالفين، والهولنديون لا يعترفون بسلطة البابا، ولهم تصور خاص عن الرب، وعن العلاقات الإنسانية التي هي أقرب إلى الإسلام، وهم متسامحون مع الديانات الأخرى. يعيش اليهود في آمان بدون أن يتم تعريضهم لأي مضايقات. العديد منهم جاء من اسبانيا والبرتغال. لم أر مكانا آمن من هولندا لممارسة العقيدة الدينية. ألا يستفيد بلد، كهذا، من مساهمة كل أولاده !؟ كم كانت ستكون اسبانيا عظيمة لو أنها احتضنت يهوديها ومسلميها. ألم يكن من بين اليهود أطباء كبار وبنكيون كبار !؟ ألا يتميز الموريسكيون بكدهم وتفانيهم في العمل؟ ألم يكونوا صناعا حاذقين لمهنهم !؟ فمحاكم التفتيش بتر وتشويه، وبالتالي تفقير.

كانت لدينا لقاءات في لاهاي على كل المستويات، مع المسؤولين، والعلماء، ورجال الدين الذين أظهروا لنا ودا وعطفا. كانوا جميعا يرون أنفسهم فينا، ويريدون أن ننعم بالحرية التي يتمتعون بها بعد معارك بطولية. تتضامن الشعوب المقهورة مع بعضها البعض. هل سنعود ذات يوم إلى ديارنا بدون أن نتعرض للإضطهاد؟ هل سننعم بنسائم الحرية على غرار الهولنديين؟

أي رحلة هي رحلتنا، شبية بأودسية عوليس؟ مضت ثمانية عشر شهرا منذ أن غادرنا المغرب من ميناء أسْفي متجهين نحو لوهافر في بلاد الإفرنج. استغرق السفر شهرا. كان طويلا وحزينا، وكان رفاقي يصعدون خلال النهار لسطح السفينة ويتركون أنفسهم وسجيتها. حين كنا على مشارف الزُّقاق أو مضيق جبل طارق، تراءت لنا أرض الأندلس رأى العين. لم يتمالكوا أنفسهم وأخذوا في البكاء، حتى رودريغيز، الرجل الجلد، لم يتمالك نفسه.

كان بحوزتي مرسوم الملك فليب الثالث المؤرخ بشتنبر 1609 والذي ترجمته للسلطان مولاي زيدان. كان القشتاليون يريدون استئصال جرثومة الموريسكيين وإلى الأبد. يعطى البند الأول الانطباع بأننا بصدد عملية عسكرية أُعد لها منذ أمد طويل:

«ثلاثة أيام بعد نشر هذا المرسوم، على الموريسكيين رجالا ونساء وأطفالا أن يغادروا دورهم وقراهم ويذهبوا للركوب في الأماكن التي سيحددها لهم المسؤول المكلف بهذه المهمة. بإمكان كل واحد أن يأخذ معه حصته من الممتلكات المنقولة، وعليه أن يركب في السفن الشراعية الحربية أو السفينة التي ستقله إلى أرض البرابر حيث سيتم إنزالهم».

كيف يمكن لملك أن يضحي بجزء من شعبه؟ هل بإمكان أُمّ أن تتخلى عن أولادها ؟ حتى لو كان هؤلاء الأولاد نتيجة اغتصاب؟ كانت محاكم

التفتيش، برغم مظالمها، تسمح لنا بحيز يمكّننا من الحركة والانفلات من العقاب الجماعي. لقد أتاحت لنا عبقريتنا، ومصالح الأسياد، والتناقضات داخل الكنيسة، وبين الكنيسة واللائكيين من أن نخلق فضاء للبقاء. كان بإمكاننا أن نداهن، وبإمكاننا، في حدود معينة، أن نقوم بتراجعات على أمل انفراج ما، وفي يوم ما سنمارس معتقداتنا بحُرِية، وسيتقبلنا المسيحيون القدامى كما نحن، ولن يكون علينا أن نحمر خجلاً من إسلامنا ولا من أولئك الذين تحولوا للمسيحية.. لكن وعوض الانفراج وقعت العاصفة التي ذهبت بكل شيء.

كيف لبلامينو أن يتكيف مع الحياة في بلاد البربر هو الذي لم يغادر أبدا وادي أيورا ؟ أجبر على التحول إلى المسيحية فتنصر. وهل كان مسلما أصلا لكي يصبأ ؟ لمّا صار مسيحيا، لم يأخذ أحد على عاتقه أن يعلمه ليصير مسيحيا حقا. واصل العناية بأرضه، وأداء ما عليه أداؤه للسادة وللشرطة وللكنيسة، وحين يذهب للأبرشية لا يفهم كبير أمر مما يقال فتوقف عن الذهاب إليها. كان يحب الاحتفال بالزمبرة، ويحب الخمر، وحين يكون الحصاد وفيرا يحتفل بذلك رقصا وغناء. كان يحب أرضه، وزوجته دونا وولديه خوان ومانولو. وذات يوم أجبر على الرحيل من بيته في مملكة بلنسية، وعلى أن يرى أرضه التي تعهدها شبرا شبرا تنزع منه. كان عليه أن يسير مع زوجته التي تتقطع أنفاسها وولديه الصغيرين، مع مُرَحّلين آخرين، مخفورين من قِبل عناصر الجيش وبرؤوس منكسة وقد هدّهم التعب، والمرارة، والخوف، وهم يحملون بعض الثياب والأدوات المنزلية وذكريات قديمة حتى گراو في بلنسية والركوب نحو المجهول : تونس أو وهران، أو طنجة، أو تطوان أو سلا.

في الطريق رأى أشباها كثرا له يغلب عليهم الذهول. لم يكونوا قادرين حتى على البكاء. كأن ما يعيشونه لا يدخل ضمن نطاق الواقع. كابوس سينتهي، سيتبدد، ومن حين لآخر، كانوا يخرجون من شرنقة الذهول حين يُعلَن عن موت أحد المسافرين فيرمى به إلى البحر من فوق سطح

السفينة. تعتري حالة هستيرية مُرحَّلا مسكينا فيبدأ في الصراخ فجأة. ويقدم شاب على فعل طائش حين يرتمي على فتاة أمام والديها. جعل تواتر الموت بسبب التعب أو المرض أو اليأس أمرا مبتذلا وعاديا. وحط پلامينو، في قرية مهجورة فوق ربوة تشرف على المحيط. كانت بها آثار صومعة غير مكتملة البناء ومقبرة كبيرة في قمة تل تطل على مصب النهر. كان هناك، في قصبة قديمة، ثلة من النازحين، جاؤوا سنوات قبل ذلك من هورناتشوس بالأندلس والذين اشتروا حريتهم بدفع مبالغ كبيرة لملك إسبانيا. بعد فترة أولى من الود و حسن الجوار، أدار الهورناشروس ظهورهم للقادمين البؤساء الجدد. خارج نطاق سلا تُحْدِق أخطار عدة بمن يتجرأ على الابتعاد عن القصبة. كان كل شيء غريبا بالنسبة لبلامينو، الذي كان في قرارة نفسه يعتبر بأنه ليس في نفس الوضعية مع رفيقيه بلانكو وورودريغيز. كان يحتفظ بأمل العودة، فهما تحديا الكنيسة والجيش، برفضهما ركوب البحر نحو بلاد البرابر، والأنكى من ذلك حملا السلاح ليدافعا عن أنفسهما، أما هو، پلامينو، فلم يحمل السلاح و لم يقاوم أمر ترحيله.

وكيف يمكن مؤاخذة بلانكو، البنّاء، على المقاومة، والذي حوصرت قريته ميرلا من قِبل فرقة النخبة في الجيش، التيرسيو، بعد أن أُعلن أمر الترحيل!؟ كان على موريسكيي ميرلا الدفاع عن أنفسهم ما استطاعوا. كانت المعركة ضارية وغير متكافئة. تراجعوا نحو قرية الحجر مع نسائهم وأطفالهم. كان المقاتلون قد تحصنوا بالجبال، أما النساء والعجزة الذين بقوا في الحجر فقد أبيدوا من قِبل المسيحيين القدامى. وقد بلغ عدد الضحايا ثلاثة ألف شخصا، إن لم يكن أكثر من ذلك. كانت مجزرة حقيقية، وكان والدا بلانكو ضمن قتلى قرية الحجر. كان بلانكو ضمن مجموعة من المقاومين في الجبل والذين صمدوا بدون مؤونة، وفي البرد القارس، وبدون ماء. كانت عيون الماء والسقايات تحت سيطرة جيش المسيحيين القدامى الذين شكلوا مليشيات لدعم جيش النخبة الترسيو.

«قرابة أربعة آلاف مقاتل شاب سقطوا وهم يحاولون جلب الماء للأطفال الذين يموتون عطشا، فاضطروا لتسليم أنفسهم وطلبوا في النهاية أن يَرحلوا ونزلوا بسرعة نحو السقايات. بعضهم مات لأنه أفرط في الشرب، تم فرز من الناجين النساء والأطفال الذين بإمكانهم الخدمة. فُصلوا عن الآخرين لكي يتم بيعهم»[1].

رُحّل بلانكو مع الناجين القلائل تحت أنظار المارشال ميكسيا الذي حضر شخصيا لمتابعة ركوبهم نحو وهران. مات كثير منهم في الطريق، والذين وصلوا نهبهم البدو. جازف بلانكو وكوكبة صغيرة بالسفر على متن قارب متآكل نحو سلا.

ثم هناك رودريغيز. لاشيء في حياة هذا الصباغ هيأه ليكون متمردا، لكن الظلم دفع ذهنه المتوقد للثورة. كان ضمن مجموعة من المقاومين في ميلا دي كورتيس ضمن مملكة بلنسية، وأخذ عدد المجموعة يكبر مع الزمن. تمترس المقاومون في الجبال والمغارات مع بنادق قديمة الطراز وبعض الذخيرة. تمكنوا بفضل انزوائهم ومؤونتهم وخبرة قادتهم من أن يكبدوا الجيش والمسيحيين القدامى خسائر فادحة، لكن أيام نجم السعد كانت قصيرة. قُبض على موريسكي كان ضمن كتيبة وأخضع للتعذيب، فانتهى به الأمر إلى إبلاغ الجيش بالمكان الذي يختبئ فيه قائد التمرد، فيسنتي تريكي مع عائلته ورفاقه. اقتيد تريكي إلى بلنسية حيث فصل جسده من رجليه. تمكن رودريغيز من الهرب. قاوم طيلة الشتاء وجزءا من فصل الربيع. قبض عليه من طرف الجيش واقتيد إلى بلنسية. عَلِم من الناجين أن المغارة التي كانت تختبئ فيها زوجته وولداه، ماريا وخوان، أحرقت من طرف المسيحيين القدامى، ولم ينج أحد اختناقا بالدخان. ومنذئذ لم يعد لرودريغيز إلا فكرة واحدة : الإنتقام. كان شاهدا على مشاهد تؤجج الرغبة في الإنتقام، مثل مشهد ذلك الشيخ الذي

---

[1] - Rodrigo de Zayas : les Morisques ou le racisme d'Etat, p.254.

هدّه المرض والجوع فقال وهو يترنح، وقبل أن يركب من ميناء بلنسية بأنه يريد أن يركب نحو الحرية قبل أن يموت. ومات قبل أن يركب السفينة وألقي جثمانه في البحر. أو مشهدٌ أثّر في رودريغيز عميق الأثر، لعجوز بلغت زهاء المائة سنة، يحملها أبناؤها، وحين مرت أمام دير دومينيكاني في بلنسية، قيل لها ألم يكن حريّاً بها، أن تعيش في أمان كمسيحية جيدة في إسبانيا ؟ فأجابت «لم أكن أبدا مسيحية، هل بإمكاني أن أصير كذلك الآن وبإمكاني أن أذهب لأعيش بحرية».. ومشاهد أخرى لا تخلو من تأثير، لموريسكيين مساكين يرتمون في الرمل، يُقبِّلون حباته كما لو أنهم يلتصقون بأرضهم وهم يبكون، ولم يكن الحراس ليكترثوا لتوسلاتهم.

حرّك السفر إلى بلاد الإفرنج شجى الترحيل. كنا نحمل، طيلة السفر، من أسْفي إلى لوهافر مأساة الموريسكيين، ككرة نار. وصلنا إلى بلد الإفرنج بقلوب منقبضة.

تبددت مخاوفنا لما أن وصلنا باريس. ليست هناك مدينة أكبر من عاصمة الإفرنج، أو عاصمة الباب العالي أو لشبونة، حسبما يقال، والله أعلم. بنايات عاصمة الإفرنج مبنية بحجر منحوت على علو يصل لأربع طبقات وحتى خمس، والمباني متفحمة من الدخان.. تعج المدينة بالناس الذين يبدون حيوية كبيرة، ينهضون باكرا للعمل ويسهرون حتى ساعات متأخرة. وللحقيقة، هيأنا مرورنا بمدينة روان. تحرر رفاقي الذي كانوا جد متوجسين في البداية. في الأيام الأولى بروان بقوا مسمرين في غرفهم، ولا يستيقظون إلا متأخرين، وكلما التقيت بأحد الموظفين الكبار الإفرنج يضعون علي نفس السؤال «هل سيساعدنا الإفرنج على العودة إلى ديارنا؟» لم تحجب ممتلكاتهم المسلوبة تعلقهم بمسقط رأسهم، ولا أن تؤثر فيهم بمثل الإحساس بالضياع الذي يفتك بهم. فالموريسكيون المساكين، يعتقدون بأن مرسوم الطرد كان إجراء شرطة محدود الأجل. في يوم ما سيراجع الملك فيليب الثالث نفسه ويسمح لرعاياه ذوي العقيدة الإسلامية بأن يعودوا إلى ديارهم. كانوا يحملون معهم مفاتيح دورهم، ويعزمون على إظهارها للمسؤولين الإفرنج حين يعرضون أمامهم الضرر الذي لحقهم. لكن، يا للحسرة، كان إجراء فيليب الثالث نهائيا وغير قابل للمراجعة. لم تكن لي أوهام في هذا الصدد.

كنا جد حزينين لكي نرى الأمور بصفاء. كان الخوف يساورنا ونحن نصل إلى بلاد الإفرنج. هم أيضا مسيحيون مثل القشتاليين، ويمكن أن تكون لهم محاكم تفتيش تقسو على من ترتاب فيه. يمكن أن لا يروا فينا إلا محمديين يتوجب القضاء عليهم. نعم، كان للإفرنج علاقات متباعدة وحذرة، بل خصامية مع القشتاليين، ولكنهم قراصنة إفرنج مَنْ نهب الموريسكيين المُرحّلين. لاشيء بإمكانه أن يقينا عقابا مسيحيا ولو كنا في مهمة ديبلوماسية. وصلنا إلى لوهافر بمنة من الله. لم يكن بمقدورنا التروّل، فقضينا

يوما آخر على متن السفينة. كنا خائفين. من لوهافر أخذنا طريق روان، وبسرعة تبددت مخاوفنا، فالإفرنج مختلفون عن القشتاليين.

بأزيائنا التي تشبه أزياء الإفرنج، وبشرتنا الفاتحة، وعيوننا الزرق، كنا في أروقة ديوانهم نبدو كأننا منهم. مازلت أذكر المتاهة المعقدة لإدارتهم.لا يبدو أن أحدا يملك السلطة. تأرجحنا بين الهيئات الديبلوماسية، وبين هذه وقضاتهم. أُعطي لنا جواز مرور، واسُتقبلنا من طرف موظفين كبار استمعوا بأدب لمحنتنا، وعلمنا بأنهم استقبلوا مبعوثين من الباب العالي من أجل توحيد الصف ضد الإسبان. لكن الإفرنج، على ما يبدو، لم يقرروا بعد الانضمام إلى معسكر ضد الآخر. كانوا يبدون تعاطفا معنا، بكل تأكيد، ونستشف من مواقفهم المواساة، لكن الأمور تتوقف هنا، فبلد الإفرنج نفسه يعيش توترات دينية، وقد تبينت هذا أثناء لقاءاتي مع علمائهم. كانوا يبدون اهتماما بالغا إزاء الشأن الديني. هل علي أن أخط كل ما عشته في بلاد الإفرنج؟ أليس من شأن هذا أن يصرفني عن محنة الموريسكيين، وهي غاية سفرنا لبلاد الإفرنج وبلاد هولندا؟ ورغم ذلك، ففي هذا البلد عشت تجربة فكرية وأخرى عاطفية أثرتا في حياتي. لا يتخذ الإفرنج من الكتابات المقدسة مرجعا لهم بل يستوحون مرجعهم الفكري والإداري من تراث الإغريق والرومان. هذا، ربما، ما يفسر حيويتهم وحزمهم. يُبدون فضولا تجاه كل شيء، ويُخضعون كل ما يسمعون للنقد، ولا يَلفظون شيئا إذا لم يخضع قبليا لمصفاة العقل. بينهم من لا يؤمنون دون أن يفتنوا، وهؤلاء متسامحون مع كل المعتقدات. والحقيقة أن الإفرنج عاشوا انقساما هدَّ كيانهم وجعلهم يهتمون لكل ما له علاقة بالدين. قام راهب ألماني يسمى لوثر بإعادة قراءة لكتبهم المقدسة وبدأت تتسع دائرة أتباعه. كانوا قلة في فرنسا، لكنهم كثر في إنجلترا، وهولندا. رفض هذا الراهب التجسيم، ودعا للزهد، ورفض الكتابات المقدسة المحرَّفة، ورأى أن الإنسان مسؤول عن أفعاله... مثل هذه الأفكار في إسبانيا تعتبر هرطقة وتقود صاحبها إلى محاكم التفتيش إن لم يكن إلى المحرقة.

كان الإفرنج، وهم يتحدثون عن الإسلام، يبحثون عن سند فيه لمناظراتهم ومناقشاتهم. كان الإسلام يثير اهتماما كبيرا لديهم، لكن ينبغي

الإقرار بجهلهم بالإسلام أو بالأحرى بمعرفتهم الجزئية به. قمت بتجربة مع العالم إيتيان أوبير الذي لم يتحرر من أفكاره المسبقة عن الإسلام رغم إتقانه اللغة العربية ومعرفته بالقرآن الكريم نظرا لُمقامه الطويل بالمغرب.

ألم أكن مخطئا من جهتي بأن دفعت بالمناقشة في اتجاه متن العقيدة؟ كانت لدي طريقتي الخاصة في فهم التثليث مطابقة لأصول الإسلام، لكن هل لدي الحق في إبرازها أمام من لا يشاطرني رؤيتي للأمور. من مناقشاتي مع العلماء الإفرنج خرجت بخلاصتين:

- الأولى: بين أناس لهم معتقدات مختلفة يجب تجنب مناقشة الأمور المتعلقة بأركان العقيدة. إنها فعل إيمان لا يَستجيب لقواعد العقل. هذا الفعل ينبغي أن يكون ثمرة مسار من التأمل والتفكير، وإن كان الأمر كذلك، فإنه يسبل على الفرد سكينة كبيرة، ويصير بالمقابل غلا حين يكون مُسلّمة قاعدية، وعلى العالم إذّاك أن يأتمر بما يرِدُ في متن الكتاب المقدس. كم كانت فقيرة رؤية رجال الدين الإسبان الذين كانوا يعتقدون بأنهم يحملون الدين الحق المستوحى من الكتابات المقدسة أو التأويلات الأصولية. لا يختلف ذلك البتّة عن العلماء الذين عرفت في مراكش والذين كانوا يعتقدون بأنهم يملكون الحقيقة المطلقة بمجرد أنهم مسلمون. حين يكون فعل الإيمان ثمرة مسار من التفكير والتأمل، فإنه يدفع للنظر إلى الأشياء والكائنات نظرة نسبية. ينبغي لأركان العقيدة وشعائرها، والتي هي ملازمة لكل ديانة، أن يفضيا في النهاية إلى أخلاق، وبدون هذا لن يكون لأركان العقيدة ولا للشعائر من معنى. الأخلاق هي المكان المشترك أو الميدان الذي تتداخل فيه كل المعتقدات. هذا ما انتهى إليه ابن عربي في بيته الشعري:

أدين بدين الحب أنّى توجهت ركائبه، فالحب ديني وإيماني

- الخلاصة الثانية: ليس العلم بمرادف للمعرفة، كم هم العلماء الذين يعرفون نصوصنا لكنهم غير قادرين على سبر عمقها. فالتأويل الذي يعطونه لشعائرنا ولنصوصنا يبعث على الضحك. كما لو أن الشعيرة غاية في حد ذاتها.

مازلت أذكر عشاء عند قاض كُلِّف بالنظر في تظلمنا، نحن الموروسيكيين ضد القراصنة الإفرنج الذين نهبوا ممتلكاتنا. دعاني عنده، وكان يستضيف شخصيات أخرى. فالإفرنج لهم حب الإطلاع، وقضايا الدين تهمهم. جلستُ على كرسي بجانب طاولة كما هي عادتهم. جالستنا النساء كذلك. اعتنت بي زوجة مضيفي التي كانت تقدم لي الطعام. قدمني المضيف على أنني تركي طرد من بلده. كل معتنق للديانة الإسلامية يعتبر تركيا عندهم.

تلافينا الحديث عن المتن العقدي للإسلام والمسيحية. اقتصر الحديث على بعض الشعائر الإسلامية. كان ينبغي إدراك الغاية القائمة وراء كل شعيرة على حدة، أو عن الأسباب الكامنة وراء تحريم بعض الأمور، فليس هناك من شعيرة لذاتها، أو من تحريم لذاته. بادرني أحد الضيوف الوجهاء بكلام متأنق :

- سيدي العزيز، إنني لا أتكلم، مع كامل الأسف، القشتالية، لكن مضيفنا الكريم بإمكانه ترجمة أقوالي.

أفهمته بأنني أعرف لسان الإفرنج ولا أحسن الحديث به.

- جيد، سيترجم لي مضيفنا أقوالكم. طيب. في ديانتكم، كيف يمكن قول ذلك، المسكونة بالحرب، لا تصومون، ومن شأن هذا، لعمري، أن يساهم في تهذيبكم.

- بلى، إننا نصوم.

- كيف ذلك؟

- نصوم شهرا، شهرا قمريا، من الفجر إلى مغيب الشمس.

- مفيد، لكن أتعلم بأن الصوم عندنا يدوم خمسا وأربعين يوما، أكثر مما عندكم ؟

- كيف ذلك؟ تظاهرت.

- في منتصف النهار نأكل بطريقة بسيطة ومقتصدة، وفي الصباح نكتفي بالقليل.

- ما مبرر ذلك ؟ ففلسفة الصوم في الإسلام تقضي بلجم الشهوة.

- هذا هو مبرره أيضا في المسيحية.

- لكن بأكلكم في منتصف النهار تحصلون على الطاقة. من الناحية الطبية، وكما ذهب إلى ذلك أبقراط وابن سينا، ولكي يحافظ المرء على صحته، عليه أن يأكل في النهار لا الليل، هذا يقويكم بدل أن يضعفكم.

فاجأتهم أقوالي، فتبادلوا بينهم كلاما لم أفهم مغزاه، فهم يتكلمون بسرعة و لم يحرصوا كما فعلوا سابقا على إفهامي. أعاد الضيف الكَرَّة.

- إبّان صومنا لا نأكل اللحم.

- تأكلون لحم الدجاج.

- نأكل ولكن بطريقة مقتصدة.

- هذه ليست مكابدة كبيرة.

ثم حوّل موضوع النقاش.

- قل لي لماذا حرّم نبيكم الخمر؟

- الله هو الذي حرّمها، لا ينطق النبي عن الهوى، فالنعمة التي يمتلكها الكائن هي نعمة العقل، والكحول تَضُرُّ بها.

- ليس حين نشرب باعتدال.

- في الأناجيل حُرّمت الخمر أيضا.

- كيف ذلك؟

- ألم يُذكر في صلاة «أبانا الذي في السموات» « لا تترك الشهوات تغوينا وطهرنا من الشر».

- الغواية ليست هي الثمالة، نشرب باعتدال ونعرف كيف نحافظ على وقارنا.

- الخمر سبيل الغواية. هناك بطبيعة الحال من يتحكمون في أنفسهم، لكن الله لا يُشَرِّع للحالات الاستثنائية.

في الحقيقة، رأيت قضاة وعلماء وموظفين كبارا من الإفرنج يتصفون بالعدل والإخلاص والصدق بدون أن يكونوا ممتثلين لتعاليم دينية ما. ينبغي للتحريم أن يكون مرتكزا على واجب أخلاقي وإلا لن يكون له معنى، يمكن أن يصير حرمانا خالصا.

التفت حماة مضيفي نحوه ليترجم أقوالها، يتعلق الأمر بسؤال موجه إلي:

- يسمح لكم نبيكم بالاقتران بأربع نساء ويمنعكم من الخمر، كيف ذلك؟

فهمت التلميح، فهي تشير إلى أن الخمر يحفز الحواس والرغبات. رددت :

- يبدو أن الذين يشربون، على العكس، يصيرون خائرين.

أثار ردي ضحكا صاخبا لدى المدعوين، تفرّس الموظف الكبير في وجهي كما لو أنه يريد أن ينسحب من النقاش.

- غريب، التقيت العديد من معتنقي ديانتك، لكنهم لا يعرفون شيئا عن عواعد ديننا ولا عن نصوصنا.

- اعلموا، سيدي العزيز، بأنني عشت طفولتي في وسط مسيحي، رددت.

أخذ كأس خمر وابتسم ابتسامة مصطنعة دلالة على وضع نهاية للمناقشة وأعرض عني.

عادت حماة المضيف للهجوم :

- كيف يُسمح لكم في دينكم بالزواج بأكثر من زوجة.

- هذا لا يخص الإسلام وحده، في أزمنة العهد القديم، كان تعدد الزوجات شائعا، والكتاب المقدس يعترف بذلك.

- كانت الأرض غير مأهولة.

- لم تكن فارغة كلية، على الأقل، وفق ما جاء في الكتاب المقدس.

- إنكم لا تُقدِّرون الأضرار التي يمكن أن تلحق بالعائلة.

- ليس تعدد الزوجات قاعدة وإنما استثناء، أو بحسب أحكامنا، رخصة، إذ يحدث أن تصاب المرأة بمرض أو أن تكون عقيما. منع الرجل من اتخاذ زوجة ثانية، في بعض الحالات، يمكن أن تكون له آثار سلبية على الأسرة.

- إنها رخصة، لكنكم تُغْلون في استعمالها، أنتم المحمديون.

- لا يستغلها إلا الأغنياء والحكام وهؤلاء ليسوا كثرا.

كان الجو مرحا، وتتخلل نقاشات الضيوف ضحكات. في الهزيع الأخير من الليل عدت لمكان إقامتي، كان رفاقي ما يزالون مستيقظين ويرطنون بالقشتالية.

حصلت على وثيقة صادرة من حارس الأختام موجهة إلى حاكم مدينة أورليان، Prévôt نظير القائد في بلاد المغرب. بهذه المدينة كان هناك قباطنة نهبوا *ممتلكات الموريسكيين المساكين، ربما هي الفرصة الأخيرة*. ذهب الوفد برمته.

بدا قائد المدينة مضيافا، هيأ لنا دارا قرب قصر كبير حيث يسكن هو وعائلته. القصر متزو عن المدينة وسط الحقول بمدافع موضوعة في باحة بمدخله، كسمة من سمات السلطة. وللترحيب بنا خرجت العائلة والأقارب وخدم الدار لاستقبالنا. وضعوا طاولة في الحديقة. كان الجو لطيفا، وصاحب الدار يتحرق فضولا لرؤية مسلمين، ربما هالهم في دواخلهم لرؤيتهم أناسا يشبهونهم كثيرا، بثيابنا الإفرنجية وعيوننا الزرق وشعرنا الأشقر.

بادرتني فتاة متميزة بزيها وتصرفاتها المرهفة، تبدو في سن الرابعة والعشرين، شعرها أسود فاحم وعيناها كستنائتا اللون وبشرتها تميل للسمرة.

- قيل لي بأنكم تفهمون اللسان الإفرنجي.

- إن تم التحدث به ببطء.

- أين تعلمتموه؟

- أتكلم القشتالية، وتعرّفت على إفرنج كانوا يعملون في بلاط سلطان بلاد المورو التي أتيت منها. معهم تعلمت الفرنساوية.

- أنتم محظوظون لمعرفة بلدان أخرى.

- أنتم محظوظون بالسكن في مكان هادئ وسط الطبيعة.

- لكن مع طول الوقت نصاب بالملل.

واصلتْ:

- ما هو سبب سفركم إلى بلاد الإفرنج؟

- نحن هنا لأن رفاقي طردوا من بلدهم ونهبت ممتلكاتهم من طرف قراصنة إفرنج.

- كيف ذلك؟ طردوا من ديارهم، هل ارتكبوا جرما يستحقون العقوبة عليه؟

- ملوك قشتالة لا يريدون مسلمين ولا يهودا في إسبانيا، بينما هم فيها منذ قرون.

- ماذا يزعجهم في وجود مسلمين ويهود ضمن مواطنيهم ؟

- يدَّعون بأنهم على الدين الحق، والآخرون مخطئون.

- إن كان الآخرون على خطأ فهذا لا يلزم إلا أنفسهم.

- من يعتقد بأنه يعتنق الدين الحق يرى من واجبه فرضه.

- لا معنى لذلك.

- ليست الاعتبارات الدينية إلا تعلة لأهداف مضمرة والتي هي محض مادية وسياسية.

- هذا محزن، كيف علي أن أناديكم؟

- شهاب الدين.

- ماذا قلتم، من الصعب تذكر اسمكم كاملا، سأناديكم بشياب. إسمي أوجيني، أنا قريبة لحاكم المدينة.

مدّت يدها لي، بقيت مسمرا مذهولا، لا يمكنني أن أضع يدي في يد امرأة. فاللمس من عمل الشيطان، ولكن وأمام يدها الممدودة لم يكن بإمكاني الرفض. شددت عليها وأحسست برعشة تعتري راحة يدي. كانت نظرتها الوديعة تخترقني. فهمت وأنا أنظر إليها، بأنني غويت. غفر الله لي!

تعللت بتعب السفر لكي أذهب إلى دار الضيوف والتي أُعدَّت لنا. كنت مضطربا. في الليل، تجنبت دعوة العشاء عند صاحب البيت متذرعا بصداع في الرأس. لم يفهم رفاقي الموريسكيون هذا الانقلاب المفاجئ. بعد العشاء وجّهت لهم موعظة.

- عليكم أن تعلموا بأنكم إن طُردتم من دياركم فلأنكم مسلمون. احرصوا على أن تكونوا جديرين بالعقيدة التي تحملون. ستتعرضون للإغراء والغواية في البلدان المسيحية التي لا تأتم بتعاليمنا. إنهم يشربون الخمر، ونساؤهم يتبرجن سافرات. ستُبتلون. هكذا يريد الله أن يمحص قوة إيمانكم. من يثبت سيثاب على ذلك. وكم سيكون سعيدا من لم ينجر وراء الغواية.

هل يمكنني أن أكذب نفسي؟ فقد كنت أكلمها، وأما رفاقي فقد كانوا ذريعة لذلك. نظروا إلي بذهول مندهشين للتحول المفاجئ في الموقف والخطاب. التحقتُ بغرفتي. فتحت القرآن الكريم وحاولت القراءة، لكن الحروف كانت تتراقص أمام عيني. أغلقت الكتاب المقدس ولم أستطع التركيز. نفخت على الشمعدان وحاولت، سدى، النوم. تراءى لي الوجه الجميل لأوجيني. صدرها، شعرها الجميل... كان الله في عوني ! بدأت أبتهل: «يا غفور يا رحيم، يا قوي يا كريم، يا ودود يا معين، أغفر لي خطيئتي يوم الدين». وكان الشيطان أقوى، فما أن أتوقف عن الدعاء حتى تتراءى لي أوجيني في الخيال. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فقد أظهرها لي الشيطان تمشي معي جنبا لجنب، تقطف الورد، وتصورت نفسي، وأنا تملؤني سعادة غامرة، آخذ يدها وأرفعها إلى شفتي. ليشملني الله بعفوه. نهضت من سريري. فتحت النافذة. كان الليل باردا. أغلقت النافذة. عدت للسرير، أزحت الأغطية، وسمعت وشوشة بلانكو ورودريغيز، أما پلامينو فكان يغط في نوم عميق.. زينت لي نفسي الالتحاق بهم، عمَّ يتكلمون؟ هل يغتابوني؟ هل لاحظوا شيئا ما يفضحني؟ ألم تثر عظتي بعض التعليقات المرحة لديهم؟ كان بإمكاننا في النهاية تلافي هذه المدينة. بعد كل شيء، لم تعد لي أي أوهام عن ممتلكات رفاقي المسروقة. فقد فقدوا أهم من ممتلكاتهم، فقدوا أرضهم، وأنا

بدوري أركض وراء سراب وسأفقد طمأنينتي. تمددت على السرير، استحضرت قصة نبي الله يوسف عليه السلام الذي أغوته امرأة العزيز وصمد. كل مقاومة للغواية اختبار. وقد أثاب الله يوسف عليه السلام على صبره. في الآخرة سوف نحاسب، فيحصي نظرك الشهواني عليك غوايتك، وكذا يدك الآثمة، وشفتاك على القبلة التي قبلت بها امرأة ليست زوجتك. ﴿لا يضل ربي ولا ينسى﴾. (20-51) كما ورد في القرآن الكريم.

أخذتني سِنة من نوم وأفقت على صياح الديكة. نهضت، توضأت وأديت صلاة الفجر. ابتهلت إلى الله لكي يعصمني من إغراء الشهوة و الوقوع في الإثم. ولا أعرف كيف بدأت أتلو دعاء المسيحيين:

«أبانا الذي في السموات. ليتقدس اسمك، ليأت ملكوتك، لتكن مشيئتك، كما في السماء كذلك في الأرض، واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضا للمذنبين إلينا، ولا تدخلنا في تجربة، لكن نجنا من الشرير، بالمسيح يسوع ربنا لأن لك الملك والقوة والمجد إلى الأبد، آمين».

ربِّ، ماذا يحدث لي ؟ ها أنا ذا عرضة لاضطراب كبير يعصف بي. ضعت، لماذا توجهت إلى الله بدعاء من الديانة المسيحية؟

خرجت لأستنشق الهواء النقي. كان صاحب الدار ما يزال نائما، أصوات من هنا وهناك للخدم تمزق الصمت الذي يرين على المكان. عبرت الحديقة. غيرتِ النزهة مزاجي. كنت أهذي، فأوجيني لم تكن إلا يد الشيطان ولن تصمد لواضحة النهار. عدت أدراجي والتحقت بسريري، ونمت نوما عميقا.

أيقظني رودريغيز، بحنق، كانت الساعة العاشرة صباحا.

- Qué passa ؟ قال متعجبا.

- لاشيء. عزيزي رودريغيز، أصابني الأرق.

- مرت الفتاة الإفرنجية باحثة عنك لتقوم بنزهة معها.

- أنا، لماذا أنا؟

- قالت شياب، من غيرك يسمى شياب؟

لم أنبس ببنت شفة. قصدت الصالون، كان بلامينو ممددا فوق أريكة مستغرقا في أحلامه يريد أن يعود للأندلس ولو طرد منها مرة أخرى، وبلانكو بصدد التفكير في إنشاء مشاريع تجارية.. أخذت فنجان قهوة بالحليب وخبزا وجبنا. كنت أحس بأنني مذنب، وخفت أن يركز أحدهم نظره علي، أنا الذي أقدّم لهم دوما الموعظة.

كنت أهم بالالتحاق بغرفتي حين تناهى إلي صوت أوجيني تناديني «شياب، شياب». لم أتمالك انزعاجي حين قال لي رودريغيز:

- هيا، ماذا تنتظر؟ يمكن أن يكون ذلك مفيدا لنا.

خرجت، كانت أوجيني هناك بشعرها مشدودا بطرحة لا تخفيه، شعر المرأة نداء للغواية.

- السيد شياب، أنتم تفرطون في النوم.

- كنت متعبا.

- أردت أن نقوم بنزهة في الحقول لرؤية الأبقار وهي ترعى. إنه لمنظر جميل.

رافقتها. كانت الحقول تمر أمام عيني دون أن أثبت على شيء. لاحظتِ انزعاجي.

- لا تخرجون مع النساء في البلد الذي أتيتم منه، أليس كذلك؟

- نعم ولا.

- كيف نعم ولا؟ وغارت في الضحك. ضاعف ذلك من اضطرابي.

- من النادر أن يخرج رجل مع زوجته، قلت، وحين يفعل، لا يمكنهما السير جنبا لجنب، هو يسير أمامها.

- كيف ذلك؟ لا يمكنهما التحادث.

- لا.

- كيف يمكنهما العيش مجتمعين وهما لا يتحادثان.

- يتحادثان ولكن ليس أمام الناس. لا يمكن لإمرأة أن تتبرج أمام الغرباء.

- كيف؟ ألا ترون النساء؟ وكيف تتزوجون إذن؟

- تتكفل العائلات بالزيجات، لا يمكن لرجل أن يرى امرأته إلا حين تصير زوجته.

انفجرت ضاحكة.

كان بالقرب منا مرعى تحده أشجار حور وترعى فيه أبقار آمنة.

- هنا آتي دائما وحدي لأتأمل.

- تتأملين؟

- لماذا، ألا تتأملون أنتم؟

- لدينا أماكن وأوقات خاصة للتأمل. أنا أتأمل في المسجد.

- لكن بوسعنا أن نتأمل جيدا في الطبيعة. إننا لا نحتاج لمكان العبادة لنفكر في ذواتنا، ولا إلى وقت محدد.

لم أستطع الرد، جلستْ فوق العشب، ولم أعرف كيف أتصرف وانتهيت بالجلوس مثلها. أخدتْ عودا وبدأت في تدويره بين أصابعها.

- ما هو الرب الذي تعبدونه في دينكم؟

- لا يمكننا تعريفه بالاستناد على ديانة معينة، إنه الله، مالك كل شيء، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار. هو الرحمان الرحيم. قلت وأنا أحيل على القرآن الكريم.

- الله هو الرب إذن، وماذا تقولون في صلواتكم؟

- ﴿إهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾

- من هم المغضوب عليهم، ومن هم الضالون؟

ابتلعت ريقي. لم أستطع القول بأن المغضوب عليهم هم اليهود، ولا بأن الضالين هم المسيحيون، كما ذهب لذلك التفسير الفقهي، مما عُلمته على يد بعض علماء مراكش، ولكن لا شيء يثبت بأن الأمر يتعلق باليهود والمسيحيين. ليست إلا تأويلا. ارتجلت جوابا لأوجيني.

- المغضوب عليهم هم أولئك الذين يرفضون الإيمان بالله، والضالون هم الذين يؤمنون تبعا للتقاليد والعادات المكرسة ولكنهم لا يفهمون ما يعنيه الإيمان. إنهم يمتثلون لقواعد دون فهم مغزاها، ولذلك يضلون.

- صحيح ما قلت.

شجعني هذا فواصلت:

- المغضوب عليهم من يرفضون الإيمان بالله وينتهون بالإعتقاد في أهوائهم لذلك فهي تذلهم. أو أنهم يركنون لما يقوده إليه تفكيرهم العقلاني الذي، ومن المؤكد، أنه يكشف لهم سر الحياة ويطري حبهم لذواتهم، لكنه لا يُؤمّن لهم السكينة، والإيمان يرتكز على قاعدة التواضع. لذا يعبر المسلم عن امتنانه لله ويطلب عونه في كل صلاة، فالبعد الإلهي متأصل في الذات الإنسانية، والإنسان يقترب من هذا البعد بالتواضع، هكذا ينتهي الإنسان إلى الصراط المستقيم.

- نفس الشيء عندنا، لكن لماذا هناك حروب عدة بين المحمديين والمسيحيين؟

- لا أعرف، أوجيني. طُرد رفاقي من ديارهم لأنهم يعتنقون نفس الدين ولكن بشكل مختلف، وغادرت مسقط رأسي لأنني اضطهدت.

ما عبرت عنه لأوجيني لم أكن أعيه من قبل، ربما حضورها هو من أوحى لي بذلك. ربما تأتى ذلك من علاقاتي مع مسيحي بلاد الإفرنج. ويعود التحول كذلك لتجربتي في المغرب. كان لدي تصور مثالي جدا للإسلام لأنني كنت أعاني من بطش الكنيسة ومن التدابير الزجرية لمحاكم التفتيش، وكرد فعل وضعت نفسي في حالة مزدوجة مجانبة للصواب في كلتا الحالتين: أن لا أرى في الآخر إلا مثالبه وألا أرى في الإسلام إلا حسناته. كانت نظرة زائغة، وكانت كذلك لأننا كنا مضطهدين، جرحى. ادعى الملك فيليب الثالث ومستشاروه بأن الموريسكيين غير قابلين للإدماج، لكنهم صاروا كذلك لأنهم دُفعوا لاتخاذ موقف دفاعي جامد. في أرض الإسلام، ليس كل شيء جميلا، وفي أرض المسيحية ليس كل شيء خاطئا. فالنظرة الصائبة تتأتى عن طريق العقل، ولكن العقل وحده لا يكفي. هناك الحب خصوصا. حب الآخر، أو الجار لتتأتى معرفته. لا يمكننا معرفة من لا نحب. نحوم حوله كما نحوم حول بناء. نعرف مواد بنائه وأبعاده الهندسية ولكننا نعجز عن معرفة ما يروج فيه والحرارة التي تنضح منه والحميمية التي تنتسج بداخله. لا يمكننا اكتناه الدواخل إلا بواسطة الحب.

- أنت صموت جدا، شياب.

- أتأمل.

- من الآن ؟ وانفجرت ضاحكة.

كنت أفكر في الحقيقة. أسائل نفسي لمعرفة حقيقتي والتي تمنعني العادة، ونزوع المحافظة، والجري وراء شؤون الحياة من رؤيتها. للحقيقة، ليس هناك، مكان خاص للتأمل ولا وقت محدد له.

- هيا نقطف الزهور، شياب.

واصلنا سيرنا بمحاذاة الحقول، كان اليوم جميلا، والشمس ترسل أشعة تبعث الدفء في الجسم وتشحذ الذهن. كانت السعادة تغمرنا.

أي قدر هو قدري ! هربت من العقيدة المسيحية وصَغار من يتصرفون باسمها، وآليت على نفسي أن أقوم بمهمة دحضها. وطّنْت نفسي على أن أقوم بالدفاع عن الإسلام وتعاليمه، وها هي أوجيني تزعزع كل الحجج التي أتسلح بها. صرت أتبين الفروق بين المسيحيين الذين لم أعد أدعوهم بالكفار، وصار لي موقف نقدي إزاء إخواني في الدين.

هل تكون أوجيني يد الشيطان؟ لا يمكن لها إلا أن يكون طريق الرب أو الله، لأن الرب محبة وأوجيني أحد أسراره. ﴿لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾. كما ورد في القرآن الكريم. (2-225)

أوجيني هي الصاعقة التي عصفت بكياني. كانت غايتي في الوجود هو الهروب من المسيحية، وتمجيد الإسلام، لكن كل ذلك تطاير أشلاء. معركتي هي ضد نفسي، وكل وقعة تنتهي بهزيمة، لكنها هزائم تملؤني سعادة، في حين تجعلني انتصاراتي الصغيرة حين أتمكن من رد دعوة لأوجيني أغرق في حزن عميق، وعلى العكس من ذلك، أكون سعيدا حين أستسلم لنداء قلبي. تأخذني أوجيني لنتجول وسط الحقول. أوجيني التي تستفسرني حول الإسلام والمسلمين. أوجيني التي تتحدث عن حياتها الخاصة، عن موت أمها وهي بعدُ طفلة. وعن أبيها الذي مات حين كان عمرها ست عشرة سنة. وكيف لا نَرِقُّ لآلام الإنسان وشجون الكائن البشري، بغض النظر عن دينه وعرقه ولسانه. تنتصب أمامنا الأوهام حين نكون بعيدين عن حقيقة الكائنات والأشياء. كل ما يلفه الأساطير هو حجب للواقع، وأوجيني هي الدليل على بطلان عدة أفكار كنت أجترها. فهي تَرِقُّ لإمرأة من عامة الشعب كما ترق لبقرة أدركها مخاض الوضع. هل علي أن أكرهها لأنها مسيحية؟

كنت أعاني بطبيعة الحال، لأنني متزوج، ولدي أولاد، لا يمكنني أن أهجرهم. فأنا مرتبط برباط مقدس. لكن هل الحب أقل قدسية من الزواج؟ ما عقده الله لا يمكن للإنسان أن يفصمه، يقول المسيحيون، ويقول الله من خلال القرآن الكريم نفس الشيء، فالرجل والمرأة يرتبطان بميثاق غليظ، ميثاق غليظ إزاء الله. أنجبت لي زوجتي لالة تاجة حَكَم، أكبر أولادي، وزينب بنتي المحبوبة، ثم الصغير أحمد الذي ولد لتوه، وبفضلها صار المغرب، البلد الذي تبناني، بلدي، وبفضلها وجدت سكينة الروح.. لكن هل هذا يكفي؟ أليست السعادة مطلبا مشروعا. لم أتمكن أبدا من مناقشة أشياء فكرية مع زوجتي. و لم نتوقف أبدا لقطف وردة أو تأمل مغيب الشمس. لم تترنم لي أبدا زوجتي

لحن أغنية، وأنا أيضا كنت حبيس حياء مزمن. كانت حميميتنا ترزح تحت حجاب ما لا يقال، فضلا عن عدة مواضعات تقودنا أكثر مما نقودها.

كنت أرفض قبول فكرة بأن الشيطان هو الذي بعث لي أوجيني، فالله هو أيضا جميل، وليس الحب إلا بوابة عظمة الروح.

لم تعد العواطف المتأججة التي تسكنني سرا. كنت أرى في وجوه رفاقي ضحكات سخرية.. هاهو الطهراني الذي يدَّعي الصلاح في لظى العاطفة.. كانوا بلا شك يُسرُّون لأنفسهم. سيكونون، من الآن فصاعدا، أقل تكلفا لأنني أشبههم. أنا كائن إنساني ذو مواطن ضعف... كم من جهد بذلوه ليتحاموني، أنا الذي كنت كشاف وعيهم. كان عليهم التصنع والكذب والتستر عن أشياء كثيرة.. لم يعودوا في حاجة لذلك، فذاك الذي يخافون أن يثير وعيهم الشقي هو مثلهم. ربما كان يعرف كيف يخفي مشاعره ليس غير. إنه إنسان مثلهم. إنساني جدا، ولا شيء يجعلنا إنسانيين في النهاية إلا الإقرار بمواطن ضعفنا.

ذات يوم وفي الصالون الصغير للبيت الموضوع رهن إشارتنا، بادرني رودريغيز بفجاجة:

- يجب أن تتعامل بكياسة مع الفتاة، إنها جد خدومة معنا، لكنها تفعل ذلك من أجلك. إننا غرباء هنا، ولا حليف لنا ولا صديق. قم بذلك من باب التضحية.

ذهب بلانكو في نفس الاتجاه :

- استمتع بها، لماذا تَحْرم نفسك؟ ترى جيدا بأنها تنكسر أمامك، الجميع يعرف هذا، وأنت بجديتك تصدها.

اتخذ رودريغيز نبرة مستفزة :

- إن البنت لجد جميلة، ولست متأكدا بأنك ستجد حورية أكثر جمالا منها في الآخرة.

أفرغ پلامينو ما يعتصر قلبه.

- لو كنت مكانك لتزوجتها، واستقررت هنا بما أننا لن نعود للأندلس.

رد رودريغيز بنبرة مستهزئة.

- لكن فقيهنا يخاف الله. ليس لأنه لا يريد، هو خائف. هذا ما في الأمر، مثل فرايلة أديرة إسبانيا. عزيزي شهاب الدين، الرب أو الله هجرنا منذ زمن طويل. إنهما يتشاهان، فهذا وذاك لم يكونا في الأندلس لمنع المذبحة التي تعرضنا لها ولا حمونا من ترحيلنا للمغرب. وهما ليسا بكل تأكيد في بلاد الإفرنج لحرماننا بمحرماقم.

لم أتحمل. هممت بالوقوف حين أمسكني رودريغيز:

- لا تذهب شهاب الدين، نحن نناقشك لأننا نعلم بأنك تلظى. يمكن معاينة ذلك، تأكل قليلا، تبدو ساهما، نريد لك الخير ونريده لأنفسنا أيضا. البنت لطيفة جدا معنا وعائلتها خدومة. لكن لا ينبغي أن نتعلق بالأوهام، فبفضلك نعامَل على هذه الشاكلة. البنت تتقرب منك وأنت تصدها، ومن شأن هذا أن ينقلب علينا. نعم، شهاب الدين، ينبغي أن نبقى متلاحمين ومتضامنين، وينبغي أن نعالج أمورنا بما نستطيع. إننا اقتُلعنا من جذورنا وتعرضنا للنفي.

انضافت مكابداتي العاطفية إلى مكابدات رفاقي. فهمت الآن بأن ما يبدو على أنه خفة في تصرفاقم لم يكن كذلك كما كنت أميل إلى اعتقاد ذلك في السابق. كانوا يستمتعون لكي يضمدوا جراحهم. حتى رودريغيز، لو تأملنا حالته حق التأمل، فتمرده على الله تعبير عن مأساته. إنه صرخة ألم. إنه الدم الذي يسيل من جرح، فالإيمان ينبثق من الإحساس بالهجران، أو لكي

نتكلم مثل المسيحيين من عاطفة شعور الإنسان بأنه محروم من كل عون رباني. حين نحس فجأة بعزلتنا، وبأنه قد تم التخلي عنا، من قِبل من كنا نتعلق به أكثر من أي شيء آخر. تمرد النبي أيوب فعلا على الله. لماذا يجعله يألم ؟ لماذا يختبره هو العبد الودود والكريم... ألم يُدر المسيح رأسه حول الصليب، كما يذهب التأويل المسيحية، ليصيح بألم: «إلهي، إلهي لِم تركتني..». وسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، ألم يكن هو أيضا موضوعا للإحساس بالهجران حين رماه بعض الأوغاد بالحجر في واحة الطائف وتعقبوه بالرجم. هو متعب وجريح، يهده العطش والجوع، وشمس شبه الجزيرة العربية ليست أكثر قسوة من إحساس الظلم الذي يساوره. اتكأ على حائط بستان وأطلق صرخة إنسانية، إنسانية جدا «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس (..) إلى مَن تكِلُني ؟ إلى بعيد يتهجمني ؟»». إحساس الهجران هذا هو قاعدة الإيمان. إنه المرتقى أو الوسيلة التي تقود للإيمان، الإيمان الحقيقي. سمعت وأنا طفل في الأندلس راهبا يقول بأن الخطيئة هي أصل القداسة. وفهمت الآن ما كان يقصده، فالتسامي يمر عبر السقوط. والشك هو طريق التسامح، والإقرار بمواطن ضعف الإنسانية يجعلنا متسامحين. أنا أكثر تسامحا مع رودريغيز ومع أهلي الآن، لأنني، وفي العمق، لست أفضل منهم. لأنني وببساطة لم أخضع للإختبار، وهذا ما يقع الآن. لدي من الآن فصاعدا نظرة أخرى للكائنات والأشياء.

بعد الظهيرة هاته امتحنتني أوجيني وأدى ذلك إلى مضاعفة مكابدتي. كنا نسير بين الحقول حين بادرتني بالسؤال:

- هل أنت متزوج شياب؟

- نعم، أوجيني.

- هل لك أولاد؟

- نعم، ثلاثة.

لم يكن بوسعي الكذب. بل إنني أحسست بالتحرر، وهكذا وبسماعها بأنني متزوج ولدي أطفال، فستعمد للنأي عني، وتوفر بهذا ما عجزت أنا على فعله، وضع نهاية لعلاقة ملتبسة، بل مستحيلة.

أغمضتُ عيني واستنشقت الهواء بعمق. ستنتهي بالإقرار بالأمر. ستُظهر انخذالها، ستبكي، ربما ستعتبرني نذلا لأنني أخفيت عليها ذلك. لو قلت لها ذلك مسبقا لوفرت عليها المعاناة والألم. كنت مخطئا.

- بإمكانكم اتخاذ أكثر من زوجة في دينكم، أليس كذلك؟

يا إلاهي، كيف يمكنني اتخاذ أوجيني زوجة والاستقرار في بلاد الإفرنج ؟ لا يمكن ذلك : شرح كل ما أقوم به وما لا أقوم به، والتخلي عن أبنائي. لا. مرافقتها لي إلى المغرب؟ هذا مستحيل. فلا يتعلق الأمر بنقل أوجيني فقط وإنما تحويل السياق الاجتماعي والثقافي، وهما غير قابلين للتحويل، فلا الحقول، ولا القصر، ولا الأبقار، ولا مناقشاتنا، ولا افتتاننا بالطبيعة قابلين للتحويل. لا توجد أوجيني لذاتها، إنها توجد بما تجسده وبعالمها ورؤيتها، ولا يمكن تحويل ذلك إلى بلد المورو، إلا إذا تم حبس أوجيني في صيوان من الدار، يفصلها عن الزوجة الأخرى، أم أولادي، حجاب، ولا شيء من هذا الحجاب سيظهر للملأ: لا آراؤها، ولا أفكارها، ولا عواطفها. ولا حتى تأوهاتها. ستحمل مني أطفالا آخرين، والذين لن يرثوا من أمهم إلا مكوناتها الجسدية، لأن أوجيني، وفي غضون ذلك، ستتوقف عن الوجود. ستوجد كجسد، جسد سينتهي بالذبول، وبما أنها انتزعت من تربتها فستذوي كوردة. ما العمل ؟ الاستمتاع بها، كما قال رودريغيز، احتضانها، تقبيلها، ممارسة الحب معها. في النهاية، يمكن القيام بذلك في بلاد الإفرنج إن كانت المرأة راضية. الاستمتاع بها ما دمت هناك وحين أذهب لمكان آخر أنسى أوجيني. أنسى مغامرتي معها، وربما أنغمر في مغامرات أخرى؟ منذ ثمانية أشهر تقريبا هجرت أهلي، كيف يمكنني أن أصطبر؟ الله رؤوف بالعباد.

تكلمت في النهاية مع رفاقي، ولكن، ومرة أخرى، كنت أكلم نفسي لمواساتها.

- إن الله يحب المتطهرين.

توقفت للحظة للتأمل.

نعم، قال الله تعالى: المتطهرين. هناك مسار إذن، أو لنقل الأمور بكيفية مختلفة، هناك معركة ضد الشهوة، هذا هو مسار التطهير. ليس هناك كائن طاهر أو في حالة خام. هناك عملية تطهر، ومعركة دائمة ضد الغواية، معركة مستمرة. ماذا تعني الشعائر، في النهاية، إن لم تكن اختبارا لكسب المعركة ضد صنوف الغوايات ؟ ليس للشعائر معنى في ذاتها، إنها تقوم بالتهيئة للأخلاق.

- ماذا يعني هذا؟ قال رودريغيز.

- هذا يعني بأنه ليس في وسعي لمس البنت، إلا إذا كانت زوجتي بحسب الشريعة الإلهية والسنة النبوية.

- لا تتخذها زوجة وإنما استمتع بها، قال بلانكو.

أنشدت بالعربية بيت الإمام البوصيري:

فلا ترُمْ بالمعاصي كسر شهوتها   إن الطعام يُقوّي شهوة النَّهِمِ

- أي بربرة هذه ؟ قال رودريغيز. ألا يمكنك قول ذلك بالقشتالية ؟

ترجمت البيت إلى القشتالية وحاولت التعليق عليه.

- بقدر ما نشرب ماء الإثم بقدر ما نعطش، وبقدر ما نقترب من المحظور بقدرما نوشك أن نقع فيه.

- هل من الإثم أن نحب؟ رد رودريغيز.

- لا، ليس إثما أن نحب، رودريغيز، ولكن الاستمتاع بما ليس لنا إثم.

- لستَ مختلفا عن الفرايلة شهاب الدين، في قرارة نفسك أنت مسيحي، وتعبر عن ذلك بشعائر الإسلام. هل تعتقد أن المسلمين يَحرمون أنفسهم كما تفعل أنت الآن. إنهم يجدون ألف سبب لِيُحِلوا ما يوافق أهواءهم. يتخذون أكثر من زوجة، ويتخذ أثريائهم محظيات، ويدفعون في كل مرة بحيل ليتلافوا المحظور. يستمتعون بالملذات ولا يخفون ذلك. يقيمون حجاب نفاق والتزام يخدعون به الأغرار. إنك مسيحي يجهل نفسه، أو إذا كان هذا يضايقك، إنك صلة الوصل بين الإثنين.

كانت هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيه مثل هذا الكلام.

اعتقدت بأنني ربحت المعركة ضد الشهوة. تعمدت أن أبدو متنائيا عن أوجيني. كنت أعرف بأنني، وطالما لم أستسلم لرغباتي، فسأبقى مالكا لشؤون نفسي. ويكفي أن ألمس الفاكهة المحرمة لكي أرتمي في مهامهة أجهل مآتيها. كنت أعاني وأبتهل إلى الله ليخفف عني مكابداتي. لزمت غرفتي أقرأ القرآن الكريم أو أدعو الله، أستمد منه العون.

ذات يوم، وفي وقت الضحى، نقرت أوجيني بابي. كان رفاقي قد خرجوا لاستنشاق الهواء وتبديد الملل. فتحتُ الباب، وكان الأمر أشبه بكشف أو تجل. كما لو أنني أرى أوجيني لأول مرة: عيناها النجلاوان، شعرها الذي ينسدل على كتفيها، صدرها، صدارها. «ربي، ارحمني، ربي لماذا تمتحنني».

- هكذا إذن لم تعد تريد أن تراني، قالت بنبرة حزينة.

- لا، أبدا، كنت مريضا.

- حينما نكون مرضى آنذاك نحتاج لمن يكون إلى جانبنا.

لم أعرف ما أقول.

- أتريد أن نتمشى قليلا؟ اقترحتْ.

- Claro. حاضر.

لم تستطع كبح ضحكة وهي تراني أخلط القشتالية بالفرنساوية. خرجنا، بقيت صامتا، لكنها وضعت حدا لصمتي بقولها :

- قرأت مؤخرا بأن المحمديين لا يقبلون بالتصوير الفيزيقي للكائن البشري.

ارتحت لاتخاذ الحديث هذا المجرى.

- بالفعل، ليس على الإنسان إعادة إنتاج الصور مخافة أن يقع تحت تأثيرها فيعبدها ويتعلق بها عوض أن يعبد الله ويتعلق به.

- نحن المسيحيون لا نعبد الصورة.

- لقد قيل في الوصايا العشر بأن على الإنسان ألا يقوم بإنجاز الصور.

- أتؤمنون بالوصايا العشر؟

- نؤمن بها. إنها لا توجد مجموعة في سورة من القرآن الكريم، أو إن تريدين، هي متفرقة في عدة سور.

- فيم تُربك الصورة الإيمان؟ الصورة ليست الحقيقة وإنما تحيل عليها.

- هناك خطر استبدال الواقع بالصورة. قلة هم من يتمكنون من التمييز بين الصورة والواقع، فليس التمييز بالملكة المقسمة بالعدل بين الناس.

تجاوزنا المباني ودخلنا الحقول التي لم يكن يحدها أي سياج، بل أخاديد لتحديد البساتين ومنع اللصوص من الدخول إليها. توقفنا هنيهة ثم بدأت أوجيني في النزول. رفعت الحركة تنورتها، سرت قشعريرة في كل بدني وخفق قلبي. غفر الله لي. كان الأمر أقوى مما أستطيع. استسلمت، أو بالأحرى كنت سأستسلم. سآخذها بين يدي في هذا المكان المنعزل. سأقبّلها. سأداعبها. انقدت مع الحركة فانزلق جسدي. وَجَدْتُني ممددا تحت رجليها. قهقهت ومدت لي يدها، أخذتها وارتعش كل بدني. هممت بأخذ يدها إلى فمي حين صاح صوتٌ أجَشٌّ:

- من هناك؟

حدجنا رجل قوي البنية، بصدر مفتوح وصدرية فوق قميص، بنظرة متساءلة. كانت لهجته قوية و لم أتمكن من متابعة المحادثة بينه وبين أوجيني. لم يبد عليه الاستياء لرؤية مشهد حبيبين. أشارت لي أوجيني بصعود الجهة

الأخرى للأخدود. الرجل فلاح كان منشغلا بعمله حين أثار انتباهه صوت انزلاقي. فكر في لصوص، لكنه لّما تبين مشهد حبيبين لا خطر وراءه، دعانا بكرم لمشاطرته الأكل. جلسنا على الأرض أمام ورديات متفتحة. منحنا خبزا وجبنا، وكان يهم بسكب قدح خمر لي من مطرة فرفضت بحركة من يدي، وتدخلت أوجيني لتشرح له بأنني وكمسلم لا يمكنني أن أشرب الخمر. انفجر ضاحكا، وبدت أوجيني سعيدة بأداء دور المترجمة.

- ديانة غريبة هذه التي تحرمكم من مشروب منعش. قال الفلاح لأوجيني التي فسرت لي قوله.

فهمت بأن أوجيني قامت بدور الناطق باسمي وفسرت له مبررات تحريم الخمر في الإسلام. كان الفلاح سعيدا بالعثور على رفقة تخفف عنه عناء يوم عمل شاق. كان يأكل بشهية ويتذوق الخمر وهو يسمع لأقوال أوجيني. لم أعرف كيف أنظر لهذا الفلاح، هل أنظر له كوغد جعلني أخلف لحظة سعادة حميمية مع أوجيني أو بالأحرى منقذ بعثت به يد لا مرئية ليحول بيني وبين الإثم.

استدارت أوجيني نحوي وقالت:

- يقول لك الأخ بولس، الإثم هو ما يخرج من الفم لا ما يدخل فيه.

فقدت بداهتي. خرجنا من باب الحديقة تحت الأنظار العطوفة للفلاح بولس. عدنا إلى البيت. كنت كزهرة خفيفة تحملها الريح. كان الفلاح بولس أداة يد لا مرئية لمنعي من السقوط في الغواية. سأحب أوجيني بطريقة مغايرة. أحبها حبا أبديا وراسخا.

قبل أيام من السفر إلى بوردو، أبديت هدوءا فاجأ رفاقي، فلا شيء كان يرشح من المكابدات التي كنت أعانيها. ليس علي الإتصال بأوجيني جسديا لأحبها. سموت عن الغواية الجسدية إلى شيء روحي ومتعال. ما كان بمقدور حبي الجسدي أن يكون بمنأى عن تقلبات الشهوة، وكان سيخبو مع الوقت. فحُجُبٌ لا تدرك الآن، كانت ستحول بيننا وستنتهي بإفساد ما هو نبيل فينا. أوجيني في قلبي وإلى الأبد. وقد تمكنت بطيبتها، وكرمها، وعظمة روحها من تغيير نظرتي للكائنات والأشياء. كنت في حرب ضد المسيحيين الذين اضطهدوني وسلبوا متاعي وتعقبوني، وها أنا الآن في حرب ضد نفسي، وربما هذه الحرب التي خضتها ضد نفسي هي التي أنقذتني... لا يمكن لمن دفعوني للمنفى أن يمثلوا مجموع المسيحيين ولا يمكنهم أن يجسدوا المسيحية. لقد تبينت بأن القرب الجغرافي، بالنسبة لجماعات دينية تكره بعضها البعض ليس ضمانة للمعرفة المتبادلة، وبالأحرى الاحترام. كنا، مسلمين ومسيحيين، جيران في أرض الأندلس، ولكن العداوة التي كانت تطبع علاقتنا، جعلت كل معرفة متبادلة مستحيلة. إن حبي لأوجيني هو الذي حطم الافكار المسبقة التي تُغشي نظرتي.

فهمت أوجيني ما انتسج بدواخلي. جاءت يومين قبل مغادرتنا ورأسها مشدود بشريط أبيض، وفستانها ينسدل حتى القدمين. لم يكن زيها بريئا، كانت تحمل كتابا في يدها. سرنا كما دأبنا حتى أشجار الحور. جلسنا مستندين على جذع شجرة، أعطتني الكتاب وأشارت علي بقراءته. كان الكتابَ المقدس. أحسست بقشعريرة وتذرعت بنطقي غير السليم.

ــ إنه بالقشتالية، قالت. أحب أن أسمع صوتك وأنت تبتهل باللغة التي تتكلمها بيسر.

أعطتني الكتاب المقدس. فتحته على مزامير داوود، وبدأت في القراءة. (38ـــ من 9 إلى 22)

« يا رب أمامك كل تأوهاتي، وتنهدي ليس بخاف عليك،

قلبي خافق، قوتي خذلتني، ونور عيني انحجب عني،

أحبائي وأصحابي يقفون تجاه جرحي بعيدا، وأقاربي نأوا عني

ومن يتجهمني ينصب لي شركا، والذين يريدون بي شرا يتقولون الأراجيف، ويلهجون بالأكاذيب كل يوم،

وأنا كالأصم لا أسمع، وكالأبكم لا أتكلم،

وأنا مثل إنسان لا يسمع ولا بفمي رد،

لأني لك يار ب صرت، أنت تستجيب يا رب، إلهي.

لأني قلت لئلا يشمتوا بي، أو يعلووا علي إن زلت قدمي،

لأني كدت أن أهوى وجرحي أمامي دوما،

لأني أعترف بذنبي، وأغتم من خطيئتي

وأما أعدائي فأحياء تجبروا، والذين ينغضونني ظلما كثروا

والمجازون عن الخير بشر يقاومنني لأجل اتباعي الصلاح،

لا تتركني يا إلهي، لا تنأ عني.

يا خلاصي.»

كانت أوجيني مطرقة تستمع في خشوع.

مــراكش
1613



في كل صلاة فجر، بجامع زاوية الولي الصالح سيدي الغزواني، أحد أولياء مراكش السبعة الصالحين، كنت أتلو وأعيد آيات الإيلاف من سورة قريش مع مريدي الزاوية لدرء شبح الخوف والجوع. لم تعد الطرق آمنة واللصوص صاروا يقطعونها، والناس يموتون من الجوع، وغلاء المواد الغذائية صار لا يطاق. كان المغرب فريسة لصراع أخوين من أجل الحكم ومزّقا البلاد في حروبهم الدامية. سعى مولاي زيدان أن يبسط نفوذه على المنطقة الشمالية للمغرب مع فاس كعاصمة وانتهى بطرد أخيه المامون عنها. طلب هذا الأخير العون من الإسبان ووعدهم بمنحهم المدينة الشاطئية العرائش مقابل ذلك. واستعاد بدعمهم سلطته على فاس، وكان عليه أن يفي بوعده فبعث أحد قواده ليفرغ العرائش من سكانها فرفضوا ذلك. قتل القائد عددا كبيرا منهم وتم تسليم المدينة للإسبان رغم استنكار العلماء ووجهاء البلد والسكان. يا للعار. تذرع الأمير المامون الذي نصَّب نفسه سلطانا على فاس بأن الإسبان أمسكوا أولاده رهائن لديهم، واشترطوا مقابل تحريرهم تسليمهم العرائش. دُعي العلماء لإصدار فتوى حول قرار الأمير المامون وفق قواعد الشريعة. رفض عدة علماء ممن يخافون الله تبرير قرار الأمير وخرجوا للبادية تلافيا لغضب أمير شديد الغضب، مليء بالحقد. كان عالم تلمسان الكبير، المَقرّي، صاحب النفح الطيب في أخبار الأندلس من الذين رفضوا تزكية قرار الأمير. وأما علماء البلاط فقد دفعوا بأن تحرير المسلمين من يد الكفار مقدم على الأرض وخصوصا إذا تعلق الأمر بأمراء من ذرية الرسول. كان يتم توظيف الدين، هنا وهناك، لتبرير مصالح دنيوية صرف. لطف الله بنا.

استغل داعية صحراوي، أبو محلي، كان يتنقل في فيافي الصحراء، فِعل المامون ودعا المسلمين للتمرد. كان حادَّ الطبع كما كان يتردد. ادعى بأنه المهدي المحاط بالعناية الإلهية. سافر قبل ذلك كثيرا واحتك بعدة تيارات دينية.

نذر نفسه للدعوة منذ شبابه ثم أظهر التصوف عند اتصاله بساكنة السهول.
كان البعض يرى فيه رجلا مؤمنا صادقا، يريد إحقاق الحق بعد الجوْر الذي لحق بالناس، والبعض الآخر، وهم كثر، كانوا يرون فيه مُدَّعيا كاذبا يوظف كل شيء من أجل الحصول على مغانم سياسية، مستغلا في ذلك ذرابة لسانة وغزارة قلمه. كان حَسَن الخطابة، غزير الكتابة، يحرر رسائل تلو الرسائل تتضمن عبارات حاقدة ضد أعدائه الذي قد يكونون حلفاء له فيما قبل. لم يكن ثابتا لا في تحالفاته ولا في أساليبه. لكن الرجل بدأ يعثر على أتباع هنا وهناك. فبفضل حدته، وعلمه، وإتقانه للكتابة كان الناس ينضمون إليه. فالتصدع الذي أصاب المغرب جعل الناس يتعلقون ببصيص الأمل حيثما وجدوه. كان تسليم العرائش للإسبان هي التعلة لأبي محلي لمغادرة تخوم الصحراء، حيث كان يتنقل بين الساورة وبني عباس وجنوب تلمسان. هجر المناطق الصحراوية القاحلة إلى السهول الغنية حيث عثر على أتباع بين السُذّج من الناس. كان يُخلف صدى قويا حيثما يمر. قتل بعضُ مؤيديه الأميرَ المامون قرب تطوان، وتوجه أبو محلي، من الجنوب، نحو سجلماسة في جماعة قليلة من رجاله وتمكن من حاكم مولاي زيدان الأكثر منه عددا وعتادا، فشاعت بين الناس كرامة الرصاص الذي لا يصيب أبا محلي وأتباعه لأن لديه البركة. دخل منطقة درعة بدون قتال وبدأ الاستعدادَ لغزو مراكش. تراجع مولاي زيدان إلى آسفي باحثا عن دعم في منطقة سوس. مسكين مولاي زيدان.. لم يهنأ بلحظة واحدة منذ تنصيبه على العرش. أهو القدر؟ أهو الشؤم؟ أم هو في النهاية تصور للسلطة يجعلها ملكية يتم التصرف فيها كيفما نشاء. مِلكية تقتسم كما يُقتسم إرث أو غَنيمة؟ لقد تمرد أبو محلي على هذه الطريقة في تصور الحكم، مما جعل الناس الذين ألظاهم سياط الظلم ينضمون إليه. يقول في إحدى رسائله يشخص فيها الوضع القائم:

«لقد أظلم القواد، واحترقت الأكباد من أمور جرت على عكس المراد.. لقد خان الزمان، وخذلت الإخوان، وبان العار.. فإن أخذنا بالواجب من الإنكار بانت العداوة ووسم فاعله بالحرمان والقطيعة. وإن سلك طريق المداهنة قيل أنصف وصفا.»

ويقول عن خطر المسيحيين:

«فمالطة بين الغرب ومصر في البحر تأسر الحجاج وتلقفهم كالثعبان، (..) والبحر بأفلاك الكفرة ملئان والبر بسواحله في غاية الذل من عبدة الصلبان.»

ثم يأسى لوضع المسلمين وحال الإسلام :

«.. حتى ظن المشركون أن دين الإسلام ليس بشيء».

كنت أتابع المشهد السياسي وأذود نفسي عن الانخراط فيه. كان أبو محلي على حق في وصفه للوضعية السائدة. هل يكون، كما يدعي، المهدي، الرجل الذي سيتحقق التغيير على يديه، أو هو مدع يوظف الدين لنفس أغراض الآخرين؟ لم يكن لدي جواب، وكانت وضعيتي كمنفي تفرض علي ضرورة لزوم الحياد. ليس علي إلا الاحتكام للزمن أو حكم التاريخ.

في كل مرة أذهب فيها للذكر بالزاوية، أستقي من هنا وهناك الأخبار حول مغامرات هذا الداعية المصور. أسمع بتمعن، لكنني لم أكن سوى ملاحظ، فأنا قبل كل شيء كائن إنساني، مرتبط بعدة وشائج إنسانية واجتماعية ولدي التزامات تجاه أهلي. كنت تحت إمرة السلطان مولاي زيدان والذي كنت مرتبطا به برباط أخلاقي، ولدي أطفال أنا مسؤول عنهم. كنت أشاطر مواطنيَّ وضعهم المضطرب بسلا والذين يكدحون من أجل العيش كيفما اتفق. بعث سفري إلى بلاد الإفرنج وهولندا شعور الانتماء لدي، بل بعث الإحساس بالمسؤولية. لقد تُركوا لحالهم، وزاد تصدع السلطة في المغرب من وضعهم المزري. كان سكان سلا القديمة ينظرون لهم بارتياب وكان يهزؤون من تصرفاتهم، ويسمونهم بما صار كنية «مسيحيو قشتالة»، أو بالتعريض بهم بتعبير «مسلمي الرباط» دون تجشم عناء فهم معاناتهم. أعرف جراحهم لأنني رأيت الدم يسيل في يأسهم وعجزهم وقد طُردوا من ديارهم، وُسلبوا ممتلكاتهم، وتمت ملاحقتهم. كان عليهم أن يعولوا

على أنفسهم وأخذوا ينظمون أنفسهم تبعا لذلك. أسَرَّ لي رودريغيز في طريق العودة من هولندا:

- ألا يُسمح، شهاب الدين، لمن طردوا من ديارهم بأن يدافعوا عن أنفسهم؟

- بالفعل، أخي رودريغيز، سمح الله لمن طردوا من ديارهم بأن يدافعوا عن أنفسهم، فالله لا يحب الظالمين.

- هل هناك من ظلم أكبر من طرد نساء ورجال وأطفال من منازلهم وأراضيهم؟

- إنه ظلم كبير، رودريغيز.

- على من يمكننا أن نعتمد ونُعوِّل؟ المورو يتقاتلون فيما بينهم. والأتراك لم ينجحوا في تأمين شواطئهم، فالإسبان استعمروا وهران.

- ﴿تلك الأيام نداولها بين الناس﴾. (3-140) كما جاء في القرآن الكريم، أجبت.

- شهاب الدين، أنا مسلم لأن ليس لي خيار آخر. رغم أنني لم أصلِّ قط ولا أصوم رمضان. عشت دائما على شاكلة القشتاليين. أحب الخمر ولحم الخنزير، وفجأة أعلنوا بأنني مسلم لكي يطردوني من دياري. رد الفعل والظلم دفعاني لأصير مسلما. ليس لأداء الصلوات الخمس وصوم رمضان، ولكن لأقاتل باسم الإسلام. الإسلام بالنسبة لي راية حرب.

- الحرب الحقيقية هي التي نخوضها ضد أهوائنا.

- هذه لن تغير العالم. لأنها ستمنحنا راحة الضمير، ويستفيد من ذلك المسيحيون في نهاية المطاف. فبماذا سيزعجهم مسلم يؤدي صلواته؟ بخوض المعركة ضد ذواتنا، أو الجهاد الأكبر، هل يمكننا استعادة أرضنا؟

- كنت أفكر مثلك رودريغيز، وانتهيت إلى إدراك بأن الحرب ليست حلا، لأننا أولا لسنا الأقوى، ثم هناك بين المسيحيين من بإمكاننا التفاهم معهم.

ابتسم وواصل :

- إننا لا نخوض الحرب من أجل النصر وإنما من أجل الإيذاء. هناك بين المسيحيين من يمكن أن نعول عليهم في هذا.

كان لرودريغيز في هولندا اتصالات مع عدة أصناف من الناس، تجارا ومغامرين، وأراد أن يستثمر في شعور العداوة الذي يُكنّه الهولنديون للإسبان.

- هناك شيء لا تعرفه شهاب الدين، فالمسيحيون ليسوا مسيحيين بالقدر الذي تعتقد. إنهم يحبون المال ومستعدون لأي شيء من أجل نيله. إنهم لا يكترثون بالاعتبارات الدينية أو غيرها في سبيل ربح المال. هناك تكمن فرصتنا.

- المال والشهوات موطن ضعف.

- ولكن في هذا قوتنا.

لم يضف رودريغيز شيئا آخر، لكن ما جرى بعد ذلك بيّن لي مخططاته التي جعلت عالم المسيحية يرتج منها.

جمع السلطان مولاي زيدان متاعه ما أن تناهت إليه إشاعات تقدم أبي محلي وذهب باحثا عن المدد عند قبائل حاحا. وقد توجس البرتغاليون خيفة من خطاب الداعية الصحراوي المتوعد. وبدأ العديد من الذين كانوا ينتقدون أبا محلي يجدون مبررات لما يقوم به، بل إن بعضهم صار من أشد أنصار رجل تصدى للدفاع عن الإسلام، وإحقاق العدل، وطرد المسيحيين الذين يحتلون موانئ دار الإسلام. رفض آخرون من العلماء والقضاة الانضمام له، وحجتهم أنه «شق عصا الطاعة»، فالفتنة مذمومة ووحدة الأمة مقدمة على كل ما عداها.

دخل أبو محلي مراكش منتصرا، بتواطؤ مع بعض رجال مولاي زيدان. توجه إلى دار المُلك واستقر بها، ودُعي له في صلاة الجمعة في كل مساجد المدينة، و لم يتأخر في ضرب النقود بإسمه. حرص على الظهور بمظاهر السلطان وبدأ باستقبال الوفود الأجنبية. وكان الهولنديون والإنجليز، حريصين على مصالحهم التجارية ومن أكثر المترددين عليه. بدا أن أبا محلي وجد ضالته في دور السلطان واتخذ أم السلطان مولاي زيدان زوجة، وهي إحدى زوجات المنصور. يا لطيف، ألطف بعبادك.

فضَّلت النأي عن وضع مضطرب، فوضعيتي كمنفي كانت تُحتِّم علي الإمتناع عن الانخراط في أوضاع غير مستقرة.. كان مَن عرفوا الرجل يقدمون عنه وصفا متأرجحا. كان مندفعا، وكان يبدو دمثا كذلك. كان زاهدا ولكنه يضعف أمام مغريات السلطة. والكل كان يجمع على أنه لم يكن معتدلا. هل هذه خاصية صحراوية أم أن الأمر يتعلق بضعف التجربة؟ كان يثير استغراب مستمعيه بأقواله البعيدة عن الواقع. فهو يقول للهولنديين والإنجليز ممن يلتقي بهم، بأنه سيغزو إسبانيا وبلاد الإفرنج وإيطاليا.

سرعان ما فقد الناس أوهامهم تجاه داعية راهن كثيرا على الخطابة. فلم تتحسن وضعية مراكش ولا أوضاع أحوازها. ساد انعدام الأمن، وصارت المواد الغذائية نادرة وحين توجد فأثمنتها غالية جدا. وكما يقع في مثل هذه الحالات أبدى السكان لامبالاتهم. بقيت صلاة الجمعة تقام بإسم السلطان الجديد لكن خيبة الأمل دبّت في نفوس الناس.

ذات يوم جاءه زملاء دراسة له من تخوم الصحراء لزيارته وتهنئته، وبقي عجوز من بينهم صامتا. ألح عليه أبو محلي في الكلام. أجاب العجوز «إنك سلطان الآن، ولا كل الحقائق تقال للسلطان».

- يمكنك الكلام، أعطيك الأمان، لن تُمَسَّ بأذى.

- السلطة مثل كرة شراويط، قال العجوز، يجري وراءها الأطفال لاهثين، ويخاطرون بحياتهم وراءها. ولو تمعنوا فيها لما وجدوا إلا الشراويط.

أدرك أبو محلي المراد من القول فعقب :

- أردنا أن نُرتِّق الدين فخرقناه، ثم استعبر.

هل بإمكانه أن يعود القهقرى ويتدارك الأمر؟ كان يبدو ذلك مستحيلا، فالناس فقدوا أوهامهم. من السهل دائما التذرع بالدين للوصول للسلطة، ولكن بعد الوصول إليها يصعب ممارستها بحسب التعاليم الأخلاقية. كان أبو محلي جيدا في دوره كمعارض. كان يثير الحشود ويهيجها بواسطة ذلاقة لسانه. لكن إدارة شؤون الناس يتطلب أكثر من الخطابة. هم في حاجة للأمن والخبز والأمل. وحين لا ينالون ما يتطلعون إليه، فإنهم يختارون مَن بإمكانه أن يوفر لهم الأمن والخبز والأمل. خان أبو محلي الآمال المعقودة عليه، فالناس ظلوا يتعرضون للنهب، وبقي العيش غاليا، والغد لا يبشر بالخير. زحفت جحافل أبو يحيى والتي هي في خدمة مولاي زيدان على مراكش. توقفت في مرحلة من العاصمة بإيمي ن تانوت، قبل أن تعسكر في جبل گيليز

بأحواز مراكش. سار أبو محلي في مقدمة جيشه لملاقاتهم فأصابته الرصاصة الأولى، وانتهى حلمه. لم تكن البركة في الموعد هذه المرة. تفكك جيشه كما تفكك حكمه. فُصل رأسه عن جسده وعلق في أسوار مراكش.

عبّد هذا المندفع، سليل الصحراء، الطريق لدعاة آخرين، ساروا على درب اندفاعه وطلاقة لسانه واستغلوا إخلال الحكام بمسؤولياتهم.

عدت لخدمة مولاي زيدان بعد مقتل أبي محلي. كان الضعف باديا على السلطان الذي أظهر استماتة في التشبث بالحكم، فكان يعيد الكَرَّة كل مرة يزاح فيها عن الحكم. ورغم أنه كان مثار احتجاج دائم، فقد كان على دراية بالرهانات الدولية وبالخطر الذي يمثله الأتراك في الشرق، والإسبان في الشمال، دون أن يمتلك القدرة على التصدي لا لهؤلاء ولا لأولئك. لقد أضر منازعة إخوته له السلطان ومدعين مهدويين بأي دور دولي يمكن أن يقوم به. ورغم ذلك كان يبدو محبا لإطلاع إزاء ما يقع في الضفة الأخرى للبحر الأبيض المتوسط. كان علي أن أترجم له المراسلات الواردة من أمراء قشتالة، وكتب العلم وجغرافية بلاد المسيحية. كان مغرما بالكتب، ومن كل التقلبات التي عرفها حكمه، أثر حادث فيه بالغ الأثر. فقد أوكل السلطان لقنصل بلاد الإفرنج جان فيليب كاستيلان نقل مكتبته من آسفي إلى ميناء أكادير في خليج فونتي. ما أن وصلت السفينة إلى أكادير حتى عاد المركب للبحر بدعوى أن السلطان لم يؤد ثمن النقل، وتعرضت وهي في عرض المحيط لهجمة قراصنة إسبان صادروا مكتبة السلطان. ورغم الضغط الذي مارسه السلطان مولاي زيدان على الإفرنج، فقد رفض الإسبان إعادتها إليه، ومنحوها هدية للرهبان الإسبان الذين أغنوا بها قصر الإيسكوريال. تأثر مولاي زيدان كثيرا لهذا الحادث ورفض فدية الأسرى الإفرنج في إشارة لعدم رضاه عن الإهمال الواضح من طرف المسؤولين الإفرنج.

لم يكن مولاي زيدان في نهاية متاعبه. فما أن عاد للحكم، حتى كان عليه أن يواجه أطماع من أعانه على استعادة حكمه، القائد ابن يحيى. مسكين مولاي زيدان، كان دوما في موقف دفاع. وكل سلطة تكتفي بردود أفعال، لا توحي، مع مرور الزمن بالثقة، ولا يمكنها أن تصمد. الأمر شبيه

بنسيج انحل، أو ذؤابة زيت تخبو أويهدد لسانها بالإنطفاء، كما جاء على لسان ابن خلدون. ساءت الأمور مع استيلاء الإسبان على حوض سبو في سنة 1614 والذي سموه بسان ميغال أولتمار.

سلا الجديدة
1637-1615



ذات يوم طرق حامل البريد، الرّقاص، بابي وأعطاني رسالة وردت علي من سلا. كان يجسد بحالته وثيابه الرثة وسحنته السمراء، وهزاله، وضفيرته التي تتدلى من رأسه، الوهن الذي يوجد عليه المغرب. دعوته للأكل في ممر البيت كما هي العادة ولاحظت شرهه في الإقبال على الطعام. كانت الرسالة مؤرخة لخمسة عشر يوما خلت بينما كان البريد في زمن مولاي أحمد المنصور يستغرق أربعة أيام إلى خمسة من سلا إلى مراكش. فانعدام الأمن أجبر الأسفار على أن تتم في مواكب وتحت الحراسة. أعطيته بعض المال وقرأت الرسالة. إنه رودريغيز يحضني على المجيء بسرعة إلى سلا لأن جوا من التوتر يسري بين الهورناتشيروس والأندلسيين وينبغي الحد منه بأسرع وقت، لأن وحدة الجماعة الموريسكية تتوقف على ذلك. كان رودريغيز يراني صالحا لأداء دور موقظ الوعي ومحيي الضمير نظرا لخطورة الفرقة في هذا الظرف الحاسم. قررت الذهاب بدون حتى إخطار السلطان الذي صار منكفئا على نفسه باستمرار، ولا يتواصل إلا عبر حاجبه أو أحد خدامه. لم يخل السفر من مخاطر، وخصوصا أن سنة جفاف جثمت على الناس وتجعلهم قادرين على القيام بأي شيء من أجل لقمة خبز. كان السفر يتم تحت حراسة ونتجنب السير في الليل وعدم التوقف إلا في النزالات، وهي المحطات التي تتخلل الطريق.

بعد خمسة أيام من السفر المرهق، ورؤية مشاهد الخراب في القرى، وصلت إلى سلا الجديدة المتواجدة في الضفة الجنوبية لأبي رقراق فوق ربوة تشرف على البحر. كانت جنباتها مغروسة بالكروم. وكانت القصبة ملتصقة بقرية في طور البناء شبيهة بقرانا الأندلسية. استضافتني رودريغيز عنده في القرية الجديدة، التي يسكن فيها الأندلسيون بمحاذاة الربوة.

تعج القصبة بالحركة. يهمين عليها النشاط التجاري حتى لكأنها برج بابل بسبب لغات التخاطب بها، من اسبانية وانجليزية وبرتغالية وعربية أندلسية، وهنا وهناك ينبغي التآلف مع خليط من الألسن حيث تمتزج اللغات واللهجات. كل شيء في بيت رودريغيز كان أندلسي الطابع. الدكات الخشبية مغطاة بقماش، وكان ضيق المكان متلائما مع التدبير العقلاني للفضاء. وجدت رودريغيز بصحبة رجل فارع القوام، وقد أثارني الرجل بإطراقه وقلة كلامه. كان له مركب صغير للصيد، لكنه كان مشدودا أكثر، مثل رودريغيز لمآل الجماعة الأندلسية، اسمه فنّيش ويسكن سلا القديمة.

يومان بعد وصولي، وبعد تناول وجبة الغذاء استفسرني رودريغيز بحضور فنيش عن الوضع في المغرب.

– منذ واقعة أبي محلي، ضعف السلطان، قلت.

– لم يقم برد فعل تجاه الإنزال الإسباني بالمعمورة القريبة منا، أضاف رودريغيز.

– لا يمتلك الوسائل، أجبت.

– ولماذا يمتصنا إذن؟ قاطعنا فنيش.

– ماذا ؟ تساءلت.

ـــ علينا أن ندفع له عشرة في المائة من مداخيلنا، أجاب فنيش.

–كنا نؤدي إتاوة للنبلاء الإسبان لأنهم، وعلى ما يُفترض، كانوا يحموننا، ثم إننا كنا في بلدنا، أضاف رودريغيز.

بقيت صامتا، لا أعرف ماذا أقول، فهم رودريغيز حرجي.

– إسمع شهاب الدين، ارتبطنا بقرصان هولندي، يان يانس وأقنعناه بالعمل هنا، استقر في سلا الجديدة ويقوم بعمل مربح جدا، فالقرصنة بالنسبة له أداة لتكوين الثروة، أما بالنسبة لنا فهي سلاح معركة. تتطلب القرصنة وسائل كبيرة و معرفة ودربة دقيقين، وخصوصا بالنسبة للمراكب الشراعية

التي لا نمتلكها اليوم. لا يمكننا أن نعول إلا على أنفسنا، شهاب الدين، وفكرنا فيك. وزاد رودريغيز، لأننا نرغب في صيانة وحدة الجماعة، هناك شقاق بين الهورناشيروس والأندلسيين، ودورك هو تقوية شعور الانتماء المشترك. ينبغي أن نؤمّن قواعدنا الخلفية، فلن يفيدنا في شيء ارتياد المحيطات وترك جماعتنا منقسمة على نفسها.

– كيف إذن؟

– مثل كل الفرايلة. ستؤطر الناس بواسطة الدين، ستلقي خطبا تقوي فكرة الجهاد، ينبغي ألا يقرنوا القرصنة باللصوصية، وإنما، على العكس، بمعركة نبيلة لأناس طردوا من ديارهم، أناس يرفعون راية الإسلام، ضد الكفار... إذا لم يمتلك هذا الإحساس الناس فسنخاطر بوجود انقسامات بين المحظوظين والمعدمين. ينبغي أن تكون هناك قضية مشتركة تتعالى على المصالح الخاصة. لن نقترف خطأ القشتاليين الذين عمّدوا الموريسكيين دون أن يعلموهم.

– لكن ؟

– لكن ماذا ؟ قاطعني رودريغيز بحدة.

– إنها طريقة لاستعمال الدين من أجل أهداف سياسية.

– ليكن ذلك، لن نكون لا الأولين ولا الأخيرين الذين يفعلون ذلك، ينبغي معرفة كيفية استعماله. لو كنت متأكدا بأن دينا آخر يمكنه أن يقوي حس الانتماء لفعلت..

انتبه فنيش إلى فظاظة أقوال رودريغيز، فخففها :

– أخي شهاب الدين، لأننا مسلمون أو يفترض أننا كذلك، طُردنا من مسقط رأسنا، أليس كذلك؟ ينبغي تربية أهلنا في هذا الاتجاه، وإلاّ سيضيعون، فالنار تستعر بين الهورناتشروس الميسورين والأندلسيين الذين انتزعت كل ممتلكاتهم. سيكون الانقسام داخل الجماعة قاتلا.

- أنا مستعد لمساعدة جماعتي، في سبيل الله، رددت بصيغة فضفاضة.

- هذا جيد، أجاب رودريغيز، لا يمكننا أن نتهاون عن أهمية التنظيم والتربية. إذا لم نتولَّ أمورنا بأنفسنا فسننتهي مثل المورو مشتتين وبلا نظام... إن لم يكن لدينا طموح تغييرهم، فعلى الأقل لا نجعلهم يغيروننا.

- نحن أيضا مسلمون مثل المورو. رددت.

- بشكل مختلف.

وأضاف :

- أتعرف شهاب الدين، الانتقام الجيد من العدو يتمثل في سلبه أسلحته. ينبغي أن نتصرف ككنيسة الإسبان، وبشكل أفضل.

خرجنا للقيام بجولة في القصبة، صعدنا الأزقة نحو ساحة تشرف على المحيط. رأيت بلامينو مسمرا على حائط يرنو إلى البحر. كان يعتمر طربوشا على الطريقة التركية يتزل حتى الأذنين. بادرته بالكلام، لكنه لم يتعرف علي. غمغم كلمات بالقشتالية ثم بدأ يكلم نفسه. انقبض قلبي. فقد بلا مينو عقله، لم يبرأ من صدمة فقدان مسقط رأسه.

نزلنا نحو مُسطح يؤدي إلى مكان رسو السفن، باب الواد. كانت فوهات المدافع مصوبة نحو البحر، رأيت أشكالا من السفن راسية في مصب النهر، مراكب بثلاث صوار في الغالب الأعم وكرافيل تنتظر إنزال حمولتها.

عدنا أدراجنا نحو المدخل الرئيسي للقصبة حيث ينعقد الديوان. قبل الممر المؤدي إلى بوابة القصبة تنتصب مقهى وهي مكان لإبرام الصفقات من جهة، ومن جهة أخرى فضاء للترويح عن النفس. كانت معتَّمة وليس لها سوى كوة جهة البحر، وتنبعث منها رائحة نتنة ممتزجة بدخان التبغ والكيف، وتضيع المناقشات الحادة التي تجري بها وسط جلبة لا توصف. وجدنا رجلا جالسا فوق دكة، بقامته الطويلة وبنيته القوية ولحيته الكثة وبشرته البيضاء، إنه، مثلما تبينت، القرصان يان يانس. قدّمه لي فنيش:

– أقدم لك القائد موراطو.

وقف، جذلان، وأخذ يدي مُسَلِّما علي بقوة، وغمغم خليطا مزج فيه الإسبانية والعربية والتركية. انبعثت من فمه رائحة كحول قوية. قام فنيش بدور المترجم :

– يقول لك سننتقم من الإسبان. سنكيل لهم ضربات موجعة.

وأضاف :

– ستتكلف براحة أرواح هذه الخراف المسكينة بينما نمخر نحن عباب المحيط.

ضحك، ثم وهو يرى جمود قسمات وجهي تجاه أقواله، نطق الشهادة باللغة العربية :

– أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله..

ثم التفت نحو فنيش ليواصل الترجمة :

– يقول لك بأنه هو أيضا مسلم، وإنه دخل الإسلام بفضل قراصنة الجزائر البربرين. كان له صديق تركي اسمه مراد. ولصلته به سمى نفسه على اسمه، غير أن الناس في القصبة ينطقونه على الطريقة الموريسكية موراطو وأحيانا مولاطو.

وعلى سبيل الختم، ذكر فنيش حدثا لا يبدو جزئية.

– القائد موراطو متزوج من موريسكية.

ندمت لحظتئذ على المجيء، فالجو هنا لم يعجبني، والشكل الذي صار عليه رفاقي القدامى أحبطني، لكن هل هذا حجة كافية لأتركهم وشأنهم؟ ألا تُعْرَف قوة الداعية في صعوبة رسالته ؟ ينبغي أن أضحي من أجل هذه الأرواح المسكينة، ومن أجل أطفالهم، وأحفادهم. ليست هناك عودة، والأفضل أن تصير هذه الأرواح مسلمة بحق، لا تهم أسباب رودريغيز، وفنيش أو الرايس موراطو ! هم في حاجة لغطاء ديني لعملهم. هناك، بكل تأكيد،

حس انتقام يحركهم، ولكن أليس في ذلك تعبير عن هذه اللعنة التي أصابتنا، ومازالت تصيبنا، لعنة أن نكون مرتزقة وأحيانا بدون أن نعي ذلك؟

تبادلوا أقوالا لم أفهم منها شيئا. كان القائد موراطو يبدي ثقة ونفوذا واضحين. وحينما همّ بمغادرة المكان وقف الجميع. أمسك يدي بقوة وهو يقول لي على سبيل التحية :

- سلام، تَشَكُّرْ أفندم...

مازجا العربية والتركية. كانت تلك سبيله ليقول لي بأنه إلى جانب معسكر المسلمين. كنت متعبا. أخذني رودريغيز إلى حجرة معدة لي، بادرته:

- أخي روديس، مازالت عائلتي في مراكش.

هكذا كان يسمى في القصبة، بتحوير طال اسمه وعدة أسماء موريسكية.

- لا تشغل بالك، سنتكفل بالأمر، قال لي، وأضاف، ستستقر هنا نهائيا.

أبدت الجماعة الصغيرة المُرَحَّلة من وطنها هِمَّة ونشاطا. كانت القصبة مليئة بالهورناشيروس والقراصنة الأثرياء، أما المدينة الملاصقة لها، والتي أصبحت تعرف ب لْمدينة، فكانت تضم الأندلسيين المعدمين، وهم حرفيون في الغالب. كان منهم الذين يجففون الملاحات الضرورية لمهنة الدباغة، وكان الصلصال يمنح المادة الأولية للخزفيين... يحيط سور بالمدينة من المكان المعروف ب لْبحيرة، وهي بساتين تتخللها بعض مساكن اليهود، حتى باب الحد الذي يحد المدينة وينتهي في غيضة تسمى ب الغوية. كان هذا السور يحفظ للمدينة طابعها المغلق، وقد بني من طرف بلانكو الذي تم تحوير اسمه إلى برانكو. وقد اشتغل فيه بلا كلل حتى استوى منشأة جبارة وهائلة. استعاد برانكو مهنته التي كان يزاولها في الأندلس وانكب عليها بفرح. ورغم المجهود الجسدي فقد ازداد وزنه. أصبح منتظما في أداء صلاة الجمعة، وأبدى معرفة لا بأس بها بالإسلام واللغة العربية، كان يجهد نفسه في نطق الحروف الحلقية بما لا يخلو من تكلف وجهد. وعمد روديس، بسلطته الأخلاقية، إلى الحد من الخلافات داخل الجماعة الأندلسية. وقد أخذ الهورناشيروس الأثرياء يتوجسون خيفة من هذا القائد الشاب المقدام والجريء والذي يفيض حيوية. وفي الضفة الأخرى للنهر تتطامن المدينة الصغيرة سلا — القديمة، بنمط عيشها المختلف عن نمط القادمين الجدد، رغم أن سكانها أنفسهم قدموا من الأندلس. كانوا ملاكي أراضي ورجال علم. كانت العلاقة بين العدوتين غير مستقرة. فعوض شعور الإحتضان التلقائي والصادق الذي طبع العلاقة باديء الأمر، تحول الإحساس إلى حذر تجاه سكان لْمدينة الذين كان يُنظر إليهم بأنهم أجلاف وأفظاظ، ومسلمون سيئون خصوصا، والأدهي أنهم مُسلَّحون لا يتورعون في استعمال السلاح. حرص روديس على امتصاص الخلافات وبناء هوية مشتركة للمكونات الثلاثة، في مواجهة الإسبان المسؤولين عن احتثاثهم من أرضهم، من جهة، ومن جهة أخرى ضد الأهالي المورو، سواء

أكانوا عربا أو أمازيغ والذين يمكنهم أن يُذوّبوا خصوصيتهم ويعرضونها للضياع. لجأ روديس إلى الديبلوماسية، دون التخلي عن الأساليب الصارمة لفرض النظام. فقطع الصلة مع سلطة السلطان وممثله المحلي. كانت تلك الخطوة الأولى لوضع لبنات هوية مميزة وحكم ذاتي. وقد هرب بعض الموريسكيين الذين تم تجنيدهم في حملة عقابية للسلطان بدرعة على تخوم الصحراء، واحتفظوا من هذه التجربة بشعور الأسى والإحباط، فاستغل روديس ذلك لشحذ طبيعة الاختلاف مع المورو، والتخلص من حكم السلطان. كان يرفض أن تُسخَّر الجماعة الموريسيكية من أي كان، في حروب ليست حروبها. ولربما كان يداعبه حلم إعادة ملحمة الأندلس في بلاد البربر. كيف لواقع معقد جدا أن يخضع لمخططاته؟ كان يفيض حيوية وله القدرة على التأثير في الشباب، وتلك إحدى نقاط قوته، لكنه كانت له مواطن ضعف: فالهورناشيروس الأثرياء ينظرون إليه بعين الريبة، والمحافظون الأندلسيون لا يحبذون اندفاعه وعدم تقيده بالأعراف..

كنت بيدقا في لعبته. فلتأكيد شعور الانتماء، يكون الدين ضروريا. وهنا يتوقف ارتباط روديس بالإسلام. وفي هذا تناقض. كيف يمكن تقديم إسلام بحسب الهوى ؟ كيف يمكن الارتباط به وإدارة الظهر إلى محيطنا الذي يمثله السلطان من جهة، ورعاياه المورو من جهة أخرى؟ لكن روديس لم يكن يكترث بالتناقضات. كان برغماتيا.

تعرضت لانتقاداته ذات مرة. لم يكن يحب أن أعرض بالشرح والتأويل للمحبة في الإسلام ضمن خطبي. قال لي :

- يدعو المسيح للمحبة ولم يمنع هذا المسيحيين من استعمال كل صنوف العنف ضدنا. بينما الإسلام منسجم في هذا مع نفسه.

- الإسلام محبة، رددت.

- ربما، لكن ما نحتاجه في هذه اللحظة هو سلاح من أجل المعركة. لا تدفعْ شعبنا نحو الانهزامية والقدرية.

كان مرتبطا بفنيش الذي بدأت هالته تنبلج في الجماعة الصغيرة لسلا القديمة. كان كل من روديس وفنيش يكملان بعضهما البعض. فبقدر ما كان روديس مندفعا كان فنيش رابط الجأش. كانا يجسدان البديل للنظام القائم وأمل المحرومين في الجماعة بمكوناتها الثلاثة.

كان بيتي الذي وضعه روديس رهن إشارتي بالقصبة غير بعيد عن المسجد الذي يعود للموحدين. كنت أصلي بالناس في مسجد بالمدينة أطلق عليه روديس اسم بلامينو. أقضي الصباح في تعليم القرآن الكريم للأطفال الذين كانت تغريهم الحركة والعمل رغم صغر سنهم، فقد أخذوا عن آبائهم حب المغامرة. فمدينة سلا الجديدة تعيش على التجارة والقرصنة، وهي مرتبطة مع العالم بواسطة البحر. وكانت علاقاتها مع الجزائر وتونس وطرابلس أوثق مما كانت علاقاتها مع فاس أومراكش. أما تركيبة المدينة فمبرقشة، ويساهم في ذلك تواجد المغامرين والمرتدين عن دينهم كما الأسرى.

كانت النخاسة المتأتية عن القرصنة تجارة مربحة أو بحسب تعبير روديس، فهي الذهب. فكل إنزال تسبقه طلقات مدفع تعلن القبض على مجموعة من الأسرى، فيحتشد الفضوليون والمتسكعون لرؤية غنائم اليوم. كانت المشاهد الأبلغ أثرا لسكان سلا الجديدة .والتي تهزهم هزا، مشاهدة الأسرى وأيديهم مكبلة ورؤوسهم منكسة يسيرون نحو سراديب المطمورات حيث يساقون للسجن ولا يخرجون من هذه الأقبية إلاّ حين يتفضل محسن ما من بعض الطوائف المسيحية بالتقدم لشرائهم أو حين يخرج الرجال منهم للقيام بالأشغال الشاقة، بل هناك أحيانا أطفال يُفصلون عن آبائهم. ويمكن بيع النساء كإماء تحت الأنظار العاجزة لأزواجهن. كانت النساء الموريسكيات ترسلن زغاريد من نوافذ بيوتهن وهن يشاهدن الأسرى في الزقاق الرئيسي للقصبة. وتلك طريقتهن في الانتقام من المهانة التي تعرضن لها في الأندلس.

ـــ إن هذا غير إنساني، حدثت روديس ذات مرة في الأمر. حدجني بنظرة، محتدا :

- يقومون بأفظع من هذا في الجهة الأخرى.

- لكن روديس، هؤلاء الذين تأسرونهم لم يفعلوا شيئا. كيف يؤاخذون على ذنوب لم يقترفوها.

- في هذا المستوى لا نكترث بمعرفة من هو مذنب أم لا، وإلا فسنكبح عِزمتنا ونستسلم. ينبغي أن يحسوا بالألم الذي نعاني منه.

- هذا عمل لا إنساني وظلم.

- وهل هو إنساني وعادل ما تعرضنا له ؟ لقد خنقوا بالدخان طفليَّ وزوجتي المختبئين في مغارة. هيا يا شهاب الدين، تريد أن أن تبتليهم بالمحبة والتوادد؟ كنا معهم وكنا نخضع لكل شروطهم، نؤدي الضرائب، نشتغل لحساب نبلائهم الجشعين، تحولنا إلى الدين المسيحي كما أراد الفرايلة والشرطة. وهل أنقدنا كل هذا ؟ لقد تم التنكيل بنا، وألقي بنا نحو المجهول. لا يا شهاب الدين، لم يكن هذا خيارنا وإنما دفعنا إليه. ينبغي أن يتحملوا مسؤولية ما آلت إليه الأمور.

- هذا بلا مخرج، روديس، إنهم الأقوياء.

- أعرف، شهاب الدين. إننا نقوم بهذا من أجل التاريخ، لكي لا يخجل حفدتنا منا، ليعرفوا بأننا خضنا حربا بطولية لكي لا نُرحَّل من ديارنا. ليعرفوا بأننا لم نستسلم أمام الظلم، وبهذا يمكننا أن ننقل لهم المشعل. يزعم أصدقاؤك من المورو بأننا فرَّطنا في الأندلس بسبب انحلال أخلاقنا. ماذا فعلوا من أجلنا ؟ في الوقت الذي كنا في حاجة إليهم، أداروا أسلحتهم تجاه بعضهم البعض. وحين رُمي بنا أسرعوا في استعمالنا في تناحرهم الداخلي. من أجل التاريخ نخوض حربنا.

نكّست رأسي غير قادر على إقرار روديس في منطقه. التفت نحوي وقال لي كلاما رجّني :

- أتعرف شهاب الدين، أحبك كثيرا، ليس لأنك مسلم وفقيه. أنا لا أعير كبير أمر لهذا. أحبك كثيرا لأنك تحمل جرحنا وستعرف كيف تحافظ

على الجذوة، بشهادتك على ما تعرضنا له من مآسي. في يوم ما لن نكون من هذا العالم، وينبغي أن ينبري أحد للشهادة عنا. ومن غيرك يمكنه أن يفعل ذلك، بما أنك منا وتحمل جرحنا ولو أنك انسحبت من الساحة، وربما لأنك انسحبت من الساحة.

ران صمت ثقيل علينا. لم أعرف ماذا أقول:

- أتعرف كاراسكو؟ ارتجلت.

- النّحار ؟ سارع روديس بالرد.

- جاء لملاقتي بالمسجد.

- في المسجد ؟ يهودي في المسجد؟

- اعتنق الإسلام.

قهقه روديس وأضاف :

- هل بقي أندلسيا على الأقل؟ هذا هو المهم. يهودي أو مسلم، هذا لا يغير شيئا. أو حتى مسيحي لو تركونا في ديارنا. كاراسكو تعرض للاضطهاد مثلنا.

- وعدني ببناء مسجد بالمدينة.

- رحماك يا شهاب الدين، بهذا الإيقاع سنصبح مثل المورو. الدين مثل الملح في الطعام، ينبغي أن يكون بمقدار.

يجبر فصل الشتاء أنشطة الميناء على التوقف، ويدفع البحر الهائج القراصنة على البيات الشتوي في القصبة متعاطين لمتع ليلية. كنت أعاني من ذلك لأن بيتي لم يكن بعيدا عن مقهى يتحول في الليل إلى مرتع للانحلال وما يستتبع ذلك من جلسات سكر وشجار ومصالحات. عند الفجر وفي طريقي إلى مسجد پالامينو بالمدينة حيث أصلي بالناس، يحدث أن أصادف بعض السكارى المتأخرين، الذين يرطنون بالإسبانية والبرتغالية والإنجليزية والعربية والتركية.. أحني رأسي وأدعو الله أن يهديهم إلى الصراط المستقيم.

ذات يوم وأنا عائد من الصلاة، غير بعيد عن المكان المسمى بلوبيرا والذي يجاور ضريح الولي الصالح سيد اليابوري، وهو نفسه ينحدر من المدينة البرتغالية إيفورا، نطق سكير اسمي بلهجة أندلسية:

– شهاب، أخاي ديالي، ألا تعرفني، خاي ديالي، تعال لأعانقك.

لم يكن النهار قد انجلى بعد. أسرعت الخطى متوجسا من الأسوء، فالقراصنة مسلحون، وأيديهم على الزناد دائما، والأنكى من هذا، فهم يحملون مطاوي ولا يترددون في استعمالها.

– لا تخف شهاب الدين.

كان صوت الغريب مبحوحا بفعل التبغ وبرودة الصباح. واصل الكلام بالبرتغالية فأغذذت السير، لكنه ارتمى علي وضمني إليه. كانت رائحة نفاذة تنبعث منه رائحة الصامت، وهو شراب كحولي يصنع من طرف المورسكيين بسلا الجديدة. قبلني من عنقي ورأسي، وفك عمامتي. إنه دوغا.

– الله أكبر، صحت، دوغا، مازلت حيا.

– نعم، أخاي ديالي، أنا مسرور لرؤيتك شهاب. ها أنت ترى، أنا في القصبة، لأنتقم للموريسكيين من الإسبان الملاعين.

كان ذلك بدون شك تأثير الكحول. لم يُبد دوغا قط ارتباطا بالإسلام.

– إنك تُعرّض نفسك للبرد يا دوغا، استرسلت.

– عبد الهادي من فضلك، أنا جندي تحت راية الإسلام.

لم أستطع ضبط ضحكة صدرت مني ولا التحكم في فضولي.

– كيف إذن، هل هداك الله إلى صراطه المستقيم ؟

– نعم، أخاي ديالي، لن أغفر للإسبان طردهم لنا من المهدية. الأوغاد.

– أنت إذن بحار؟

– في خدمة الإسلام، أشتغل مع القائد هاريسون، صاحب سفينة، انجليزي وصديق للإسلام.

– أو عدو للإسبان ؟

– معك حق شهاب الدين، الأمر سيان.

– وكيف لم نلتق أبدا هنا في القصبة من قبل؟

– آه شهاب، أنا مثل جميع القراصنة أعيش في الليل وأنت في النهار. فصل الشتاء قاس، يرين علينا فيه الملل. بعد أيام سنمخر عباب المحيطات. مرحى بالربيع. سأجلب لك كل ما تريد، أثواب، أقمشة قطنية، وأدوات منزلية. فابور[1] .

دعاه صوت نسوي بلكنة عربية محلية قوية :

---

[1]- مجانا باللسان الدارج المغربي، وأصل الكلمة اسباني.

- أنّا، دوغا، تعال.

احتد ضد البنت التي يبدو أنها صاحبته.

- كلبة، وغدة، ألا تخجلي من التبرج أمام الفقيه... أغربي عن وجهي.

التفت نحوي :

- إلى أين تريد أن أرافقك، شهاب؟

- لا تزعج نفسك عبد الهادي، أنا لا أسكن بعيدا.

- أقسم بالله أن أرافقك حتى بيتك. واهْ. وأقسم بالله أن أزورك قبل ركوب البحر لرؤيتك وللحصول على مباركتك قبل مباركة الولي الصالح سيد اليابوري. خاي ديالي، أقسم بالله. لقد افتقدتك، والله. في النهاية لم أسافر للبرازيل، فبرتغاليو البريجة لجحون، ورغم أنني كنت مسلما سيئا، فإنني في أعينهم مسلم كباقي المسلمين، والأدهى من ذلك هو أنني برتغالي الأصل، أتعرف سبب كل ذلك يا شهاب..

كانت لديه الرغبة في الكلام، فتركته يواصل:

- ... بسبب هذا الداعية المجنون، الصحراوي، نسيت اسمه، محلي أو شيئا من هذا القبيل. لقد هدد بطرد كل المسيحيين. واعتبرنا المسيحيون كلنا على شاكلته، فأغلقوا وكالاتهم التجارية. بالمهدية كنا نطاردهم ونتعقب سفنهم... السفن الذاهبة إلى الكناري وأمريكا... كانت غنائم رائعة. أخوك جمع الكثير من النقود، لكن الأوغاد طردونا، لذا انتشرنا مجددا هنا في سلا الجديدة. بالمهدية كان الوضع أفضل، يسهل الإبحار في مصب سبو، وهناك غابة نتخذها بمثابة قاعدة الاحتماء. هنا، التنافس شرس بين الأتراك والإنجليز والهولنديين والأندلسيين الذين لم ينجحوا في التفاهم فيما بينهم.. لكنني لا أشتكي. هذا أفضل من بلاط السلطان حيث كنت لا أقوم بأي شيء.

توقفت أمام ساحة سوق الغزل، بين القصبة ولْمدينة. لم ينتبه دوغا لتوقفي. سألني :

- هل لديك أخبار عن أنتاتي ؟

- لا شيء.

- يا له من رجل ! لعله على رأس بعض القبائل يقود تمردا.

- أتعتقد ذلك؟

- الأمازيغ لا يحسنون إلا هذا. كان أنتاتي رجل عمل أراد السلطان أن يبقيه تحت وصايته، لذا الآن، وهو حر، فسيكون على رأس حركة تمرد. هذا في طبعهم. من حسن الحظ أن الأمازيغيين مشتتون. أتتصور القوة التي كان سيشكلونها بتروعهم الحربي وعددهم ؟

- لا تزعج نفسك، لقد أوشكت على الوصول دو... عفوا عبد الهادي، أنت في حاجة للراحة.

- والله، سآتي لزيارتك، خاي ديالي. تعال لأقبلك.

أعادت الفتاة الكَرّة.

- دوغا أعطيني مفتاح الصقلبية[1]. أنا أتجمد من البرد.

استدار وهو يغمغم شتائم للفتاة.

---

[1]- الصقلبية هي الغرفة التي كانت تخصص للصقالبة، وكانوا أغلبهم من صغار المستخدمين في بيوتات الأتراك، وانتقلت الكلمة إلى المغرب بمعنى غرفة الخدم، أو أية غرفة صغيرة.

منذ ذلك اليوم دأبت على الالتقاء بدوغا حتى فصل الربيع حيث تستأنف أنشطة الميناء. يشرع البحارة في إصلاح السفن وصباغتها وترتيب الصواري والأشرعة وجمع المؤن. كان اللقاء بدوغا ممتعا فقد كان حكمي عليه خاطئا. إنه يفيض أحاسيس مرهفة، لكن المسكين بقي مرميا في بلاط المنصور حيث انتهى إلى الضياع. كان عليه أن يؤدي، ببقائه رهينة، ثمن إمساك الأب، الأب الذي استعمل من طرف السلطة في أول أمر السلطان المنصور ورمي به بعد ذلك. ما أن نُفي إلى أگادير حتى انقاد لحياة المجون والخلاعة على غرار حياة القواد. وهذا ما كان يريده المنصور. أراده أن يخبو تدريجيا. ليس مهما أن نموت فجأة أو نموت تدريجيا، مادامت النهاية هي الموت. كان ذلك ديدن المنصور في التعامل. كان المنصور على العكس يميل للتصفيات البطيئة التي تعفيه من الدم والأفعال الفظة وتحفظ له الصورة التي يريد أن يشيعها عن نفسه، سلطان متسامح. حرر موت السلطان وكذا موت دوغا – لي الأب دوغا الإبن. كان مثل والده يحب الفعل والمغامرة. دخل في خدمة صاحب السفينة هاريسون الذي كان يقطع الطرق على الإسبان. بدأ دوغا كعامل بسيط في قارب طرطن[1] المشهور بسرعته ومر بعد ذلك إلى البينك[2] والشبيك[3] ثم الكرافيل[4] وهي مراكب شراعية ممتازة، ويكمن سر

---

[1]- الطرطن، tartane من الإيطالية tartana، من أصل عربي، الطريدة، وهي باخرة كبيرة نسبية تستعمل للصيد والنقل، وبها صارية واحدة.

[2]- الشبيك، le chébec من الإيطالية sciabecco، وهي سفينة صغيرة حربية، وكانت أغلب سفن قراصنة سلا (الرباط) من هذا النوع.

[3]- البينك Le Pinque من الهولاندية Pink وهي سفينة تجارية تتميز بسرعتها.

[4]- كرافيل تحريف لكلمة قافلة العربية، وتحيل إلى سفن كبيرة نسبيا بالنسبة للأنواع الأخرى، وهي ذات مدافع وهي أندلسية الصنع.

النجاح بها في السرعة والمباغتة. كانت المراكب الأندلسية لسلا الجديدة في الغالب الأعم مزودة بمجاذيف، وكانت الأشرعة مصنوعة بشكل مختلف عن تلك اللاتينية، لتسمح بحركة أكثر مرونة وأكثر سرعة. لقد تعلم الأندلسيون المهنة، وباعتراف المهنيين صاروا سادة (مُعلمين).

بفضل دوغا علمت ما أعرفه عن نشاط القرصنة بسلا الجديدة. بعد الظهيرة يأتي دوغا عندي كمن يبحث عن طمأنينة ضميره. كان يحدثني عن إنجازاته :

– خاي ديالي، تعلمت المهنة في الجزائر، لديهم معلمون كبار هناك، لكن البحر الأبيض المتوسط، خورطي[1]. لاشيء. مع الأمواج العاتية للمحيط ينبغي أن تكون معلما. هنا، لا يمكنهم، والله، أن يجاروننا. ليس الإبحار مسألة تقدير، إنه مسألة علم، خاي ديالي، إما أن تعرف أو لا تعرف، وإن كنت لا تعرف هزك الماء..

– ألا تخافون من الضياع في أعالي البحار؟

– لكي تمخر أعالي المحيط ينبغي أن تكون لك وسائل قياس، اصطرلاب البحر والقذافة. بدون هذا قُضي أمرك. ولكن هناك أيضا الفراسة، خاي ديالي، ينبغي أن تتوفر على الاثنين... أفهمت ؟ في عرض البحر تنسى كل شيء، خاي ديالي. صحيح الأمور ليست سهلة. نتناوب على النوم. لكن كم هو جميل الصعود إلى أعلى الصارية واستشراف الأفق للتحديق بعيدا في إحدى السفن. آنذاك، خاي ديالي، نطلق صحيات فرح، وهي في نفس الوقت صيحات تجمع. نتعبأ. نضع البارود في المدافع. نخرج بنادق الفتيلة والسيوف. الحرب هي الحرب. ندرس الهدف. سفينة حرب أو تجارية ؟ من بلد صديق أو عدو ؟ بحسب المعاهدات الموقعة بين الديوان في سلا الجديدة والبلد المعني. لدينا مختلف الرايات التي نرفعها لتضليل العدو. إذا كانت السفينة متفوقة علينا في العتاد نتجنبها، وإن لم تكن كذلك، خاي ديالي، لا نتردد. طلقات مدفع للإنذار، وإذا لم تستسلم نطلق طلقات على هيكل

---

[1]- خورطي كلمة دارجة باللهجة الجزائرية وتعني شيئا قليل الأهمية.

السفينة والأشرعة، لنحدث الارتباك، ثم يجتاحها رجالنا مطلقين صيحات نكراء للتشويش على العدو، ثم نأخذ كل شيء، البضائع والأسرى. عملية أو عمليتان، وها أنت، بخير، طيلة السنة.

– هذا ليس عملا حسنا، إنهم كائنات إنسانية، وكرامة الإنسان واحدة، مهما يكن.

– حاي ديالي، أنا لا أفهم هذا الضرب من الأشياء. بالنسبة لي هذا مورد رزق، مثلي في هذا مثل الآخرين، ثم إن الإسبان أوغاد. إن أمسكونا، فعلوا بنا نفس الأمر، هذا ما يقول لنا روديس، يقول لنا: إنه الجهاد البحري ضد الكفار وأيضا للانتقام للموريسكيين الذين طُردوا من ديارهم.

كان من الصعب، إن لم يكن مستحيلا، تغيير الشعور العام حول نشاط القرصنة. لم يكن ذلك مشروعا فحسب، في أعين الموريسكيين، بل هو مبرر وجود سلا الجديدة. فهي لا تعيش إلا من القرصنة، واستقلالها يأتي من هذا النشاط المربح. كنت أسمع لدوغا، على مر الأيام وهو يحكي لي عن إنجازاته، في الأندلس التي حاصرها مع قراصنة سلا، وباليابسة أسروا عائلات كانت تقوم بنزهة. ذات مرة، خدع يقظة البرتغاليين بأن تكلم مع صيادين بالبرتغالية في مصب التاج، وراكم المنجزات في التاميز، والمانش، ولانزروت بجزر الكناري. كان رئيس عمال معترف به من طرف أناس الهيئة ويقدره الرياس ويخشاه النصارى. جريء وسريع البديهة، مقبل على الحياة وجواد حد الإسراف. وهنا تكمن نقطة قوته. كان يُطلَق عليه لقب معيزو، الشجاع، وكان أيضا وبفضل ثقافته المختلطة، صلة الوصل بين أصحاب السفن، وهم في مجملهم مرتدون، وبين طاقم السفينة، برجال الهجوم، ورجال النار، وهم أندلسيون ومورو، وفوق هذا وذاك، كان يهوى عمله.

مازحته ذات مرة لأرده للطريق السوي :

– الآن إذ لم تعد تنوي نهائيا الهجرة إلى البرازيل، تزوج على سنة الله ورسوله. الزواج سيُحصّنك.

- هذا صحيح، خاي ديالي، أفكر في هذا أحيانا، لكن هذا صعب. حين نقضي أكثر من عشرة أشهر في البحر، من الصعب أن تجد زوجة، الموريسكيون لا يتزوجون إلا فيما بينهم. أما نساء عرب زعير فجلفات. ثم لا يمكننا أن نثق فيهن حين نسافر لأشهر. أتزوج أسيرة، ربما ؟ لكن الأسيرات بالنسبة لي غنيمة. يستمتع المورو بالأسيرات وأنا لا أحب هذا. لا أعرف لماذا. نضجت بكل تأكيد، لكن الزواج مسؤولية وأنا متوجس منه.

- توكل على الله.

- هذا صحيح، خاي ديالي.

- ثم وكمسلم يجب أن تكف عن الشراب.

- لم أعد أشرب، والله. أشرب من حين لآخر شراب الصامت، والجميع هنا يشربون الصامت، حتى الذين يصلون، ثم إنني أشرب في الليل بعد صلاة العشاء، مثل الجميع.

- كل ما يُسْكر فهو حرام.

- على ظهر السفينة بعد أيام من الإبحار نُصاب بالملل، شهاب الدين، وفي فصل الشتاء حين نتوقف عن العمل تكون الليالي طويلة، لذا نشرب لنزجي الوقت. ليس في هذا ضرر لأحد.

- تضر بنفسك، وهذا أنكى..

- شهاب الدين، ألا ترى بأنني تغيرت، لا تلح علي، أنت مثل أخي، والله، أنت كل عائلتي. بعد وفاة والدي القائد دوغا - لي، الذي خدم سلطانيين بتفان وجوزي جزاء سنمار من لدن المنصور. الآن وقد توفي أبي آراه بصورة أخرى، لقد غفرت له.

لم أتمالك نفسي. حضنت دوغا بين ذراعي وضممته بقوة. تركت دموعي تسيل على خدَيَّ. واخذت نفسي على عجزي سبر غور دوغا من ذي قبل.

كان القطيعة مع السلطان نهائية. رفضت مدينة سلا الجديدة على إثرها دفع ضريبة العُشُر. وقد شكّل هذا الامتناع النقطة التي وحّدت كل الفرقاء. أراد السلطان أن يستعمل السكان في حركاته ضد المنشقين وكذا موارد الديوان لتمويل حروبه. وفي فعل يائس عيّن السلطان مولاي زيدان المرتد موراطو أميرال (أمير البحر) على سلا الجديدة لكي يحرم الفرقاء من حليف قوي، لكن النزوع للاستقلال الذاتي كان يندرج في منطق الأشياء وانتهى بفرض نفسه. فتح الاستقلال الذاتي الباب على الصراعات بين المجموعات وعلى المنافسة من أجل السلطة بين المتطلعين. كان هناك تنافس بين الهورناشيروس، سكان القصبة، الذين كانوا أصحاب نفوذ، والأندلسيين، وهم من بسطاء القوم الذي يمتهنون الحرف في غالبهم الأعم. نعم، لم تكن لديهم الرفعة ولكن كان لديهم العدد. عمل روديس بلا كلل على رأب الخلافات من أجل مجتمع واحد، غير أنه، ولكي تتشبع المجموعتان بهذا الإحساس، ينبغي أن تسود العدالة والتضامن الفريقين، ويمكن للدين أن يساهم في ذلك، وهذا ما دفع روديس إلى محاولة استعمالي. لكنه هو نفسه لم يكن محط إجماع. فالهورناشيروس يحذرونه لأنه أندلسي ولأنه يضع موضع تساؤل سيطرتهم. كان يدعو لبنية مشتركة، ليس للفريقين فقط وإنما مع سلا القديمة في العدوة الأخرى، سلطة مشتركة للجماعات الثلاثة يكون هو قائدها بما أنه هو الذي يجسد وحدة المصير. لا واحدة من المكونات الثلاثة ستقبل بالذوبان في الجماعتين الأخيرتين، أو بالضبط سيرفض زعماء المجموعات الثلاث الذوبان في جماعة واحدة تسمو على الفرقة والاختلاف. نظّم أعيان الهورناشيروس أنفسهم ليقطعوا الطريق على صعود هذا الزعيم المستهوي للجماهير، وحتى حرفيو لمدينة فضّلوا البقاء تحت إمرة قائد محافظ، وهو والحالة هذه، فارغاس والذي كان مسيحيا وتحوّل بالمناسبة إلى الإسلام. وقع اختيار الهورناشيروس على ممتلك سفن اسمه باركو. أما سلا القديمة فكان

تُسيّرُ من طرف شيوخ يمتلكون الأراضي بتواطؤ مع العلماء. كان زعماء المجموعات الثلاث يتوحدون في رفضهم للزعيم الشاب الذي يريد أن يضع موضع تساؤل أسس السلطة في المجموعات الثلاث.

كان روديس يعرف بأن العدد وحده لا يكفي، وبأنه وبدون إمكانيات مالية فسيبقى مشروعه حبرا على ورق. تحالف مع القائد موراطو، وهو مرتد هولندي له تجربة كبيرة في القرصنة ويمتلك إمكانيات مادية وشبكة كافية للتزود بالسلاح والعتاد. لم يكن أرستقراطيو الفريقين الآخرين مغفلين، فتقربوا من ممتلك السفن الانجليزي جون هاريسون لكي يبطلوا مفعول مناورة روديس.

أُعلنت الجمهورية في ماي 1627، بحكم ثلاثي triumvirat مكون من فارغاس، المعروف ببرگاش ممثلا للأندلسيين، وسيرون الذي تحول اسمه إلى باركو ممثلا للهورناشيروس، والقصري قائدا للجيوش.

سارع قادة الحكم الثلاثي، وفي خضم إعلان الجمهورية، إلى البحث عن سند خارجي، وهكذا أطلقوا سراح أسرى إنجليز كبادرة حسن نيته تجاه إنجلترا، ووقعوا معاهدة بين ديوان سلا الجديدة والإنجليز، وأرسلوا بعثة مكونة من سفيرين هما بن سعيد ونارفيز ليصادق ملك الإنجليز شارل الأول على هذه المعاهدة لقطع الطريق على روديس. واتصل سيرون بالهولنديين وأرسل بعثة إليهم لتبليغهم بحسن نوايا الأندلسيين تجاه الهولنديين.

لم يكن مجرى الأحداث كما كان يريده روديس، فقد تضافرت جهود السلطة القائمة لإبعاده، كما ساهمت كثافة الاتصالات الدبلوماسية في عزله. واستخدم الأعيان ضده سلاحا فتاكا: التشهير، فأذاعوا عدة إشاعات عنه بأنه لا يمتثل لتعاليم الإسلام، والأدهى من ذلك ادعوا بأنه قشتالي متسلل، ويعمل لحساب الإسبان.

فهم روديس بأن الخناق يضيق عليه. فالقائد موراطو، ومهما كان سنده، فهو ليس الدولة الهولندية، ثم إن موراطو لا يثبت في تحالفاته التي عليها أن تساير مصالحه وليس العكس. كان روديس يعرف بأن موراطو حافظ

على صلات مع السلطان السعدي. لم يكن لفنيش، حليفه في العدوة الأخرى، إلا هالته، وهو بدون إمكانيات مادية، وكان يدعو لخيار لا يطابق نظرة روديس. كان فنيش واقعيا يطالب بالانفتاح على قوى محلية أخرى. وقد رفض روديس تذويب الخصوصية الموريسكية في تحالفات مع المورو، إذ مع عددهم الكبير سينتهون بإضعاف الخصوصية الأندلسية. بقيت له لْمدينة. أدرك الأندلسيون الظلم الذي يتعرضون له من قِبل سيطرة الهورناشيروس على كل الجوانب الاقتصادية والمالية والسياسة، فاستقال برگاش الذي كان يمثل الأندلسيين مُقِرّا بعجزه، فسقط مشروع روديس لوحدة مصير الأندلسيين. كان يتوجب تأليب لْمدينة و حمل السلاح إن اقتضى الحال.

لم يرد الهورناشيروس أبدا التفاوض مع روديس وقطعوا المؤن على الأندلسيين وانتهى هؤلاء بالانتفاض في شتنبر 1629. وأمام التهديد الذي يمثله أندلسيو لْمدينة، سارع سكان سلا القديمة لنجدة الهورناشيروس، فانتصار أهل لْمدينة، وهم في أغلبهم بسطاء، يشكل مقدمة لانتصار مشروع روديس، ولا ينبغي لذلك أن يتم. عمد الهورناشيروس إلى مفاوضة فنيش بهدف عزل روديس لكن الرجل رفض ذلك بشدة ولم يقبل أن يضرب مبادئه عرض الحائط.

أعلنت ساكنة سلا القديمة، في تواطؤ سافر مع حلفائها الهورناشيروس، فنيش خائنا وأقيمت محاكمة صورية صدر فيها الحكم عليه من لدن عِلْية المدينة بالحبس في برج الدموع، غير بعيد عن ضريح الولي الصالح لسلا القديمة سيدي ابن عاشر.

كان الخلاف في نهاية الأمر بين جماعتين غنيتين وأخرى فقيرة عرضة للارتياب.

دخلت مدينة سلا الجديدة في هدنة هشة. فالجماعة الأندلسية، ورغم نجاحاتها، أُنهكت، بسبب شح الموارد، وزعيماها عرضتان للعزلة أو السجن.

أبدت الأوليغارشية الهورناشورية استعدادا لبعض التنازلات، ولكن من دون روديس.

ووقع المحظور يوم 29 أكتوبر. جاء مبعوثون ليقترحوا على روديس التفاوض للعثور على مخرج خارج أسوار المدينة حتى لا يثيروا شكوك سكان سلا القديمة، و قبل العرض ليجنب المدينة الجوع والخراب اللذين ضرباها.

كنت أقدّم الدّرس بمسجد پلامينو حين همس لي الروندة، القيِّم على المسجد، خبر مقتل روديس. خارت رجلاي. نظر إلي التلاميذ وأفواههم فاغرة. رددت في ذهول : «إنّا لله و إنّا إليه راجعون، مات روديس» . غادر الشبان للتو، فنجيرو، صباطة، جوريو، المسجد صائحين «روديس، روديس» تحت قيادة الفتى المشاغب جبرو.

لم يتم العثور إلا على مِزق معفرة بالدم من جاكيتته. لم يرد قاتلوه ترك أي أثر، و لم يتم العثور على جثته أبدا. غسل الهورناشيروس أيديهم من الجريمة، وفعل سكان سلا القديمة الأمر نفسه، واتهم البعض الداعية العياشي، والبعض الآخر الإسبان، والكل كان مرتاحا للتخلص من خصم ذي عيار ثقيل. الكل، إلا بسطاء الناس.

توجهت نحو داره ووجدت زوجته شامة مُلين تبكيه في أنفة وهي تمسك من حولها أولادها.

كنا حيارى، فالقتل هو الموت الطبيعي لمن يضع نفسه في خدمة الجماعة، لكن الموت ليس رديفا لغياب الأثر. كنا حيارى إزاء هذه الموت بلا جثة، و لم نعرف كيف ننظم مراسم العزاء.

فوق ربوة لوبيرة الصغيرة ارتجلت مرثية لمن كان أفضلنا:

« مات من غير قبر ذاك الذي كان أفضلنا، لكن قلوبنا قبر له. سوف يعيش في قلوبنا لأنه حمل آمالنا، سوف يعيش لأنه حمل في جسده جراحنا وآلامنا. مات لكي نعيش، وكل خطوة نخطوها في معركتنا من أجل الكرامة هي انبعاث له وانبعاث لنا. كان يشبهنا لأنه كان

يحمل نفس الجراح والآلام، وكان أفضلنا لأنه ترجم هذه الجراح والآلام إلى أفعال. أخطاؤه ترفعه لأنها أخطاء رجل فعل. كان بُراء من تعازيم الكسالى وتخرصات الحالمين. في الفعل وحده كان يجد الإلهام، حتى ولو قاده للخطأ. وبفضل بصيرته كان الخطأ، حين يكون، مصدر إلهام ويفضي بما لا يخطر على البال، إلى العمل.

عظمته تنبع من خصاله الذاتية، أما أخطاؤه فهي وليدة الزمن الذي اضطرب فيه. نعم إخوتي، كان أفضل ما يمكن أن تجود به الضفتان لو كانت الضفتان تستمعان لبعضهما البعض، وتفهمان عن بعضهما البعض. ولكنه العمى، فأُلقي به. ولكنها الحماقة فتم تعقبه، وإنها للكراهية فتمت التضحية به. لكي يجتث من أرضه التي أراد أن يبعث هنا. ولعل الأمر أن يكون سرابا، لكن ألا يتحمل من دفعوه إلى الحائط مسؤولية زيغه ؟ لم يولد معاديا لإسبانيا، لكن إسبانيا معينة جعلته خصما لها. كان إسبانيا ولم يطرح قط السؤال هل هو يهودي، أو مسيحي أو مسلم، حتى اللحظة التي تم الإقرار باسمه بأنه، مسيحي سيء. كان مسيحيا على طريقته، وحين صار مسلما لم يكن ذلك على طريقته..

ما كان بمقدوره أن يبقى نافذ البصيرة والجراحُ قد أثخنت في جسده. فالعنف لم يكن جبِلّة ثانية فيه وإنما رد فعل. ولكَم يتم تناسي هذا الأمر.

لم يشاطر قط مفهوم العقيدة الذي يتم توارثها، أو امتلاكها، أو عند اللزوم يتم إظهارها والتباهي بها كما يتم التباهي بزي من الأزياء. فالله بحث وكدح، وفي هذا السعي، لا يتوارى الشك لكي لا يسمح لليقين أن يملك شغاف النفس. ينبغي للإيمان أن يلهم الفعل والمحبة وإلا لن يكون لهذا السعي معنى. كان بإمكان دوديس أن يتطور نحو المحبة لو لم يكن جريحا، لكن جرحه كان غضّا ولم يلتئم.

قد يؤاخذه إخواننا المورو على ما يبدو أنها عجرفة. كان متعلقا بأرضه وموروثه بحيث لم يكن ليقبل بالفوضى والشعوذة والتقديس الأعمى والفرقة، وكلها أشياء كان ينفر منها. هل يمكننا أن نؤاخذه على حرصه على الحفاظ على هوية جماعته الجريحة؟ وهل كان سيتصرف على هذه الشاكلة لو كان المورو كما كان يتصورهم: أناسٌ متقشفون، متفانون في عملهم، عقلانيون ومنضبطون. لقد خيبوا أمله لأنه رسم لهم صورة مثالية. أصدقائي المورو لا تؤاخذونه، لقد آمن بجماعته التي أرادها الشعب المختار الذي سيقود الآخرين والخميرة التي ستنضج العجين، لكنه اختُطف ظلما...وقبل الأوان.

إنه هنا، وفي كل مكان، وسيبقى كذلك إلى الأبد. روحه تحلق وستحلق دوما.

نم في آمان روديس أورودريغير.

ليتغمدك الله برحمته،

آمين».

كانت الريح تهبُّ بقوة وتنذر بالعاصفة. أخذت معها أقوالي فيما حملت.

خيمت الكآبة على سلا الجديدة وأضحت بدون روح بعد مقتل روديس. كان هو الذي أتى بي إلى هناك وطوّقني بمسؤولية ومنحنى غاية. كان بإمكاني أن أواصل حياتي كواعظ وبدون وعي سياسي. كنت سأكتفي بالتأسي على مآل مواطني، وسماع شكاهم وإعطائهم النصائح والقيام بدور النجّي الذي يستمع لاعترافات المذنبين في ثياب الفقيه. موقف سلبي لتحرير ذهني من وخز الضمير. ولكن روديس رسم لي هدفا. ليس علي أن أكبح نفسي كما كنت أفعل مع أنتاتي. علي واجب الحفاظ على ذاكرة جماعتي، وأحتكم للتاريخ، لكي ينصفهم يوما ما. لا يمكنني أن أغادر المدينة ولو تراودتني الرغبة في ذلك. في أزقة المدينة كنت أتلمس أثر روديس ولا أجده. كانت حركاته بالمدينة تشيع فينا الإطمئنان. كانت حدته تبعث فينا النشاط. كنا نراه في المقهى يُحدِّث الشباب، أو يتجاذب أطراف الحديث في أوراش البناء مع البنّائين أو على رصيف الميناء مع البحارة، أو هو يكلم پلامينو الذي فقد عقله. وكنا نحس بأننا مشمولون بالحماية. كان يحب جماعته، وحينما مات أدركنا الفراغ الذي خلّفه. كان يمتلك مشروعا للمدينة وسكانها الذين أحبهم أكثر من أي شيء آخر.

بُذل بعد وفاة روديس، الجهد لوأد بؤر التوتر. في ماي 1630 تم التوقيع على معاهدة المصالحة بين الفريقين من الهورناشيروس والأندلسيين، سُمح بمقتضاها للأندلسيين بأن يُمثّلوا في الديوان والاستفادة من عائدات الميناء. كل ذلك بفضل المساعي الحميدة لمالك السفن الإنجليزي هاريسون.

غير أن المدينة، ورغم كل هذا، ضعفت، فقد حاصرها المرابط العياشي مستغلا الصراعات الدائرة فيها. وفي سنة 1636 شنّ الأندلسيون الذين لم يعودوا يقبلون الوضع كما كان هجوما على القصبة، فطردوا الهورناشيروس الذين هاجروا إلى الجزائر وتونس، بل إنهم هددوا سلا القديمة

نفسها. وطلب هؤلاء النجدة من الإنجليز الذين دافعوا عنهم ورَموا بالقنابل سلا الجديدة. كان الرهان أكبر من سكان سلا الجديدة المساكين. كان سباقا بين الإسبان والإنجليز حول من يضع اليد على هذا الميناء، موضع الأطماع ومصدر المخاوف.

كشف الرايس موراطو عن وجه الحقيقي. كان يعمل لفائدة الإسبان وأراد أن يسلمهم ميناء سلا الجديدة.

في كل محاولة، من أجل أن تثبت سلا الجديدة استقلالها، كانت تتعرض للحصار والتجويع. وكان روديس قد رفض أن يكون في خدمة أي أحد: رفض اللعنة التي تضرب الأندلسي فتجعل منه مرتزقا أو تحفة أثرية. كان يريده فاعلا في سجل التاريخ في الوقت الذي يرفض له التاريخ هذا الدور. لو كانت إسبانيا أخرى لأنجز دوره وصار فاعلا، ولو هي تحولت يوما فلسوف يحتل الصدارة في مصاف التاريخ، لكن إسبانيا أرادت أن تكون انتقائية من دون أن تكون مُتسقة مع نفسها. تريد أن تحتفظ بالحمراء والخيرلدا، وقصر اشبيلية ومسجد قرطبة، وما لا أدري، مع رفضها للموريسكيين. كانت قشتالة ستكون متسقة مع نفسها لو رفضت كل هذا التراث المعماري الجميل حين رفضت الموريسكيين. وكان عليها، وفق المنطق الطهراني لمحاكم التفتيش أن ترفض ابن باجة، وابن رشد وابن ميمون، هذه المنارات من الفكر الإنساني.

هي وحدها القادرة على أن تتصالح مع نفسها، لأنها الأكثر قوة، والأكثر تقدما في سلم التاريخ، وسيقتفي المغرب أثرها. إنها معادلة غريبة هذه التي تقتضي أن تمر المصالحة مع الذات عبر الآخر. بين إسبانيا والمغرب ليست المسألة هي أشبار من تراب، وإنما ذاكرة ومصير مشترك. ما صخرة أو مخلفات عصور ولّت أمام سابقة تاريخية أو مشروع حضاري صهر الشرق والغرب في وقت يخوض فيه الإسلام والمسيحية حربا بلا هوادة؟

في إسبانيا مطمئنة، وفي مغرب هادئ، كان من شأن ضرباء روديس و فنيش وأنتاتي أن يكونوا فاعلين في التاريخ عوض أن يُحكم عليهم بالصمت أو الموت. رجال استثنائيون تنبتهم التربة المغربية باستمرار، ولكن بلا هدف، بلا غاية. والأنكى من ذلك، أنهم يَشُلّون بعضهم البعض، في الحروب التي يخوضونها ضد بعضهم البعض، لفائدة المرتزقة، والمرتدين، أو أمراء متهتكين على شاكة المامون الذين يبيعون البلد مقابل متع صغيرة ويجدون العلماء الذين يبررون لهم سوء فعلاتهم. في خضم هذا السياق يبرز أمثال أبي محلي الذين يستعملون الدين، ويدعون للجهاد مستغلين مجون أمراء تنخرهم الدعة والخلاعة.

تولد لدي إحساس بأن كل شيء تعطل، وأن أوضاعنا ستتكرر بشكل لا منتهي، وستثني بالقبول بأدوار صغيرة، ولن يتجاوزطموحنا تلك الأدوار. كان أنتاتي قد أفصح لي بذلك، واكتشفت الأمر بعد مقتل روديس: تكرار مزمن لوضعية جامدة.

كنت أجد العزاء في وعيي التاريخي، وأجد فيه بعض الرضى الشخصي الذي يعصمني من السقوط في سفاسف الأمور والابتذال. نعم أنا مطوق بدَين تجاه جماعتي، وأشعر بواجب الإدلاء بالشهادة حول مأساتهم، مثلما أجد في هذا عزاء لي رغم أن الشك يساورني من حين لآخر. أذكر روديس، رجل الفعل والعمل، الذي كان يقول لي بأن الذاكرة هي حافز الفعل. لا أعرف هل هذا صحيح، لكنني أريد أن أصدق بأنه كذلك.

وجدت بعض العزاء في صحبة فنيش، فقد قرّب بيننا موت روديس، بيد أن الرجل لم يبرأ من آثار الحدث. أوكل نشاطه البحري لابنه وبقي مثلي، يراقب، عاجزا، مجريات الأمور. لم يهجر سلا القديمة، وكان يأتي إلى سلا الجديدة لزيارتي فنجلس في المقهى بالمدخل المؤدي للحديقة، وأحيانا في فصل الربيع أو في الصيف نجلس في الحديقة الأندلسية التي تذكرنا بساحة الأسود في قصور الحمراء. لم يكن يتكلم كثيرا، كأن خيانة المرتد موراطو وخيانةِ علية جماعته الذين حاكموه وسجنوه أثرت فيه بالغ الأثر كأنما وسمته بالحديدِ المحمى. من حين لحين، كانت تفلت منه بعض أفكاره :

- كان مشروع روديس محكوما عليه بالفشل من دون المورو. لا يمكن فصل مصيرهم عن مصيرنا، لأننا نقتسم نفس الأرض ونفس المصير. علينا أن نكون مرنين في التعامل معهم عوض أن ننظر إليهم من عل، فالفوضى التي يعيشونها ليست سمة من سمات ثقافتهم، لكن شروط عيشهم جعلتهم كذلك. إنهم يختزنون طاقات هائلة علينا أن نعرف كيف نوجهها...

قال لي وهو يرتشف شايه في شرفة المقهى الصغير المطل على النهر.

وأضاف:

- من الطبيعي أن يكونوا متمردين، فهم يتعرضون للابتزاز وصنوف العسف بشكل دائم..

- على شاكلتنا في الأندلس، كنا صالحين للسخرة والاستغلال بلا حدود، أردفتُ.

- هناك وحدة المصير بيننا وبين المورو، عقّبَ.

كنت سعيدا لسماعي إياه يقر بذلك، أليس أطفالي حصيلة هذا الانصهار بين المورو والأندلسيين؟ قلت :

- هناك أيضا الإسلام الذي يوحدنا؟

- أي إسلام شهاب الدين؟ إسلام علماء تقليديين والذين ينخر بعضهم الفساد؟ أو إسلام المتمردين ذوي المطامح السياسية؟ أو إسلام المتصوفة المتروين في عزلتهم، المستقلين عن قضايا الشأن العام؟ هؤلاء وأولئك يستغلون الإسلام لأهداف سياسية.

كنا جالسين ذات مرة بالحديقة وغير بعيد من البئر، حين سألته وأنا أخاطبه باسمه الشخصي:

- سي عبد الرحيم، هل غفرت لأهلك؟

- ولماذا أؤاخذهم، إنهم ليسوا خونة في أعماقهم، لكن الظروف جعلت منهم كذلك. لم يعد لهم مشروع جماعي ولذا يُقبلون على مسارات فردية وطموحات شخصية.

- ورغم ذلك فالأمر يدعو للرثاء، أضفتُ.

- لا شيء يدعو للرثاء من منظور التاريخ، إنها نهاية مرحلة وبداية أخرى، وستمضي بدوننا.

ورغم ذلك كان فنيش متأثرا للعجز الذي ضرب جماعته مما جعلها تتأرجح ما بين الإنجليز والمرابط العياشي بلا تبصر ولا رؤية.

سقط فنيش مريضا، ولم يعد يستطيع الخروج. زرته مرة في بيته بسلا القديمة، ولم تخل زيارتي من مصاعب. كنا، ساكنة سلا الجديدة، موضع شبهة في أنظار سكان سلا القديمة، وكانوا يعرفون الصلة التي كانت تربطني برودييس. نزلت من باب مالاقا[1]. وجدت عند فنيش نخبة من سكان سلا

---

[1]- الاسم المستعمل الآن هو "معلقة" وهو إبدال لملاقا وفق قواعد الدارجة المغربية التي تدخل حروفا زائدة كالعين أو الهاء على الكلمات الدخيلة.

القديمة، الذين انتهوا باكتشاف خصاله وتفانيه من أجل جماعته. بدا، ورغم المرض، محبا للإطلاع على الوضعية السياسية. حكى الشيخ زنيبر بعض المستملحات التي لا تخلو من بذاءة لتلطيف أجواء الجلسة، وزعم الشاب عوّاد، ابن القاضي، بأن المرابط العياشي الذي يزحف على المدينتين يفعل ذلك باسم السلطان:

رد فنيش من سريره:

– يعمل لحسابه الخاص، مثل المرتد موراطو، مثل الإفرنجي مورات الذي عُيّن قائدا على سلا الجديدة من قِبل السلطان. كلهم يدّعون نفس الأمر ليخادعوا الناس السُّذَج.

بدا عليه الإجهاد وانتابته نوبة سعال.

أخذ الناس ينسحبون، وهممت بفعل نفس الشيء، فأشار علي بالبقاء. حين كنا لوحدنا، كلّمني بصوت متهدج:

– دنا أجلي، شهاب الدين. سأرحل قريبا.

– الأعمار بيد الله، ولا نعرف من سيموت قبل الآخر.

– هذا أحسن. من الأفضل الرحيل في الوقت.

– لا تقل مثل هذه الأشياء، سي عبد الرحيم.

– عِدني بشيء شهاب الدين.

– آه أسي عبد الرحيم، إنك تحزنني بقول أشياء من هذا القبيل.

– عِدني شهاب الدين بأنك لن تفعل شيئا بإمكانه أن يفرقنا عن الموِرو. أنت صلة الوصل بيننا وبينهم. إنهم جريحون مثلنا. نحن ضيعنا أرضنا وهم بصدد تضييع لغتهم. ولدينا، ومن الآن، وحدة مصير. إننا وهم فريسة لنفس الطيور الجارحة..

أخذت يده، واعتصرتها بقوة، وارتميت على حضنه وبكيت بحرقة. ضمني بذراعه الواهن. كان وجهي مغرورقا بالدموع. تناهي إلى صوت سي عبد الرحيم كأنه يأتي من مكان بعيد، بيد أنه كان مسموعا.

– في خاصرة ربوة لوبيرة، مقابل البحر، هناك أريد أن أُدفن، هناك حيث كان روديس يريد أن يدفن.

فُتح الباب، أخذني الشيخ زنيبر من منكبي وأخرجني ببطء وهو يتلو الآية : ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا﴾. (83-28)

حدث ذلك في فصل الشتاء، جاء الناس عن بكرة أبيهم لتشييع فنيش إلى مثواه الأخير. جاءوا من كل حدب وصوب، من سلا القديمة، من سلا الجديدة، جاء المورو من عرب زعير ومن الأمازيغ، كبارا وصغارا، كأن فنيش كان الفرصة المجهضة. انهمك دوغا في حفر القبر دون أن يرفع رأسه. كنت أعرف أنه مكلوم، وكنا جميعنا كذلك.

كنت أرتّل القرآن الكريم وأنظر من حولي إنجاز فنيش الأخير وقد انتقل إلى العالم الآخر. لقد وحّد موته خلقا كثيرا من كل الوجهات. لاشيء في العمق كان ينبغي أن يفرق بينهم. لا شيء لو أمعنا الفكر، سوى المصالح الصغيرة والغباء. لماذا لم يتحقق هذا الإنجاز في حياته ؟ لِم يحضر أولئك الذين تحاملوا عليه في حياته؟ لأنه قضى ولم يعد يشكل عليهم أي خطر؟ هناك أيضا، وهم كثر، أولئك الذين واجهوه بالعداء ويعضون الآن على الأنامل. هو ضربٌ من اللعنة يجعلنا لا نتبين مكانة الأشخاص الاستثنائيين إلا بعد غيابهم، كأن هناك توزيعا في الأدوار: للأوغاد الحياة الدنيا وللرجال الأفذاذ الحياة الآخرة. يمكنني أن أقبل بهذا لأنني مؤمن، أما الآخرون؟

وُضعت الجثة ملفوفة في كفن أبيض بالقبر. لم يستطع دوغا أن يهيل التراب عليها فتطامن في حضني. حضنته بذراعي اليمنى، وبذراعي اليسرى كنت أضم ابني حَكَم وأرتل سورة «ياسين» وسورة «الملك» فسورة «الفجر». هممت بالدعاء حين همس لي الشاب جبرو بأن أؤبن فنيش. لم أكن هيأت شيئا. اعتصر جبرو يدي دلالة الإلحاح والتوسل. ماذا أقول؟ كل شيء يتكرر تكرارا عبثيا، كل شيء تافه ومبتذل. الصمت لا يقل تعبيرا عن الصراخ الضاج.

في الأخير ارتجلت كلمة التأبين هذه:

« كل نفس ذائقة الموت، هكذا يقول القرآن الكريم. لكن الموت لا يُنهي أفعال الخيّرين من الناس ولا سلطان له على أفكارهم التي تبقى بعد ذهاب أجسادهم. سيصير الجسد ترابا من حيث أتى، لكن الروح أبدية كما هي كذلك أعمال الشخص وأفكاره. يثيب الله أفعال الرجال الأفذاذ، وفي هذا الثواب يكون الإنسان فاعلا. أليس هو من خلقه الله على صورته؟ بإمكاننا كلنا أن نساهم في عملية الثواب إن حافظنا على ما عاش سي عبدالرحيم من أجله، وإن بقينا مخلصين لإنجازاته، وإن وضعنا نصب أعيننا تضحياته، وما عانى من حرمان، أما إن نسينا إنجازاته، فسنكون قد ساهمنا في موت روحه. سينهض دجالون سيستولون على منجزاته. لكن الدجالين يوجدون دوما ولا ينتصرون إلا حين يتوراى الخيّرون من الناس. فالشر لا يوجد لذاته، ولا الخير كذلك، وإنما الإنسان هو من يحملهما. بين النور والظلمة حرب ضروس، ولا يمكن للنور أن ينتصر بدون تضحية. تذكروا إخواني حكمة النبي موسى عليه السلام، حين رأى نارا في قنة الجبل، وعاد إلى أهله ليأتي لهم بقبس عسى أن يهديهم به إلى سواء السبيل. لقد تحدث لأهله بكل تواضع. فالعجرفة لمن هو مؤتمن على مصائر الناس سبيل الضلال. لا خلاص إلا مع الجماعة. فموسى عليه السلام إذ ذهب يبحث عن القبس لم يفعل ذلك ليكون ندا للآلهة أو من أجل خلاصه الشخصي ولكن لينقذ أهله وينيرهم السبيل. كانت تلك بداية مسار النبي موسى عليه السلام الذي كان عليه أن يتصدى السحرة والمرجفين. وسنكون كلنا، في مسار الخير، عرضة لأساليب التضليل والبهتان. ليكن سلاحنا الصبر والتواضع.

كان المرحوم عبد الرحيم من طينة أولئك الذين يقبضون على الجمرة من أجل إنارة أهليهم. ليس مهما ألا تضيء من حولهم في حياتهم. لنمسك الجمرة نحن أيضا. من أجل الآخرين، ومن أجل أهلينا، فرسالته ليست بالضرورة مِلكا لمن يدعي الانتماء إليه. سيواصلها آخرون لم يتعرفوا عليه، وبصدق.»

توقفت لهنيهة. رأيت الجموع ذاهلة. كدت أن أستشهد بما جاء في الإنجيل « الحق الحق أقول لكم، إن لم تقع حبة الحنطة في الأرض وتمت فهي تبقى وحدها، ولكن إن ماتت تأتي بثمر كبير.» (إنجيل يوحنا: الإصحاح 12، 24ـ25) وتراجعت. إن فعلت فسيُعتقد مرة أخرى بأننا مسيحيون قشتاليون. أنهيت بالقول :

«كان قواما بالحق، فليرقد مع الصدقين.

والله يحب المقسطين. آمين»

واصلت الحياة مجراها. كان علي أن أنظر إليها بمنظار آخر وقد أدبر شبابي. جاوزت الخمسين سنة وصارت نظرتي منفصلة أكثر فأكثر عن الحياة الجارية... منعني الحياء من الحديث عن خاصتي في هذا المحكي. قارب حَكم ابني الثلاثين، وقد برهن عن حس كبير في مجال المعاملات التجارية. استثمر في تجارة الحرير وتزوج بفتاة من عائلة دينيا، وكان مرتبطا ارتباطا وثيقا بدوغا والذي كان له أثر كبير عليه. ولعله أن يكون من موّل مشروعه في بدايته، وأخمن بأن تفكيره الحر أخذه من دوغا. تزوجت بنتي زينب بالدبّاغ غاليس، الذي حوّل اسمه إلى خالص، وفضل أحمد الاستقرار في تطوان حيث ارتبط بفتاة من عائلة الطوريس. لم يتبق إلا الصغير ابراهيم الذي صار رفيقا لي ونجيا. بقيت منشغلا بدوغا. ألم يكن أخا لي قضيت معه أجمل مراحل عمري ؟ حاولت أن أثنيه عن القرصنة، دافعا بأنها نشاط دنيء وخطر. وكان في كل مرة يتعلل بحجة أن له ديونا، وما أن يؤديها لأصحابها حتى يهجر البحر ويتحول إلى نشاط آخر. ولكنه كان يحب البحر أكثر من أي شيء آخر. كان موضع تقدير من لدن الجميع، ولم يحِدْ عن مصير المدينة، وقدّم كل ما يملكه من مال لمشروع روديبس حين امُتحن أندلسيو المدينة بالحصار. بعد مقتل روديبس حوّل إعجابه لفنيش. لم يكن المال غاية في حد ذاتها بالنسبة إليه، وقد أسرف منه بلا حساب، في أمور، غفر الله له.

مع اقتراب فصل الربيع الذي أعقب حدث موت فنيش، كان سعيدا لارتياد المحيط. من شأن ذلك أن يغير الأجواء الكئيبة التي أعقبت موت فنيش. تعهد لي بأن هذه المرة ستكون الأخيرة التي يركب فيها البحر، وبأنه ينوي الاشتراك مع حَكم في تجارته، وسيُكْمل دينه.

خرج مع أوائل القراصنة في شهر أبريل. شهران بعد ذلك، حكى لنا بحارة سفينة أخرى كان ترافقهم حكايتهم الفظيعة. في عرض شواطئ ماديرا

تعرضوا لوابل من القذائف من سفينة إنجليزية. لقد أُخذوا على حين غِرّة لأن الإنجليز كانوا حلفاء. أربكهم وقع المفاجأة. ورغم ذلك أبدى البحارة شجاعة خارقة. قاتلوهم حتى نفذت ذخيرتهم، واجتاح الإنجليز السفينة، وكان الاشتباك قاسيا. وبعد البنادق تواجهوا بالسيوف. لم يتبق إلا أربعة بحارة من بينهم دوغا الذي حارب كأسد. قُبض على الأربعة بحكم غلبة عدد وعدة السفينة الإنجليزية، وكان الانتقام بشعا. ألقي بدوغا والثلاثة الآخرين في البحر. فعل الإنجليز ذلك على مرأى بحارة السفينة الأخرى المصدومين لكي ينقلوا لباقي القراصنة العقاب الذي ينتظرهم. لقد وحد المسيحيون جهدهم ضد القراصنة المسلمين.

سقطتُ مريضا حين سمعت خبر الموت المأساوي لدوغا. ووجدت صعوبة في إلقاء خطبة الجمعة لمدة طويلة. في كل صلاة فجر أدعو لروح دوغا كي يتغمده الله برحمته وواسع مغفرته.

تـــوزُر

1642



ألقيت بعصا تسياري بواحة توزُر الصغيرة بشط الجريد في الجنوب التونسي بعد مهامهة ومغامرات. أكرس وقتي للعناية بتعهد حديقة قد لا أرى ثمارها. غرست أشجار نخيل، وفي الاشتغال بالأرض أجد غبطة غامرة. قد يمر واحد من البدو العرب بشاشيته الحمراء خلف قطيعه وهو يعزف بالناي فيكسر رتابة يومي، وتملؤني أشعار الغزل المغنى بفرح دافق.

لم يعد يستهويني صخب المدن الكبيرة ولا نفاق الناس. عند المغيب وبمسجد القرية الشاهد على عبقرية معمارية فريدة وخصوصا مئذنته ذات الأضلاع الثمانية أؤدي صلاة المغرب وأرتل القرآن الكريم وأتلو الأذكار. وجدت في صحبة الشَّابي، إمام المسجد متعة. فهو يجمع، وبالإضافة إلى علمه، حسا أخلاقيا عاليا وحساسية جمالية كبيرة، وغالبا ما يدعوني لتناول أكلة محلية تقوم على ضلعية خروف مشوية فوق نار جمر هادئة يسمونها هنا كوشا. نتكلم في الفقه، والتاريخ، والأدب. وإذا الليل أرخى سجوفه أمتع سهرتنا بإنشاده الشعر في كل الأغراض، مما يحفظه، أو بما تجود به قريحته. ظلت القرية منارة للعلم والعلماء وحافظت على ذلك. إنها تنضح بالذاكرة. فهي ملتقى للحجيج والأولياء والعلماء والتجار. وعند موسم الحج تمتلئ القرية. فهي المعبر لكل الحجيج القادمين من الغرب الإسلامي. وتشهد التركيبة الديموغرافية على هذا التداخل كما يشهد على ذلك غنى مكتباتها. في طريقي إلى مكة تعلقت بتوزُر وعند العودة اخترتها إقامة نهائية. لقد منّ الله علي بأن أديت فريضة الحج. آنست من نفسي الاستعداد للقيام بذلك منذ أن بدأ الموت يحوم حولي وأخذ أعز الناس إلى قلبي. فبعد دوغا جاء الدور على زوجتي لالة تاجة، ليتغمدها الله برحمته. قضت عليها نزلات البرد الشديدة والمتكررة والتي تسببها الريح البحرية الرطبة لسلا. كانت امرأة فاضلة، غمرتني بعطفها وحدبها. لقد أعطتني مبررا للحياة في وقت كنت فيه ضائعا،

ورّسختِ ارتباطي بالمغرب الإسلامي. وحيثما أوجد، هنا في توزُر، أو في مراكش، أو في تِلمسان أحس بأنني بين أهلي، بفضلها. كانت غريبة مثلي، اجتُثت من وسطها وأُسلمت إلى عالم غريب عنها، بنت محظية بيعت في سوق نخاسة وكان عليها، وكما هي العادة، أن تدفن ماضيها. بدأت حياة أمها في حريم القاضي الركراكي، ليشمله الله بعفوه ومغفرته، وحين ولدت صارت ابنة من الدرجة الثانية للقاضي. هل أجازف بالقول بأنه ولهذا السبب عرضت علي للزواج ؟ يحب الله جمع الغرباء، فالغريب للغريب نسيب. تغمدها الله برحمته.

أخذت الطريق الشمالي من طرق الحج إلى مكة رفقة ابني ابراهيم، مرورا بفاس وتلمسان، حيث زرت رباط العباد وتبركت بضريح القطب سيدي أبي مدين الغوث، وهو من كبار الصالحين بالمغرب الإسلامي، نفعنا الله ببركته... وهنا في توزُر التقى ركب الشاطئ مع ركب الصحراء. واصلنا المسير عبر طرابلس، وبرقة، فصحراء مصر، ثم القاهرة، ومن هناك خرجنا مع موكب حجاج مصر و السودان والقرن الإفريقي وزنجبار. يقام احتفال كبير لخروج الركب من القاهرة، ليس لأن القاهرة مكان تجمع لمسلمي المغرب ومصر فقط، ولكن كذلك لأن الكسوة التي تسجى على الكعبة تُعدُّ بالقاهرة. فالكعبة هي كأميرة أو عروس، ينبغي أن تسدل عليها الكسوة. يُنظر إلى الكعبة وكأنها كائن بشري. وفي بلاد المغرب تسمى توقيرا لالة مكة. إنها ليست مكانا وإنما لقاء الكائن المحبوب ولقاء الذات. فالمكان ليس إلا رمزا. عبرنا صحراء سيناء ومن هناك أخذنا سفينة نحو الينبع الذي تربطه بمكة حركة قوافل دؤوبة. ماذا يفيد الحديث عن جشع البدو الذين يبتزون الحجيج؟ هل نتكلم عن الشوك كلما تكلمنا عن الورود؟ باقترابنا من مكة خلعت ثيابي ولبست الإحرام الذي لا يميزني عن باقي الحجاج. كنت قد تحررت مسبقا من أهوائي، وأوهامي، أوما يسميه القرآن الكريم بالهوى، وكل ما يدفع المرء للسقوط. تدفع الأنا إلى الإنحدار. وبتجردي من ثيابي لألبس الإحرام، كنت أتجرد من الأنا وأهوائها. ما أن رأيت الكعبة حتى بكيت بدموع حارة، تراءى لي من أحبهم وبكيت، بكيت أهلي الموريسكيين،

ضحايا أبشع الفظاعات، بكيت أبي وأمي وأختي زهرة، بكيت زوجتي للالة تاجة، بكيت خايمي، دوغا، روديس، فنيش، أنتاتي، والذي لا أعرف إن كان لا يزال على قيد الحياة. دعوت لأوجيني. ألست أدين لها بالتحول العميق الذي حدث بداخلي إزاء المسيحية ؟ من الغريب أن شخصين من بين أعز الناس إلى قلبي في هذه الدنيا لا قبر لهما هما روديس ودوغا، وأن الشخصين الذين غيرا نظرتي للأشياء اختفيا وإلى الأبد، أنتاتي وأوجيني. أدين للأول بإعمال العقل الذي سحب عن العالم كل ما يتمسح به من أساطير وأوهام وأراني حقيقة ما يجرى أمامي، وأدين للثانية بالحب الذي رتّق عالما خلا من الأساطير ومنحه معنى.

كنت أردد في خشوع «لبيك اللهم لبيك»، مطيعا لنداء الله، خاضعا لتعاليمه هنا وفي مكان آخر، الآن وإلى الأبد، له وحده الحمد والنعمة والمُلك. وأنا أصلي في المقام الإبراهيمي فهمت دلالة التلبية في الحج، إنها مَقام. إنها منزلة وليست مكانا. لا يمكننا أن نكون قريبين من الله، مثلما كان إبراهيم، إلا إذا ضحينا مثله بأعز ما لدينا. فجأة، حدث لي ما يشبه الكشف، ذكرت ما قرأته وأنا شاب بدير في الأندلس، من كلام موجه للحجاج المسيحين: «لا تغادر هذا المكان إلى أن تتحول». هي ذي فلسفة الحج. وفهمت على طريقتي، واجب المسلم أداء الحج إن استطاع إلى ذلك سبيلا. لا يتعلق الأمر فقط بالاستطاعة البدنية أو المادية وإنما كذلك بالاستطاعة النفسية أيضا، أولئك الذين هم على استعداد للابتعاد عن أهوائهم من أجل حب متعال. إن المسار الذي قطعته ليس سوى طريق من بين طرق عدة. وبإمكان اليهودي والمسيحي والبوذي والمأدري أن يسلكوا مسارات مختلفة لنلتقي، كلنا، مهما كانت سبلنا، في حضرة حب سام. فالدين بالنسبة للذي يبحث عن كنهه سبيل للارتقاء. ويكون فظيعا حين يصير سندا للهوية لأنه، إذّاك ينحصر في رفض الآخر وثلبه، وهكذا، وباسمه يتم القتل والإبادة والإحراق والنهب... لقد عشت مثالب محاكم التفتيش ومساويء الجهاد، الجهاد الأصغر. فباسم محاكم التفتيش أُخرجنا من ديارنا، وباسم الجهاد أراد المرابط العياشي إبادة سكان سلا الجديدة.

إن اللحظة الأهم في الحج هي الوقوف بجبل عرفات. رأيت في لحظات الخشوع تلك اتحادا رائعا، وبدون هذا الاتحاد ليس هناك حج. أن تعيش لوحدك ليس بحياة. إنها شعيرة مليئة بالمعاني والمواعظ. مع مغيب الشمس سرت إلى ملتقى مزدلفة.. مهما تكن طرقنا مختلفة فإننا ننتهي بالتلاقي حين نكون ضمن مجموعة بشرية لها مصير مشترك. بعد صلاة العشائين، جمعا وقصرا، فرّشت حصيرا وتمددت. وضعت يدي تحت رأسي ونمت نوما عميقا.

في الليلة الأولى بمنى، ترآءت لي في المنام رؤيا. رأيتُني أسير هادئا وسعيدا. وفي اليوم الثاني رأيت في الحلم فتاة جميلة ملتحفة بالبياض: «أنا هي، قال الصوت، أختك العزيزة، أنا زهرة، مدَّ إلي يدك...» ضممتها وقبّلت يدها.

- افتقدتك كثيرا ياعزيزتي، قلت لها.

- ها نحن معا أحمد. نادتني بالاسم الشخصي الذي سماني به أبي.

استيقظت ووجهي يطفح بالبِشر. سرت نحو خيمة صغيرة تقوم مقام بيت للصلاة. كان هناك حجاج مستغرقين في النوم، كدت أن أوقظهم وأصيح على آثارهم: وجدت المحبوب.

في الغد، سرت نحو مكة لأقوم بطواف الإفاضة، كنت سعيدا...

حين وصلت المدينة المنورة، زرت قبر النبي سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام. كيف يمكن لرجل أُخرج من دياره، وتعقبه أهله وفتنوه، أن يوحد الأحباش والفرس والبزنطيين وطبعا العرب ؟ وكيف يمكن أن يدعو للعنف كما يدعي مناوئوه؟ وكيف أمكن لإنجازه أن يتحدى عوادي الزمن لو لم يكن له قاعدة متينة. كان رجلا دعا للمحبة، وبالمحبة وحّد من يتوقون للعدالة، وظل مشروعه صامدا لأنه يرتكز على العدل والإحسان. وهل يتحمل مسؤولية من أساء فهم رسالته أو حرّفها؟

غادرت الحجاز مع ابني ابراهيم من نفس الطريق التي جئت منها. في القاهرة زرت الأزهر الشريف والتقيت بالعالم الكبير سيدي علي الأجهوري الذي أجازني في علم الأصول، وأهاب بي أن أكتب رسالة دفاع عن الإسلام إزاء ما يتعرض له من هجمات.

أرهقني السفر في اليابسة ففضلت العودة بحرا، مرورا بالإسكندرية. خُفرنا من طرف أسطول الباب العالي مخافة التعرض لهجمات قراصنة مالطا. في تونس، نزلت عند مفتي الجامع الكبير سيدي أحمد الحنفي، غمره الله بفضله وإحسانه. لم ينقصنا شيء بفضل الله ومنته. وقد حدّثني مفتي الديار التونسية عن الأعمال الحميدة لعصمان باي لفائدة الموريسكيين، تقبل الله منه وأجزل له حسن الثواب، وعن أعمال الولي الصالح أبي الغيث سيدي قشاش، بارك الله في مسعاه. زرت جامعة الزيتونة حيث التقيت بكبار العلماء بها، وبعد قضاء شهر في تونس طلبت من المفتي سيدي أحمد الحنفي الإذن بالذهاب وطلبت منه كذلك رعاية ابني ابراهيم الذي فضل البقاء في تونس. تزوج من موريسكية من الفرع المسلم من عائلة آل عاشور... لم أستطع العودة إلى المغرب، للأسف، لما اعتراه من الفرقة وصراع على السلطة. سرت في طريق الوجه القبلي حتى توزُر. منحني الكاهية وبحسب تعليمات الداي معاشا سمح لي بأن أعيش بشكل لائق. وبفضل هبة من ابني حَكم، حفظه الله، تمكنت من شراء أرض أفلحها. كان الخمّاس لگبلي وزوجته مبروكة يرعيان شؤوني. وعلى غرار ساكنة الواحات السود، كانا مخلصين في عملهما، ولهم إحساس بالواجب وشعور التضامن. كانت مَلاحة أطفالهما تُسرّي عني. إنهم عائلتي الجديدة، ألم يقل الرسول ﷺ بأن «الخلق عيال الله». كلهم وبدون استثناء، بغض النظر عن أعراقهم ومعتقداتهم وأوضاعهم.

أعطيت الإمام الشّابي، حفظه الله وأراه في عقبه ما يتمناه، كتبي ومخطوطاتي وطلبت منه إن سبقته إلى العالم الآخر بأن يكتب على شاهدة قبري ما يلي:

«هنا يرقد العبد الحقير، الفقير إلى رحمة الله،

أحمد بن قاسم الحجري الغرناطي الأندلسي
الملقّب بشهاب الدين أفوقاي
غفر الله له».

وهكذا ينتهي سردي الذي أردته أن يكون شهادة عن فترة مضطربة بين العدوتين، من خلال مساري. مازال صوت روديس يتردد بداخلي: «في يوم ما لن نكون من هذا العالم وينبغي لأحد أن يقدم شهادة عنا» وكان محقا.. تعرضنا للثلب من كلا الطرفين. كنا بالنسبة للقشتاليين مسيحيين سيئين، ونحن مسلمون سيئون بالنسبة لبعض المورو، ولم يتح لنا، في الحالتين، أن نعبِّر عن أنفسنا.

لقد قمت بهذه الشهادة لفهم الهوة التي تفصل العدوتين. كيف يمكن أن نفهم هذه الحرب التي تسمم العلاقات الإنسانية وتعرض للخطر تبادل الأفكار والأشياء ما لم نأخذ في الاعتبار المأساة التي عصفت بنا؟ إنها حرب شنيعة طالت للأسف الأبرياء. ولكن هل ما تعرضنا له أقل بشاعة ؟ حكم علينا غيابنا، ومن دون علمنا، ولم نُدْعَ إلا لتنفيذ الحكم، رغم أننا إسبان، ورغم أننا مسيحيون بالمثاقفة كما نحن اليوم مسلمون بالمثاقفة. على المغاربيين أن يقبلونا على ما نحن عليه، أقل صفاء ربما، ولكن أكثر غنى. أجل، لم يعد ممكنا استئناف الحكم. بلى، يمكن ذلك من خلال التاريخ، وكم ستكون إسبانيا عظيمة إن عمدت في يوم ما إلى استعادة أبنائها، إلى احتضانهم بين أذرعها، تناغيهم وتربِّتُ عليهم، آنذاك ستختفي كل الآلام التي عانينا، كما يبدد الشمس الغمام. حركة تكفير عن المآسي. التفاتة من أجلنا ومن أجل إسبانيا، ومن أجل علاقات هادئة بين العدوتين. التفاتة صغيرة ذات بعد كبير. وإلاّ، وإلاّ سنجتر آلامنا التي سيستثمرها بعض المغامرين ضدنا وضد إسبانيا وضد الإنسانية جمعاء.

في كل صباح، وبعد صلاة الفجر، أبسط سجادة على سطح المترل، وأراقب النور وهو ينبلج رويدا رويدا من المشرق، وأنا أعبث بسبحتي و أردد بيت ابن النحوي، وليد توزُر، من قصيدته الشهيرة، المنفرجة:

اشتدي أزمة تنفرجي قد آذَن ليلـــك بالبلج.

تطوان 12 مارس 2010



كنت أبكي في صمت، فهمت لماذا جعل القشتاليون منا لقمة سائغة. لم يكن لنا سند نرتكز عليه. فالكلام الجميل، وعبارات المواساة لا تكفي، ولا يمكننا أن نستند إلى شجرة تنخرها الأحقاد وتأكلها الصراعات. لم يكن لنا عمق استراتيجي : الأتراك يحاربون المورو، والمورو يحاربون أهل السودان. البعض يقاتل البعض الآخر. وماذا بإمكان شجاعتنا أن تفعل؟ كان صراع الموريسكيين بطوليا لكنه بلا نتيجة. كان الداء عميقا.

قاطعني أنتاتي :

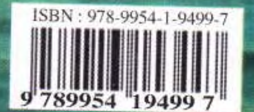
- فيم تفكر شهاب الدين؟

- لدي إحساس بأننا، نحن الموريسكيين، اللعنة التي أصابت الأمة الإسلامية.

- كيف ذلك؟

- مع كل هذا الوهن الذي يَرين على دار الإسلام، سُيضطهد أقوام آخرون ويُقتلون ويُطردون من ديارهم، ظلما مثلنا. ولن يكون لديهم من يُعوّلون عليه..

ثم انهمرت دموعي.


ISBN : 978-9954-1-9499-7

70 درهما